في نقد تنظيم «القاعدة»

مساهمة في دحض أطروحات

الحركات الإسلامية «الجهادية»

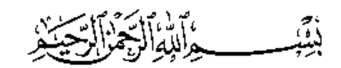
في نقد تنظيم «القاعدة»

مساهمة في دحض أطروحات الحركات الإسلامية «الجهادية»

منتصر حمادة







الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-978-9



الدوحة - قطر

هواتف: 4930181 -4930183 -4930218 (974+)

فاكس: 4831346 (974+) - البريد الإلكتروني: E-mail: jcforstudies@aljazeera.net



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

تمهيد

كـــان لافتا للأنظار أن تشهد المكتبات الغربية، بشكل أو بآخر، إقبالا مثيرا ومنتظـــرا، مباشرة بعد صدمة اعتداءات نيويورك وواشنطن في 11 أيلول (سبتمبر) 2001، وإن كـــان هاجس معرفة الإسلام طاغيا وسط الجماهير التي طرقت أبواب هـــذه المكتـــبات، كمـــا كان لافتا أيضا أن نشاهد هرولة محمودة للاطلاع على الأعمـــال العـــربية والغربية التي تطرقت آنذاك لواقع الحركات الإسلامية عموما، و"الجهادية" خصوصا، وعلى رأسها تنظيم "القاعدة"، إلى درجة صدور قصاصات إخبارية عن ارتفاع نسبة اعتناق الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية، على غرار ارتفـــاع ذات النـــسبة في الدانمرك، بُعيْد صدمة نشر الرسوم الكاريكاتورية سيئة الذكر، كما لو كان الإسلام، في حاجة إلى أزمات دولية واستفزازات هُوياتية من أجل أن يُعْتنق من قِبَل أتباع قوم أو ثقافة أو حضارة.

وبَدَهِـــي، أنـــه بسبب النهم الغربـــي لُمجمل هذه المؤلفات، وبسبب ندرة المـــؤلفات النوعـــية، شهدنا طفرة في الإصدارات العربية والغربية التي غاصت في تفكـــيك ونقد ونقض الظاهرة الإسلامية الحركية، وما يهمنا من خلال عملنا هذا الوقوف عند ملاحظتين أساسيتين:

- إذا كانت الإصدارات الغربية قد تداخلت فيها دواعي المنهجية العلمية والمرجعية الفكـــرية أو الدينية، وكذا الحسابات الأمنية أو السياسية أو حتى التجارية، التي قد تكون وراء إصدار هذا العمل أو ذاك، فإنا وجدنا الساحة العربية قد عجت بالإصدارات التي يمكن نعتها بالوصفية أو التقريرية، مع تواضع المؤلفات النقدية الرصينة.
- أما بالنسبة إلى باقي الدراسات التي تطرقت للتنظيم، فقد صبّ سوادها الأعظم في مأزق شيطنة التنظيم، أو تكفيره، أو الإصرار على تحرير أحكام قيمة، بهدف

تـــبرئة الـــذات تارة، أو تصفية حسابات مذهبية تارة ثانية، أو نيل رضا صناع القرار السياسي والأمني في المنطقة العربية، وفي دهاليز البيت الأبيض، تارة ثالثة، فيما يُشبِه تقزيما للتعامل الجاد مع الظاهرة، على اعتبار أن تحرير أحكام قيمة من هـــذه الطينة، لا يعفي العقل الإسلامي المعاصر من توضيح مواقفه الصريحة مما يجري، بشكل مسؤول وجدي، مما يتطلب توضيح نقاط أربع:

أولا، لا نـــــزعم، أن عملنا هذا يُعتبر بديلا لُمجمَل الأعمال التي صدرت في المجـــال التداولي العربـــي الإسلامي، ولكننا نُلِحُّ على أنه يندرج قطعا ضمن باب إبـــداء الموقف الصريح مما يصدر عن التنظيم، عبر تجاوز سقف الوصف والتقرير، والابـــتعاد عن إبداء الرأي، مع فارق أن النقد الذي نُوجّهُهُ في هذا العمل، يتأسس علـــى قـــراءات نقديـــة شتى، صدرت في المجالين التداوليين، الإسلامي/العربـــي والغربـــي على حد سواء، ويبتعد بالكلية عن منطق "التقديس" و"التدنيس"، ذلك الـــذي يُمَيّـــز إصدارات "أحكام القيمة" التي اطلعنا عليها على الخصوص في المجال التداولي الإسلامي العربـــي.

ثانـــيا، عـــندما نتحدث عن "نقد تنظيم القاعدة"، فليس مرادنا تكرار النقد "الفـــضفاض" الصادر عن العديد من الأقلام العربية والإسلامية والغربية، وهو نقد اختزالي مؤدلج، وقصير الأمد والنظر والتأصيل، بقدر ما يهمنا الاستشهاد بانتقادات رصـــينة صـــادرة عن أسماء تملك حدا أدنى من المصداقية والرصانة في تناول ظاهرة مجتمعية مُرَكّبة.

ثالثا، نعتقد أن قراءات التبجيل (كوصف ابن لادن بالشيخ) أو التدنيس (من قبيل تكفير زعيم تنظيم "القاعدة")، تندرج ضمن مآزق التبسيط واختزال الظاهرة، وبالتالي خلط أوراق إشكالية مُؤَرِّقة تحمل عنوان "التفاعل الموضوعي مع التنظيم"، مـــن منطلق أن ابن لادن جزء من المشكلة، ولا يُمَثِّل كل المشكلة، لولا أن تعاطينا مـــع التفاصـــيل الدقيقة للظاهرة، يُحيلنا بشكل مباشر على دور ومأزق المرجعية الدينـــية، ممـــا يتطلب انخراط علماء الأمة والأقطار العربية والإسلامية في الاشتباك الفقهـــي، ضـــد أدبيات التنظيم، موازاة مع اشتباك معرفي صرف، من المفترض أن يصدر عن المفكرين والباحثين، أي أهل الأفكار الطولى، ممن يشتغلون تحت هاجس تمرير القراءات التفسيرية المُرَكّبة.

رابعا وأخيرا، وحتى لا يُحسَبُ لنا الانخراط في النقد دون الأخذ بعين الاعتبار لائحة من المقدمات الخارجية (أو الموضوعية) التي تساهم في إطالة عمر الظاهرة، فقد توقفنا في ثنايا هذا العمل عند ثقل العوامل الخارجية التي تغذي أدبيات التنظيم، تأسيسا على ما جاء في قراءات غربية وإسلامية بالطبع، تجمع على ضرورة فتح أوراش النقد الذاتي، ذلك الذي من المفترض أن تقوم به السياسات الغربية، وخاصة منها الأمريكية، في حُسن التدبير والتفاعل مع الأسئلة المقلقة التي أفرزها صعود الحركات الإسلامية "الجهادية".

يهدف هذا الكتاب إلى التعريف بأهم ما صدر عن المثقفين العرب والمثقفين الغربيين والمثقفين المسلمين المقيمين في الغرب، وأخيرا، الفقهاء المسلمين في معرض نقد ونقض أدبيات الحركات الإسلامية "الجهادية"، من خلال نموذج تنظيم "القاعدة"، وهذا عين ما يُميّز الفصول الأربعة الأولى من العمل، في حين خصّصنا الفصل الخامس والأخير لاستعراض أهم الخلاصات النقدية المتفرعة عن القراءات التي ارتحلنا معها سلفا، كما توقفنا عند أهم التحديات الحضارية التي تواجه المسؤولين وصناع القرار في المجالين التداوليين، الإسلامي/العربي والغربي، قبل التوقف عند أهم المُسلّمات المفاهيمية المُؤسِّسة لما اعتبرناه كُبْرى مقتضيات مصالحة "الإسلام العربي" بـ "الغرب المسيحي".

أما القاسم المشترك الأبرز بين مُجمَل هذه الإصدارات التي تطرقت للملف، بما فيها طبعا هذا العمل، فنوجزها في الأثر العربي الشهير، والصادر عن الإمام مالك، وهو يشير بأصبعه إلى قبر خير البرية، رسول الإسلام والإنسانية، النبي محمد الذي أرسل "رحمة للعالمين"، ومفاده أن "كل يُؤخذ من كلامه ويُرد، إلا صاحب هذا القبر".

منتصر حمادة

الرباط – تشرين الثاني (نوفمبر) 2009

الفصل الأول

المثقفون العرب ونقد تنظيم "القاعدة"

تواضـــع نظـــري هـــو العنوان المُوجز لما حرّره الكتاب العرب (من مفكرين وباحـــثين وكـــتاب وصـــحافيين..)، كما ونوعا، قراءة وتعليقا وتفكيكا لصدمة الـــتفجيرات الـــتي تعرضت لها العديد من الدول العربية والإسلامية، خلال السنين الأخيرة، والمحسوبة على تنظيم "القاعدة"، وقبلها ما جرى يوم 11 أيلول (سبتمبر) 2001، حـــيث ســـيادة منطق تصفية الحسابات، وطغيان الخطاب الإيديولوجي، وتكـــريس الـــرؤى الاختزالية بشكل مثير مقارنة مع القراءات النقدية الرصينة التي ميّـــزت مثلا تعاطي النخب العالمية – النخب الأوروبية والأمريكية بالدرجة الأولى ومعهـــا بعض النخب العربية – مع صدمة تفجيرات 11 أيلول (سبتمبر) 2001، أو حـــتى ما صدر عن بعض الأقلام الخليجية، في معرض تقييم التفجيرات الدموية التي عرفتها المنطقة العربية خلال السنين الأخيرة. ونخص بالذكر عملين بارزين في هذا الصدد: كتاب "أيام الإرهاب في السعودية"[(1)]، وكتاب "الإسلام والأصولية وخيانة المـــوروث الإســـلامي"[(2)]، وهو عمل قيّم للغاية يندرج في جبهة الاشتباك المعرفي (الفقهـــي والفكري) مع أدبيات الحركات الإسلامية "الجهادية" والمعتدلة على حد سواء.

واضـــح بداية أنه لم يكن لاعتداءات نيويورك وواشنطن أن تحظى بكل هذا التـــضخيم والمتابعة في ربوع العالم بأسره، وفي المنطقة العربية تحديدا، لو لم يتظافر

---

(1) يحيـــى الأمير: أيام الإرهاب في السعودية، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط1، 2007.

(2) الإســـلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي، (أبحاث كتبها باحثون مسلمون غربيون). كتاب أعده للنشر سيد حسين نصر، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، ط1، 2007.

عاملان اثنان مسكوت عنهما في طبيعة ما نُشِر حول الموضوع طيلة السنوات التي تلـــت منعطف 11 أيلول (سبتمبر) 2001، ولا نقصد فقط دلالات وتبعات تورط عناصـــر عـــربية إسلامية في الاعتداءات، بقدر ما نتحدث عن عنصرين ثقيلين في ميزان النظر التأملي، بالصيغة التي توقف عندها المفكر التونسي أبو يعرب المرزوقي، وهمـــا تحديدا كون "فكرنا أصبح مجرد رد فعل"، وكون "مؤسساتنا الخائرة يحكم المستبدين بها الخوف من الخوف"، معتبرا أن "كل استشهادي من المسلمين شهادة مـــنه بأن المسلمين فشل علماؤهم وساستهم في الاستعداد الرادع المغني عن اللجوء لهـــذه الحلـــول اليائسة التي لا يمكن أن تربح بها أمة حربا إلا بشرط أن تخسر كل شروط الحفاظ على المستقبل في المعترك الدولي القادم"[(1)].

وواضـــح ثانـــيا أن أهم القراءات النقدية والتأملية في دلالة هذه الأحداث، صـــدرت عـــن أهـــل الأفكـــار الطولى، والذين أصاب أحدهم، وهو الفيلسوف المغربـــي طه عبد الرحمن، عندما اعتبر أن "نظرة المثقف أو المفكر لهذه الأحداث، لا بـــد أن تخـــتلف عـــن نظرة رجل السياسة ورجل الأمن، ذلك أن نظرة المثقف تـــستوجب إقامـــة مسافة كافية بينه وبين هذه الأحداث، وتتمثل هذه المسافة في الخـــروج عـــن لحظـــات الغـــضب والانفعال الأولى التي قد تصدر فيها أقوال أو تصريحات تفتقر إلى الحكمة والموضوعية[(2)].

قبل التعريج على وجهات نظر باحثين وفاعلين سياسيين، نتوقف عند تدقيق مفهـــوم تطـــرق إليه طه عبد الرحمن بخصوص الخلط اللغوي السائد بين وصف المتورطين في مثل هذه التفجيرات، ما بين الحديث عن "إرهابيين" أو "انتحاريين"

---

(1) وأضـــاف المرزوقـــي أنـــه "إذا واصلت الأمة مثل هذا السلوك فإن مستشهديها لن يستطيعوا تفجير أنفسهم إلا في شعوبهم فضلا عن كون ذلك سيقنع به العدو شعبه بضرورة اللجوء إلى ما عنده من الأسلحة الرادعة التي تعيد الأمة إلى القرون الوسطى".
انظـــر: أبو يعرب المرزوقي. مفارقات الخطاب الإسلامي المعاصر، القدس العربي، لندن، العدد 5284، 25 أيار (مايو) 2006.

(2) طـــه عـــبد الـــرحمن: الحاجة إلى الإبداع وتحدّي الانْقِتال. مقال نشر في أسبوعية "السياسة الجديـــدة"، الـــرباط، عـــدد 23 أيار (مايو) 2003، وفي يومية "القدس العربي" اللندنية تحت عـــنوان "الحاجـــة إلى الإبداع وتحدّي الانْقِتال" بتاريخ 13 حزيران (يونيو) 2003، وضمن أعمـــال العـــدد الاســـتثنائي لمنشورات "الزمن" المغربية، وجاء عنوانه: "المثقفون المغاربة وتفجيرات 16 مايو"، منشورات الزمن، العدد 40، الرباط، 2003.

أو "استـــشهاديين"، وبهدف تجاوز هذا المأزق التوصيفي، اقترح صاحب مشروع "فقـــه الفلسفة" مصطلح "الانْقِتال"، وليس الانتحار أو الإرهاب، على اعتبار أن "القاتـــل في هذه الأحداث لم يقتل غيره فحسب، بل قتل أيضا نفسه، فهذا حال في القـــتل لا يُعَدُّ انتحارا، لأن الأصل في الانتحار أن يقصد المنتحر قتل نفسه، لا قـــتل غيره، ولا إرهابا، لأن الأصل في الإرهاب القصد إلى قتل الغير لا إلى قتل الـــذات، ولا بـــالأولى استـــشهادا، لأن الأصـــل في الاستشهاد هو حفظ حياة الأبرياء"، لذا، استحقت هذه الحالة أن يوضع لها اسم خاص، وقد اشتق لها اسم "الانْقِتال".

وصـــف أحد الأقلام إحدى التفجيرات التي عصفت بالمغرب في ليلة 16 أيار (مايـــو) 2003، بأنهـــا "11 أيلـــول (سبتمبر) المغربية"[1]، وصمتت أغلب الأقلام المغـــربية - نمـــوذجا - عن أسباب تواضع الإنتاج المعرفي من إصدارات ومؤلفات ودراسات حول هذه الأحداث تحديدا، إذا سلمنا بأن الاعتداءات المغربية، جسدت "طـــبعة عربية قطرية" صادمة لاعتداءات نيويورك وواشنطن، وينطبق ذات التقييم على باقي الأعمال التي تعرضت بالنقد والتفكيك لأطروحات الحركات الإسلامية الموصـــوفة بـــ "الجهادية"، وهو ذات الاستفسار الذي توقف عنده أحد الباحثين العرب، عندما اعتبر أن ما يثير التساؤل في السياق الإسلامي، كون الحدث لم يكن لـــه وقع الصدمة في الفكر الإسلامي، ولم ينتج عنه، أي هزة في التفكير الذي أفرز رؤى لا تـــستنكر هـــذا الصنيع[2]، اللهم إلا إذا كانت الظاهرة لا تستدعي إعادة النظـــر في الفكر الديني وآليته أو كونها مبررة دينيا، أو أن رضا الفقهاء بالاستقالة أقال العقول عن دورها في النظر في الأمر[3].

---

(1) حـــنان السقاط: "بين الاستشهاد والإرهاب"، تقديم المستشار عبد الهادي بوطالب، منشورات الزمن، الرباط، العدد 43، 2004.

(2) عبد الرحمن حللي: "التجديد الديني وظاهرة التطرف في السياق الإسلامي المعاصر"، ضمن كـــتاب: الإســـلام فـــي عالم متجدد. سياسات الإصلاح الإسلامي بعد 11 أيلول. (مجموعة مؤلفـــين: عـــبد الـــرحمن الحاج، معتز الخطيب، أبو يعرب المرزوقي، رضوان زيادة، عبد الـــرحمن حللـــي)، الملتقى الفكري للإبداع، دار الفكر، دمشق، ط1، آب (أغسطس) 2005، ص 93.

(3) عبد الرحمن حللي: "التجديد الديني وظاهرة التطرف في السياق الإسلامي المعاصر"، مرجع سابق، ص 94.

قلــة قلــيلة من الكتاب العرب انخرطت في مساءلة الذات العربية الإسلامية بخــصوص خلفيات وقوع هذه التفجيرات داخل وخارج الوطن العربــي والعالم الإسلامي، حيث ركزت أغلب القراءات على تصدير الأزمات الذاتية نحو الخارج، والتركيــز أكثــر على التلويح بورقة الأسباب الخارجية (أو الموضوعية) في توليد العــنف والإرهــاب في المــنطقة والعالم بأسره، وعندما تسود القراءات التفسيرية الاختــزالية، وتتــصلب الرؤية الإيديولوجية، فلا يمكن إلا أن نتوقع تكريس هذا الاختــزال وتأجــيل فتح قضايا فقهية ومفاهيمية تهم العقل الإسلامي المعاصر، مما يحيلــنا علــى مــا نعتبره أهم الأعطاب التي ساهمت في تضليل الرؤى لدى المتتبع والمتلقــي العربــي والمسلم، ونوجزها في مأزقين اثنين: مأزق الأنموذج التفسيري ذي الارتــباط اللــصيق بالمرجعية الإيديولوجية، ومأزق خطاب طمأنة الذات ذي الارتباط اللصيق بخيار "تصدير الأزمات".

المبحث الأول: مأزق النموذج التفسيري وخطاب الاختزال

إن الحديث عن نماذج تفسيرية يفترض التوقف عند الأسئلة التالية:

أي نمــوذج تفــسيري يــصلح للتعاطي الأمثل مع ما يصدر عن الحركات الإســلامية عموما، والحركات الإسلامية "الجهادية" خصوصا؟ هل نختصر مسافة الــتعامل بالصيغة التي نتعامل من خلالها مع الحركات الإسلامية القطرية داخل هذا القطــر أو ذاك، بمــا في ذلك تنظيم "الإخوان المسلمين"؟ وهل نختزل الموضوع في التفكير الأمثل للتعامل مع تفجيرات تبناها إسلاميون "عدميون" (nihilistes) بتعبير العديــد من الأقلام العربية والغربية[1]، أم نتبنى خيار التركيز على المقاربات الأمنية الكفــيلة – مــن وجهة نظر الأقلام المُرَوِّجة لها – بالإعلان عن نهاية "الجهاديين"؟

(1) الإرهابــي المعاصــر ليس عدميا بالكامل، فهو يائس من الحياة، وعلى استعداد لأن يضحي بحــياته الشخصية من أجل الأهداف الكبرى التي تستحق أن يحيا أو يموت من أجلها: الدولة أو الــشعب أو اللغــة أو الــدين، وذلك لتستمر الحياة بشكل أحسن في نظره. وسواء وضع الإرهــاب كهدف له تحقيق مصالح مادية ملموسة لمن يعبر عنهم، أو تحققي مكاسب روحية ومعنوية، فإن وقوده على وجه العموم هي الإيديولوجيا أو الخلفية الثقافية.
محمــد سبيلا: "زمن العولمة: فيما وراء الوهم"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص 84.

وهـــل نقارب ظاهرة تنظيم "القاعدة" من خلال استقراء مقدمات ذاتية تهم العقل الإســـلامي المعاصـــر بما فيها الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرهـــا، للعرب والمسلمين، وتقاطعاتها مع مقدمات موضوعية تهم بالدرجة الأولى واقع سياسات الدول الغربية، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، مع قضايانا العـــربية والإسلامية المصيرية؟ وما فائدة الاستشهاد بقراءات الفلكيين العرب لطالع ابن لادن من قبيل أنه "عنيف ينجح في سحق الآخرين دون أي تردد، ومعتد بنفسه ومـــستبد، ومحب للأضواء، وشهواني"[1]؟، وواضح أن هذه القراءة "التنجيمية" لا تخـــتلف عـــن سمـــات الصورة النمطية المُميزة للعرب والمسلمين في أبرز الأدبيات الاستشراقية؟

ألم يـــصب المفكر المصري حسن حنفي كبد الحقيقة عندما اعتبر أن "اعتبار الظاهرة – متحدثا عن الحركات الإسلامية في مصر – اجتماعية خالصة أو نفسية خالـــصة أو سياســـية صرفة أو تُعَبِّر عن الأزمة الاقتصادية في المجتمع، فذلك كله اختزال للظاهرة ناتج إما عن تعصب للمنهج أو عن رغبة دقيقة للتقليل من أهميتها واستقلالها"[2]؟

يُفَـــرِّق المفكـــر الموســـوعي الـــراحل، عبد الوهاب المسيري بين ما يصفه بــــ "الـــنموذج التفسيري الاختزالي" و"النموذج التفسيري المُرَكَّب" في معرض الـــتعامل مع ظاهرة مجتمعية معينة، مثل ظاهرة الحركات الإسلامية، ونخص بالذكر الحركات الإسلامية "الجهادية". فالنماذج الاختزالية، روحية كانت أم مادية، تتميز انطلاقـــا مـــن تقـــويم المسيري بمستوى عال جدا من التعميم "التفسيري" في حالة النماذج المادية.

أمـــا الـــنموذج المركب، والذي قد يوصف أيضا بـــ "النموذج المنفتح" أو "الـــنموذج التعددي" أو "النموذج الفضفاض" أو "نموذج التكامل غير العضوي"، فإنه يحوي عناصر متداخلة مركبة تعتمل بداخله بحيث يعطي الإنسان صورة مركبة

---

(1) شـــاكر النابلـــسي: بـــن لادن والعقـــل العربـــي: كيف فكّر العرب بعد 11 سبتمبر 2001؟، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)، بغداد، ط1، 2007، ص 165.

(2) حسن حنفي: الحركات الإسلامية في مصر، المؤسسة الإسلامية للنشر، بيروت، ط1، 1986، ص 13.

عـــن الواقع ولا يختزل أيا من عناصره أو مستوياته المتعددة أو تناقضاته أو العوامل المادية والروحية، المحدودة واللامحدودة والمعلومة والمجهولة، التي تعتمل بداخله[1]، ويـــضع المستشار طارق البشري تنظير المسيري على محك أرض الواقع من خلال التنبـــيه علـــى تحـــدي المشاكل الفكرية والثقافية شبه المزمنة التي يعاني منها العقل الإسلامي المعاصر، والتي إن "لم نهتم بحلها الحلول الشاملة، ونكتفي إزاءها بالحلول السياسية السريعة أو بالتغطية الإعلامية الكثيفة، فسوف تخبو ونحن نظن أنها زالت، ثم تحـــدث الـــواقعة التاريخية بكل وضوحها وتضاريسها وينقسم الناس حولها كما كانوا في السابق. والأمر في الواقع يحتاج إلى حلول فكرية وثقافية عميقة وأن نعمل على إذاعتها والتثقيف الفكري بها بجلاء"[2].

ولعـــل تمريـــر القراءات أو النماذج التفسيرية الاختزالية، كان سائدا بشكل لافـــت مقارنـــة بالقراءات أو النماذج التفسيرية المركبة، ونخص بالذكر ما جاء في العديـــد مـــن المقـــالات التي حررت منذ اليوم الموالي لمنعطف تفجيرات نيويورك وواشنطن، ولا زالت تحرر إلى اليوم، وتزداد نسبة هذا النمط من القراءات نظرا إلى ثقـــل المـــآزق اللـــصيقة بالـــتعامل مع هذه الأحداث، وأعني بها مأزق المرجعية الإيديولوجـــية، ومـــأزق الـــنموذج التفسيري، ومأزق خطاب الطمأنة وتصدير الأزمات.

مـــن بين أبرز الأمثلة المكرسة للقراءات الاختزالية، ما صدر مثلا عن الكاتب والمحلـــل الـــسياسي الفلـــسطيني عادل درويش، الذي يُلخص الظاهرة في كونها "إيديولوجـــية الـــشذوذين الـــذهني والروحي بررت لمشعوذي وإرهابيي "التكفير والهجـــرة" و"الـــناجون من النار" و"القاعدة" قتل مسلمين مسالمين لأنهم صادقوا

(1) يُعَـــرِّف عبد الوهاب المسيري مفهوم "النموذج" على أنه بنية تصورية يجردها عقل الإنسان مـــن كم هائل من العلاقات والتفاصيل والحقائق والوقائع، فهو يستبعد بعضها باعتبارها غير دالـــة (من وجهة نظره) ويستبقي البعض الآخر، ثم يربط بينها وينسقها تنسيقا خاصا بحيث تـــصبح (حـــسب تـــصوره) مترابطة، ومماثلة في ترابطها للعلاقات الموجودة بين عناصر الواقع. انظر عبد الوهاب المسيري. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الثاني، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2002، ص 444، ويراجع على الخصوص الفصل الأخير من كتاب "اليد الخفية" لعبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998.

(2) طارق البشري: قراءة على هوامش الحدث الأفغاني، وجهات نظر، القاهرة، العدد 36، السنة الثالثة، كانون الثاني (يناير) 2002.

شـــعوبا وأجناســـا وأديانا أخرى"[1]، أو الدعوة إلى اعتبار أتباع تنظيم "القاعدة" خـــارجين عن الإسلام، كما أشار إلى ذلك منصور إسكوديرو، الأمين العام للجنة الإســـلامية بإسبانيا[2]، أو ما صدر عن الكاتب المصري المقيم في الديار الأمريكية، مأمـــون فـــندي[3]، أو اعتـــبار هؤلاء الأتباع مجرد "أوباش"، مطلوب "تصفيتهم جـــسديا وضربهم بكل قوة"، كما صدر يوما عن مفتي جمهورية مصر، الشيخ علي جمعـــة، أو الهـــروب نحو شماعات ميدانية تخدم مصالح فقهاء السُّنَن والنوافل، كما صدر يوما عن رئيس تحرير مجلة "السلفية" في السعودية، الشيخ موسى العبد العزيز، والـــذي اختـــزل مجمل هذه الإكراهات والتحديات، في تمرير جملة من الانتقادات للإخـــوان المسلمين متهما إياهم بأنهم "دبروا مكيدة اعتداءات 11 أيلول (سبتمبر) 2001، بهدف إفساد العلاقات السعودية – الأمريكية"[4].

---

(1) عـــادل درويـــش: القاهرة، الرياض، إسطنبول: الإرهاب وكعب أخيل، الشرق الأوسط، عدد 9130، 27 تشرين الثاني (نوفمبر) 2003.

(2) صدرت الفتوى عن اللجنة الإسلامية الإسبانية يوم 11 آذار (مارس) 2005، تزامنا مع حلول الذكـــرى الأولى لهجمات مدريد، والتي أوقعت 191 قتيلا، وأعلن تنظيم "القاعدة" في أوروبا مـــسؤوليته عـــنها، وتـــنص الفتوى على أن "أسامة بن لادن خرج عن الإسلام بسبب دعمه لهجمـــات مـــثل تفجيرات قطارات مدريد التي وقعت في إسبانيا"، حيث صرّح الأمين العام للجـــنة منـــصور إسكوديرو: "إن أية جماعة تستشهد بالإسلام لتبرير هجمات إرهابية تضع نفـــسها خـــارج حـــدود الإسلام"، وتمثل اللجنة التي أصدرت الفتوى حوالي مليون مسلم في إســـبانيا، كمـــا أشار منصور إسكوديرو، إلى أنه جرت استشارة علماء مسلمين في عدد من الـــبلدان الإسلامية من بينها المغرب والجزائر وليبيا (ويقصد علماء مؤسسة "القيادة الشعبية الإســـلامية العالمية"، على اعتبار أن اللجنة تعتبر فرعا للقيادة في إسبانيا)، حيث قدّم أولئك العلماء تأييدهم للفتوى.
هدى العمري: فتوى للجنة الإسلامية بإسبانيا تعتبر بن لادن خارجا عن الإسلام وتدعو أئمة المـــساجد للانتباه إلى دعاة العنف، تقرير إخباري، الشرق الأوسط، لندن، العدد 9601، عدد 12 آذار (مارس) 2005.

(3) يـــرى فندي أنه "حان الوقت لإصدار فتوى لإخراج أسامة بن لادن وأتباعه من ملة الإسلام. ونحـــتاج فـــي الواقـــع إلى سلسلة من الفتاوى المضادة، تؤكد أن الإسلام لا يؤيد العنف ضد الأبـــرياء، أو أن الإســـلام يدين مثل هذه الأعمال. وهذا ليس كافيا. بل نحتاج لاستبعاد حتى هؤلاء ممن هم بيننا من الذين يرون ضرورة الدفاع عن الإسلام بهذه الطريقة".
مأمـــون فندي: الإرهاب: وأين هي الفتوى المضادة؟ الشرق الأوسط، لندن، عدد 25، يوليو 2005.

(4) بل إنه وصف المفكر الإسلامي سيد قطب بأنه "سيد الخوارج"، مضيفا بأن "القطبية (نسبة إلى سيد قطب) تتشابه مع العلمانية في أن الأخيرة تعتبر أن الحاكمية للناس ولا إله والحياة مادة،

مـــثال آخر، لا يخرج عن دائرة القراءات الاختزالية للظاهرة، ويحمل عنوان: "تأهـــيل الحقـــل الديني"، حيث يرى المؤلف أن تفجيرات الدار البيضاء مثلا، لها "علاقـــة بجهـــاد ضد الكفار، والمقصود هنا عموم المجتمع المغربـــي"، وأن "نظرة يـــسيرة إلى مـــؤهلات العناصر المنفذة والمخططة للاعتداءات، ستجدها لا تتعدى مستويات المرحلتين الابتدائية والإعدادية، مع هيمنة المستوى الأول على الثاني"(1). ومـــا قد يُشكِّك في ثنايا الجزئية الخاصة بالمستوى التعليمي المتواضع للمتورطين في الـــتفجيرات، تأمل المستوى التعليمي للمتورطين في تفجيرات نيويورك وواشنطن، حـــيث تبيَّن أنهم "ليسوا يائسين وليسوا سكان مخيمات لاجئين، وأنهم ينتمون إلى الطبقة الوسطى وهم متعلمون كفاية بحيث يستطيعون الالتحاق بمدرسة للطيران في فلوريدا ويستطيعون التحدث بالإنكليزية"(2).

لا نـــــزعم أننا نمتلك نموذجا تفسيريا مُرَكَّبا حول التعامل الأمثل مع ظاهرة تنظيم "القاعدة"، بقدر ما يهمنا الاستشهاد بثنايا قراءة نقدية في الظاهرة الإسلامية الحـــركية "الجهاديـــة"، تأسيسا على ما جاء في أحد أبرز الأعمال النقدية، ويحمل عـــنوان "أيام الإرهاب في السعودية"، لمؤلفه الباحث السعودي يحيى الأمير، والذي يقـــر بداية بأنه لا يملك مفاتيح الجهاز المفاهيمي المُمَيِّز للخطاب الإسلامي المُشَرْعِن لعملـــيات العنف والتقتيل والإرهاب، إلا أنه يمرر مجموعة من الاجتهادات اللصيقة بـــدور حاســـم، من المفروض أن يقوم به التيار الإسلامي الوسطي والمعتدل، عبر البحث والحفر عميقا في "أرضية الخطاب المتطرف والأحادي والإقصائي والتداخل

فـــي حـــين أن الأولـــى ترى الحاكمية لله ولا إله إلا الله وهي حاكمية الله"، وأضاف أنه "لا يستطيع تكفير ابن لادن وأعضاء تنظيم القاعدة كما فعل الدكتور منصور إسكوديرو والمجلس الإسباني، لأن ابن تيمية رأى أن من ينطق بالشهادة لا يعد كافرا".

انظـــر: شـــيخ ســـعودي: اعـــتداءات 11 أيلول مكيدة من الإخوان لإفساد علاقات السعودية بأمريكا، القدس العربي، لندن، عدد 28، حزيران (يونيو) 2005.

(1) محمـــد عزيز الوكيلي: تأهيل الحقل الديني. مطابع "سوماكرام"، الدار البيضاء، ط1، 2006. ويعتبـــر هـــذا العمل من الدراسات القليلة الصادرة عن أحد أعضاء علماء المؤسسة الدينية الرســـمية فـــي المغرب، ولم يتجاوز السقف "التفكيكي" لأغلب هذه الدراسات مرتبة "النماذج التفسيرية الاختزالية".

(2) إدوارد ســـعيد: الثقافة والمقاومة، حوارات أجراها معه دايفيد بارساميان، ترجمة علاء الدين أبو زينة، دار الآداب، بيروت، 2006، ص 106.

العلمـــي والمنهجي مع تلك الرؤى بدلا من خطابات الشجب والإنكار المجردة"[1]، أو أنـــنا لا زلنا "بحاجة إلى مشروع يقوّض البُنى الفكرية والنظرية للإرهاب، ويقوم علـــى التداخل المعرفي الفعلي مع كل أنماط التحليل والقراءة المتطرفة للنصوص"[2]. ويؤســـس الكاتـــب مبحـــثه الهام على ما يُشبِه ثلاث مُسَلّمات، نوردها مقترنة باعتراضات ملازمة.

أ – **المُسَلّمة الأولى**: "لا تمثل الأديان مشكلة في حدا ذاتها، والإسلام ليس معضلة في ذاتـــه، ولكن الثقافة التقليدية والبدائية التي تولت إدارة هذا الدين هي التي أوصـــلته إلى ما هو عليه الآن"، وهذا طرح يذكرنا بالذي صدر عن الأديب الفرنـــسي، التونـــسي الأصل، عبد الوهاب المؤدب[3] والذي أشار في كتابه "أمـــراض الإسلام" إلى أن "الإسلام ليس أصل الداء، بدليل أن أولئك الذين اعتـــنقوا الإســـلام عملوا على إبدال حتى بنية الحضارة"، أو في الذي "فعله المسلمون أنفسهم بالإسلام"[4].

ولا حاجـــة لنا لسرد مجموعة من القراءات النقدية التي تصب في هذا المنحى، مـــن قبـــيل إقـــرار أحد الباحثين أن كل الأحداث والوقائع غداة تفجيرات

(1) يحيى الأمير: أيام الإرهاب في السعودية، مرجع سابق، ص 157.
يستعرض الكاتب تاريخ وأسس ظاهرة الإرهاب، وتحديدا في المملكة العربية السعودية، وخاصة بعـــد توجـــيه أســـهم النقد للمملكة بُعَيد صدمة اعتداءات نيويورك وواشنطن، باعتبار أن أغلب المتورطين في تلك الاعتداءات، كانوا سعوديين، حسب الرواية الرسمية، ونقرأ إذا ضمن عناوين الفـــصل: "تحـــولات القـــيمة في ثقافة الجهاد والشهادة"، "السعوديون.. مواطنون أم مؤمنون؟"، "حركات الإرهاب في السعودية"، "مجاهدون يقتحمون الحرم"، "غابت الوطنية فظهرت خطابات التطرف"، "القوائم السعودية أمام أعداء سعوديين"، "الجبهات المفتعلة والنصوص المفترى عليها"، "أبـــناؤنا في الفلوجة"، "واقفون في الظلام يصفون لنا شكل النور"، "الجنة على مرمى حجر من سور القنصلية"، وأخيرا، "ضرب الإرهاب بالتشدد، أخطاء ما بعد جهيمان".

(2) يحيى الأمير: أيام الإرهاب في السعودية، مرجع سابق، ص 93.

(3) ســـوف نتوقف في الفصل الثاني المُخصّص لاستعراض قراءات المثقفين المسلمين المقيمين في الغرب للظاهرة "الجهادية"، عند بعض أعطاب قراءة عبد الوهاب المؤدب.

(4) صـــدر الكـــتاب باللغـــة الفرنسية تحت هذا العنوان: "أمراض الإسلام" (les maladies de l'Islam)، واخـــتار عـــنوان "أوهام الإسلام السياسي" كترجمة لعنوان الطبعة العربية، التي أشرف عليها وأعدها الشاعر المغربي محمد بنيس وعبد الوهاب المؤدب.
انظـــر: عبد الوهاب المؤدب: "أوهام الإسلام السياسي"، ترجمة عبد الوهاب المؤدب ومحمد بنيس، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2004.

نـيويورك وواشـنطن، "أثبتت – أن الإسلام يستمر – وبعد أكثر من 14 قـرنا – في تـشكيل عامل حاسم في لم الشمل واستنهاض الهمم، ويطرح إمكانيات هائلة للتعبئة المضمونة فعاليتها، وأنه الثقافة القابلة للتجدد إلى ما لا نهايـة وبالـتالي فالمـشكلة اليوم فينا وليست فيه. كل شيء بعد 11 أيلول (سـبتمبر) 2001 ينطق بكون الإسلام مكونا أساسيا لثقافتنا. بل هو المكون الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال القفز عليه أو تجاوزه وتجاهله"[1].

مـن المثير أن تكون أصوات الأقلام العربية والإسلامية المطالبة بإعادة قراءة النصوص القرآنية والنبوية من أكثر الأصوات إحاطة بالاهتمام والترحاب في المجـال التداولي الغربـي، في شقه الأوروبـي على وجه الخصوص، بحكم القـرب الجغرافي واشتباكات الأحداث التاريخية، وهذا أمر متوقع من أقلام تعتبر أنه إلى جانب مسؤولية حركات إسلامية تمارس عملية انتقاء للنصوص الدينـية الـتي تبرر ميولها المتطرفة، هناك أيضا "مسؤولية احتواء القرآن على نصوص تُبرّر العنف من جهة"، مستشهدة بالعديد من الآيات القرآنية، منها: ﴿وَمَـنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سـورة آل عمران، الآية 85)، وكون "الدين يعرف جيدا أن وجوده مبني على التعصب"[2].

ب – **المُـسلّمة الثانية:** "لا علاقة للإرهاب بالبطالة أو الدعوة إلى الإصلاح، وإنما المحرك الأبرز لكل ما يحدث هو محرك عقدي يقيني ديني، إنه في النهاية إرهاب

---

(1) ديـرار عـبد السلام: ما الذي تحقق للجهاديين من حروبهم؟ القدس العربي، لندن، 4 تموز (يوليو) 2005.

(2) سعدون محسن ضمد: اغتصاب الإسلام، قضايا إسلامية معاصرة، بغداد، السنة الثالثة عشرة، العدد 39، شتاء وربيع 2009، ص 296.

على أن المثير في ثنايا العدد الذي تضمن هذه الدراسة التي تُحمل جزءا من مسؤولية العنف والتطـرف والإرهـاب للآيـات القرآنية، تضمن في المقابل، مبحثا آخر قيّما للغاية، حرّره المفكـر التونـسي محمد الطالبي، يستشهد فيه بآيات قرآنية تصب في الاتجاه المعاكس الذي أشـار إليه الباحث العراقي سعدون، ومن هذه الآيات، نذكر مثلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُـسَكُمْ لاَ يَـضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ...﴾ (سورة المائدة، الآية 105)، ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْـتَدِي لِنَفْسِه...﴾ (سورة الإسراء، الآية 15)، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (سورة الغاشية، الآيتان 21 و22).

قـــائم على النص وآت منه وعائد إليه"[1]، كما أنه يصعب إنكار وجود تيار ديـــني فقهـــي في المنطقة، "غذّى التطرف وساهم في انتشاره، وهو الانتشار الـــذي استقلت معه تلك الآراء بنفسها حتى أصبحت تيارات وأصواتا تكفر وتشنع وتتصلب وترفض دون أدنى وعي أو اعتبار لأي حسابات"[2].

وما يؤزم المشهد، وجود "أصوات أخرى داخل التيارات الدينية تظهر بين حين وآخـــر، لتعلن أنها تدين الإرهاب وترفض العمليات الانتحارية والإجرامية التي شـــهدناها في المملكة، وفي ذات الوقت، تقدم خطابا يتقاطع ويتفق في معظم عناصـــره مـــع خطابات الإرهاب الفعلي. فهي ترفض الإرهاب لأنها تعلم أن مجـــدها الزائف سوف يسقط إذا ما أعلنت أي تعاطف مع العمليات الإرهابية، ولكـــنها في ذات الـــوقت تدين بكل ما في الذهنية الجهادية من تطرف وآراء تكفيريـــة وعنفية واضحة"[3]، في تقاطع مع ما أشار إليه المفكر اللبناني رضوان الـــسيد، مـــن أن "منظمة القاعدة لا تأمل في سحق الولايات المتحدة من وراء أعمالهـــا العنيفة؛ بل إنما تنتقم لله من هذه الجاهلية المسيطرة، وتنتقم من نفسها لأنها قبلت سابقا هذا التجديف الكوني، وتفتدي بذلك المسلمين من أن ينالهم جمـــيعا عقـــاب الإهمـــال والغفلة، إن لم يكن الردة"[4]، وقد تطرقنا بمزيد من التفـــصيل لهـــذا المـــأزق في عمل سابق[5]، وهذا عين ما توقف عنده الباحث الأردني أكـــرم حجـــازي بخـــصوص ثقل المرجعية/الخلفية الوهابية في أدبيات الإســـلاميين الجهـــاديين، ملاحظـــا أن الوهابية تمثل "إحدى المصادر الشرعية

(1) يحيى الأمير: مرجع سابق، ص 173.

(2) يحيى الأمير: مرجع سابق، ص 187.

(3) يحيى الأمير: مرجع سابق، ص 176.

(4) رضوان السيد: العنف الديني تجاه الآخر: الجهاديون بين الإمبراطورية والمقدس الشعائري، قضايا إسلامية معاصرة، بغداد، السنة الثامنة، العدد 27، ربيع 2004-1425هـ، ص 163.

(5) هناك أكثر من وقفة تأمل مطلوب القيام بها بخصوص مأزق التعاطف، ولا يهمنا التوقف كثيرا عـــند أسباب تمرير الحركات والأحزاب الإسلامية المنخرطة في العمل السياسي الشرعي لخطاب الطمأنـــة الأقرب إلى التقية، ما دامت الأمور تختلط فيها حسابات الاستحقاقات الانتخابية، بكل التبعات المادية والرمزية التي يجلبها حصد نتائج هذه الاستحقاقات، بقدر ما تهمنا فداحة الحديث عن نسبة من المتعاطفين والمؤيدين لتنظيم "القاعدة" في دولة عربية إسلامية.
منتصر حمادة: "نحن وتنظيم القاعدة"، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2008، ص 112.

والتاريخية للفكر الجهادي العالمي لكنها ليست المصدر الوحيد، وتبعا لذلك ليست السلفية الوهابية الجهادية هي التيار الجهادي العالمي ولا هي المخولة بالتحدث باسمه، كما أن التيار الجهادي أوسع، في مرجعياته ومكوناته، من أية مرجعية منفصلة. والحقيقة أن التصاق تعبير السلفية بالتيار الجهادي العالمي يمكن رده إلى عدة أسباب منها كثرة منتسبيه من الجزيرة العربية خاصة من السعودية إثر دخول الدولة على خط الجهاد الأفغاني الأول، وتبني الكثير من علماء السعودية للمشروع الجهادي ممن ذاع صيتهم في الأوساط الجهادية والإعلامية وانقسام السلفية الوهابية إلى سلفية تقليدية وأخرى جهادية الأمر الذي سمح باستخدام المصطلح بهدف التمييز بين التيارين"[1].

على أن تأسيس الكاتب لأطروحته النقدية ضد أدبيات "الجهاديين"، على مُسلّمة تسحب البساط عن دور وتأثير مطالب الإصلاح والديمقراطية في تأجيج مشاعر الاحتقان، قوبل بطرح مضاد، صدر عن العديد من المفكرين والباحثين العرب، ومفاده أن غياب الإصلاح السياسي تحديدا، هو المُحفّز الأكبر لظهور نزعات العنف والتطرف والإرهاب، ويمكن استحضار التجربة الجزائرية المريرة فيما أصبح يُصطلح عليه بـ "العشرية الدموية"، ما بين 1990 و2000، على هامش إلغاء المؤسسة العسكرية لنتائج الانتخابات التشريعية لعام 1992 التي كانت تُمهّد لصعود "الجبهة الإسلامية للإنقاذ" لسدة العمل الحكومي والحكم التشريعي، وهناك طرح أكثر جرأة ومكاشفة في هذا الصدد، يرى أن "ظهور العنف في المجتمع، دليل على أن نظام الثقافة والقانون والتأهيل الإنساني لا يعمل كما ينبغي، ودليل أيضا على خلل في نظام القيم الجامعة بين المجتمعات"، بتعبير برهان غليون، الذي يذهب بعيدا في سحب البساط عن ثقل الخطاب/النص الديني في التأسيس لأعمال العنف والإرهاب لدى الحركات الإسلامية "الجهادية"، معتبرا أن الأمر يتعلق بـ "تعرض المنطقة العربية والإسلامية للعنف الغربي والتسلط والاضطهاد والظلم"[2].

(1) تقرير إخباري حول محاضرة الباحث الأردني أكرم حجازي في موضوع "مدخل إلى السلفية الجهادية ومشروعها الجهادي"، العرب اليوم، عمان، 19 نيسان (أبريل) 2008.

(2) حوار مع برهان غليون، أجراه عبد الجبار الرفاعي (مدير مركز دراسات فلسفة الدين ببغداد)، فصلية قضايا إسلامية معاصرة، بغداد، عدد مزدوج 37–38، صيف وخريف 2008.

ج – **المُسلّمة الثالثة:** "لا يمكن اختزال المواجهة ضد الجهاديين في الجبهة الأمنية، فلم يكن خروج الإرهاب ناتج انفلات أو قصور أمني، بقدر ما هو ناتج مشكل ثقافي ديني وفقهي"[1]، وما يلفت النظر ويستوجب المساءلة في ظهور الإرهاب في السعودية حسب المؤلف، كون الذين يقومون الآن بعمليات التفجير والقتل، "ليسوا طارئين على المجتمع ولا قادمين من خارجه بل هم حصاد لحالات من الانفلات النظري التي سادت الدائرة العامة للتدين وانقلبت عليها وتمردت على سلميتها وقد تمثل ذلك الانفلات النظري في مظاهر متعددة لعل أبرزها صورة المتدين الأممي الذي يمتد من أفغانستان إلى فلسطين إلى الشيشان[2].

ورُبّ مدافع عن المُسلّمة الثالثة، من باب أن المقاربة الأمنية شبه الاستئصالية، ساهمت بشكل كبير في تسريع وتيرة المراجعات الفقهية الصادرة عن العديد من الحركات الإسلامية "الجهادية"، أو المعتقلين السلفيين المتهمين إعلاميا وأمنيا بموالاة تيار "السلفية الجهادية"، كما هو الحال في النموذجين المغربي والليبي مع صدور مراجعات فقهية وازنة عن رموز التيارات "الجهادية"، على غرار المراجعات الصادرة عن النموذجين المصري والسعودي، لولا أن ثمة إجماعاً من قبل أهل الأفكار الطولى وأهل النظر الثاقب والرصين على أن التصدي الاستراتيجي للأدبيات والاعتداءات الصادرة عن الحركات الإسلامية "الجهادية" أكبر من أن يختزل في المقاربة الأمنية، إن لم يكن التطرف المؤسساتي في تبني هذه المقاربة يساهم في إطالة أمد الحرب الكونية القائمة بين الولايات المتحدة الأمريكية و"الجهاديين" في ربوع العالم بأسره.

بالنسبة لأبرز الانتقادات الموجهة تحديدا لتنظيم "القاعدة" وللتيارات الإسلامية الموالية للتنظيم، فكريا أو تنظيميا، في ربوع الوطن العربي والعالم الإسلامي، يُمكن إجمالها عموما – كما جاءت في المبحث المرجعي لهذا الفصل – من خلال اعتبار التنظيم بمثابة "النموذج الأعلى للتشدد والتدين

(1) يحيى الأمير: أيام الإرهاب في السعودية، مرجع سابق، ص 174.
(2) يحيى الأمير: أيام الإرهاب في السعودية، مرجع سابق، ص 85.

المتطـــرف"، وأنه "يعيش أزمة تواصلية مع الحياة، ويشدّها نحو السابق ثقافيا وإداريـــا وسياســـيا، ومـــا يشتغل عليه من خطاب هو ذات ما يشتغل عليه مـــشايخ التطـــرف في السعودية أو في غيرها من مناطق العالم الإسلامي، من خـــلال نـــداءات الجهـــاد والثورة والمقاومة والغرب والكفر، ودفع الصائل والولاء والبراء، ليسرّب خطابا متزمتا إرهابيا. وبالتالي، فلا يجب لكي يكون الفـــرد إرهابيا متطرفا أن يكون تابعا حركيا للقاعدة، وإنما أن يكون معتنقا لـــذات الأفكـــار وذات الرؤى التي يشتغل عليها تنظيم "القاعدة"[(1)] فكانت النتيجة في نهاية المطاف، أنه "على الصعيد السياسي، لم يحصل الجهاديون على شيء من أهدافهم، إذ العنف هو أبعد الحلول عن الممارسة السياسية، فكانت نتائج فكرهم انتكاسا على جميع الأصعدة"[(2)].

المبحث الثاني: مأزق الأيديولوجيا وخطاب الطمأنة

تعلمـــنا سُـــنن الكون وتاريخ الإنسانية أنه كلما تطرفنا في تمرير الخطاب الإيديولوجـــي، كلما ابتعدنا عن "الحقيقة"، أو ما يقترب من هذه الحقيقة الأشبه بــــ "الكـــبريت الأحمر"، ولا تنقص الأمثلة التي تصب في التأزيم المنهجي الذي يفرزه تصلب الخطاب الإيديولوجي، وقد يكون أبرزها، ما صدر يوما عن بعض رمـــوز التيار "الليبرالي العربـــي"، عندما تسلّم الأمين العام السابق للأمم المتحدة كـــوفي أنـــان في مطلـــع آذار (مارس) 2005 ما سُمِّيَ بـــ "البيان الدولي ضد الإرهـــاب" الـــذي أعده وزير التخطيط العراقي السابق جواد هاشم، والباحث التونسي العفيف الأخضر، والباحث الأردني شاكر النابلسي، ووقّعت عليه أكثر مـــن أربعـــة آلاف شخصية فكرية وثقافية وفنية، حيث دعا البيان مجلس الأمن والأمم المتحدة إلى "إقامة محكمة دولية لمن أُطْلِق عليهم "فقهاء سفك الدماء" من علماء وفقهاء "يصدرون فتاوى الإرهاب والقتل بحق المدنيين من النساء والأطفال الأبرياء".

(1) يحيى الأمير: أيام الإرهاب في السعودية، مرجع سابق، ص 151.
(2) عـــبد الرحمن حللي: التجديد الديني وظاهرة التطرف في السياق الإسلامي المعاصر، ضمن أعمال كتاب "الإسلام في عالم متغير"، دار فكر، دمشق، ط1، 2005، ص 98.

بعـــد مرور ثلاث سنوات على البيان الذي وقّع عليه شاكر النابلسي، سوف يـــصدر الـــباحث كـــتابا مُفصّلا حول الموضوع يحمل عنوان: بن لادن والعقل العربـــي: كيف فكّر العرب بعد 11 سبتمبر 2001"[(1)].

كـــان مأمـــولا أن تكون رؤى الكاتب أكثر اعتدالا وإنصافا لقراءة أزمات المنطقة العربية ومعها الأزمات الأكبر التي تهم العقل العربـــي والإسلامي المعاصر، لـــولا أن الاطـــلاع على بعض حيثيات الكتاب، أكدت للمتلقي/الناقد أن تغلغل الرؤى الإيديولوجية المحسوبة على تيار "الليبراليين العرب الجدد"، لا يزيد الأمور إلى تعقيدا ولا يزيد الصورة إلا قتامة، بدءا بإصرار المؤلف على وصف مقاتلي "الأفغان العـــرب" (في حقـــبة التـــصدي للغزو السوفياتي قبيل سقوط جدار برلين) بأنهم "عـــربان"، تيمّنا بذات "التسمية التي أطلقها مؤرخ الدولة السعودية الرسمي اللبناني أمـــين الـــريحاني على جماعة الإخوان الوهابيين المحاربين"[(2)]، ونهاية بإصراره على ســـحب البـــساط عن ثقل الأسباب الموضوعية في تغذية ظواهر العنف والتطرف والإرهاب، باعتراف العديد من الأقلام الغربية[(3)] قبل العربية[(4)] من قبيل استنكاره العلـــني بأن "العقل العربـــي لم يتغير بعد كارثة 11 أيلول (سبتمبر) 2001، حيث ظـــل محافظا على ثوابته السابقة بعد هذه الكارثة، وقد عدد منها لائحة نذكر منها

(1) شاكر النابلسي: "بن لادن والعقل العربي"، مرجع سابق، ميزة العمل الأبرز أنه تجميع نقدي للعديـــد من القرارات العربية بخصوص ظاهرة الحركات الإسلامية "الجهادية"، لولا أن غلبة التـــشدد الإيديولوجي وهيمنة نبرة استعلائية، حالت دون أن يحظى باهتمام النقاد والمتتبعين العرب.

(2) شاكر النابلسي: بن لادن والعقل العربي، مرجع سابق، ص 9.

(3) الأمـــريكية والأوروبية على وجه الخصوص، كما سنفصل في بعض منها في الفصل الثالث من هذا العمل.

(4) جلّي أنه يسهل توقع تعامل الرأي العام الإسلامي والعربي مع "انعدام الإرادة السياسية لمعظم القـــوى الدولـــية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية"، من قبيل ما يصدر عنها اتجـــاه "مختلف القرارات المرتبطة بالقضية الفلسطينية، وواضح أن "عدم فعالية المؤسسات الأممية في انتزاع حقوق الضعفاء في مواجهة الأقوياء؛ بمثابة إغلاق لباب تصريف المشاكل والمطالـــب وحـــل المنازعات بشكل ودي وقانوني عادل؛ الأمر الذي يسهم إلى حد بعيد في اتباع سبل وبدائل أخرى قد تكون لا مشروعة وأكثر عنفا ودموية لتحقيق المطالب".
انظر: إدريس لكريني. ثماني سنوات على أحداث 11 أيلول: "الإرهاب" والأسئلة المغيّبة، 11 أيلول (سبتمبر) 2009.

علـــى الأخص: "التشهير بالغطرسة والهيمنة الأمريكية"[1] أو التقزيم من دلالات ما اصطلح عليها حينها بـــ "زلة لسان" الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش، عندما تحــدث عــن شـــن "حرب صليبية" (Crusade) ضد منفذي اعتداءات نيويورك وواشنطن، مفضلا الانتصار لتفسير هلامي مفاده أن المعنى الأجدر في حالتنا هذه لا يعدو أن يكون رديفا "للحشد والكفاح والتجمع لمساندة ظاهرة إيجابية أو مكافحة ظاهرة سلبية"[2].

ومع أن النابلسي أخذ على الأقلام العربية المحسوبة على تيار "اليمين" (ويذكر منها المؤسسات الدينية الإسلامية ولائحة من الكتاب من طينة فهمي هويدي ومنير شفيق وأبو يعرب المرزوقي..) في معرض تقييم عناوين مقالاتهم لتداعيات تفجيرات نيويورك وواشنطن، "قلة المعلومات التاريخية والسياسية والاقتصادية، وكثرة الآراء الشخــصية الـــتي تعبر عن الإيديولوجيا التي ينتسب إليها قائلو هذه الآراء، ودعوة القـــارئ إلى تـــبني هذه الآراء. وتعمد الإثارة والعصبية الدينية وشعارات مناهضة أمـــريكا دون اللجـــوء إلى العناوين الهادئة التي تدع العقل يركن جانبا"[3]، فإنه لم يـــسلم هـــو الآخر من السقوط في ذات المطب، هذا إن جاز لنا أن نصف أعمال مفكـــر كبير من طينة أبـــي يعرب المرزوقي مثلا، بأنها تدعو إلى "الإثارة والعصبية الدينية""[4].

يؤاخذ شاكر النابلسي عقل الشمال العربـــي (الإيديولوجيات اليسارية، من قبـــيل سمـــير أمـــين ومطاع صفدي وصبحي حديدي)، البكاء على طالبان وعلى الأفغان العرب (أو "العربان الأفغان" بتعبيره)، رغم أن هؤلاء يقفون جميعا في صف عقائدي مضاد لأصحاب الشمال)

إلى جانب شاكر النابلسي، نحصي لائحة من المفكرين والباحثين العرب الذين ارتهنوا لتمرير خطاب إيديولوجي يخدم استراتيجيات صناع القرار في المجال التداولي

---

(1) شاكر النابلسي: بن لادن والعقل العربي، مرجع سابق، ص 9.

(2) يعقـــوب حياتـــي: الإعـــلام المغرض وتشويه معنى كلمة "حملة". القبس، الكويت، 29 أيلول (سبتمبر) 2001.

(3) شاكر النابلسي: بن لادن والعقل العربي، مرجع سابق، ص 315.

(4) شاكر النابلسي: بن لادن والعقل العربي، مرجع سابق، ص 353.

الغربـــــي، عوض الارتهان على الأقل لخيار النقد المزدوج، أو الخيار الذي جسدته أعمـــال بعض القراءات العربية والإسلامية الرصينة، التي سنتوقف عند بعضها فيما بعد.

ضـــمن نفس المأزق الإيديولوجي إذن، نقرأ مثلا التنديد بـــ "اليمين المتطرف لديـــنا، والـــذي يجسد خطرا أكبر بكثير من اليمين المتطرف لدى الغرب"[1]، أو اعتـــبار "الـــذين استهدفوا أمريكا بالهجوم أرادوا ضرب حضارة الإنسان في عصر العـــولمة وما بعد الحداثة"، متهما الذين صفقوا "للذين خططوا للحريق الأمريكي، أنهـــم أصحاب دعوات طوباوية ومشاريع خلاصية من ذوي الأصوليات العنصرية المغلقـــة الـــتي يهمها حريق البشر وتدمير العالم إذا لم يكن على شاكلتها"[2]، فيما يُـــشبه تكرارا لنغمة غربية اختزالية، في معرض قراءة بعض أبرز مقدمات اعتداءات نـــيويورك وواشـــنطن، صدرت عن بنجامين باربر، والذي ارتأى تأويل خطاب مـــنفذي الاعـــتداءات في الرسالة التالية: "إذا كان أبناءكم يرغبون في الحياة، فإن أبناءنا مستعدون للموت"[3].

يمكنـــنا إدراج خطاب "المؤامرة"، في خانة القراءات الاختزالية في التعامل مع الظاهـــرة، وكان مثيرا للغاية أن تصدر العديد من القراءات المحسوبة على "النـــزعة التآمـــرية" في قـــراءات أسمـــاء فقهـــية وفكرية وازنة في المجال التداولي الإسلامي العربـــــي، نذكـــر منهم على سبيل المثال لا الحصر، زغلول النجار المتخصص في علوم الإعجاز العلمي في القرآن[4] وخالص جلبـــي الطبيب والناقد السوري[5]، ثم

(1) Mohamed Charfi, Un malentendu historique à l'origine de l'islamisme? Propos recueillis par Philippe Jérôme, L'Humanité Hebdo, Paris, 22-23 septembre 2001.

(2) علي حرب: حضارة واحدة وثقافات متعددة، السفير، بيروت، 5 تشرين الأول 2001.

(3) Benjamin Barber, Jihad Vs. McWorld, New York, Ballantine Books, 2001, xxv.

(4) فـــي مبحـــثه الموسوم "المؤامرة: وقفات مع التآمر الصهيوني والدولي على شعب فلسطين"، يـــسرد الـــباحث والداعية المصري زغلول النجار مجموعة من المعطيات والشهادات التي تـــشكك بالكلية في الرواية الرسمية لأحداث 11 أيلول (سبتمبر) 2001، بالصيغة الواردة في كـــتاب الـــصحفي الفرنسي تييري ميسان المعنون "الخدعة الرهيبة". انظر: زغلول النجار، المؤامرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثالثة، 2003.

(5) نقـــرأ لخـــالص جلبـــي أن "أحداث أيلول قد تكشف حقيقتها بعد قرن، أو لا تكشف فهذا ليس المهم، وأيا كان فاعلها فقد (وُظفَ) الحدث ضد العرب والمسلمين"، خالص جلبي، 11 شتنبر وأمريكا: من يقود من؟ الشرق الأوسط، لندن، العدد 9418، 10 أيلول (سبتمبر) 2004.

محمـــد حـــسين فضل الله أحد أهم المراجع الشيعية في لبنان[1] أو روجي غارودي المفكـــر الفرنسي المسلم[2]، واللائحة تطول، وهذا بالرغم من صدور مجموعة من الاعترافات[3] عن تنظيم "القاعدة" تصب في الإقرار بتورطه في التفجيرات.

ولعـــل مـــا يوجز بامتياز الدراسات والمقالات التي تبنت خيار "المؤامرة"، في معـــرض تفـــسير ما جرى يوم 11 أيلول (سبتمبر) 2001، كتاب لباحثة سعودية ومقال لعالم اقتصاد مصري مرموق:

أ - تعلـــق الأمـــر بدايـــة بكتاب "الأيدي الخفية: من وراء أشرطة تنظيم القاعدة؟" لـــسهيلة زين العابدين حماد[4] والعمل عبارة عن قراءة استطلاعية مطابقة لما جاء في كتاب "الخدعة الرهيبة" الذي ألفه الصحافي الفرنسي تييري ميسان[5].

---

(1) يشكك المرجع الشيعي اللبناني محمد حسين فضل الله في الرواية الرسمية للحدث، كما نشكك فـــيها جميعا، ولكنه يذهب أبعد من ذلك عندما ينتقد إهمال الإدارة الأمريكية "للمعلومات التي تحـــدثت عـــن اليهود الذين كانوا على علم بها، قبل وقوعها، مما أدى إلى توجيه الموظفين الـــيهود بعـــدم التوجه إلى مركز التجارة العالمي في موعد الحدث". محمد حسين فضل الله. تفجيـــرات أيلول: من يقف وراء الحدث ومن هو المستفيد؟ الشرق الأوسط، لندن، العدد 9419، 11 أيلول (سبتمبر) 2004.

(2) يرى روجي غارودي أن "عملية 11 سبتمبر لا يمكن أن تتم إلا من خلال تواطؤ جهاز الدولة والجـــيش وجهاز المخابرات، وهنا، يضيف غارودي، نجد أنفسنا أمام قضية تتعلق بالخيانة العظمـــى أو بالمؤامـــرة، وهـــذه ليـــست المـــرة الأولى التي تقوم بها المخابرات المركزية الأمـــريكية، أو القـــادة العـــسكريون، أو رجال السياسة بمثل هذا العمل الاستفزازي لإجبار الـــسكان علـــى قبول فكرة إشعال الحرب خارج حدود الولايات المتحدة". انظر نص الحوار المطـــول الـــذي أجـــراه الصحفي العراقي شاكر نوري، الرجل اليوم، دبي، العدد 3، أيلول (سبتمبر) 2004.

(3) تنظـــيم القاعـــدة يعترف لأول مرة بمسؤوليته عن "غزوة نيويورك"، تقرير إخباري، القدس العربي، لندن، العدد 3961، 9-10 شباط (فبراير) 2002.

(4) ســـهيلة زيـــن العابـــدين حماد: الأيدي الخفية: من وراء أشرطة تنظيم القاعدة؟ مركز الراية للتنمية الفكرية (جدة، دمشق)، مؤسسة الريان، بيروت، ط1، 2003.
تفـــوقت الكاتـــبة بشكل ملفت على أطروحة تييري ميسان، حتى أننا نقرأ في تمهيد الكتاب أنه "علـــينا أن نجمع كل الأدلة التي تثبت براءتنا من هذه الأحداث، وتدين الإدارة الأمريكية وجهاز اســـتخباراتها بالـــتعاون مع الموساد، ونعلنها للعالم أجمع بكل ما نملك من وسائل نشر لتبصير العـــالم بأبعـــاد المؤامـــرة الكبرى المدبرة ليس ضدنا فقط، وإنما ضد الإنسانية والعدالة والحق والحرية، مما يهدد أمن العالم أجمع"، سهيلة زين العابدين حماد، الأيدي الخفية"، ص 16.

(5) Thierry Meyssan. 11 septembre 2001. L'effroyable imposture. (aucun avion ne s'est écrasé sur le Pentagone!). éditions Carnot. Mars 2002.

ب -أمـــا المقـــال، فحرره جلال أمين، مُشكّكا في "النظرية السائدة، أو "نظرية الإرهـــاب"، علـــى أمـــل أن يؤدي وضع هذه الأسباب (الستة عشر التي أحـــصاها) إلى تقـــوية قلـــوب غير المصدقين، وتدعيم موقفهم،، وتوجيه الأذهـــان في اتجاهات أخرى للبحث عن تفسيرات أخرى لما حدث، مختلفة تماما عن التفسيرات السائدة وهو يؤدي إلى توجيه أصبع الاتهام إلى متهمين من نوع مختلف تماما"[1].

لـــيس هـــذا مقـــام التفصيل في الثقوب العديدة المُميزة للرواية الرسمية، ولن نستفسر أيضا عن مدى صحة اتهام أجهزة الاستخبارات الأمريكية بالتورط بشكل أو بآخر في هذه الأحداث لأغراض تخدم قطعا مصالح الإدارة الأمريكية، من كثرة مـــا حُـــرِّر حول الموضوع، على اعتبار أن الترحال مع هذه التفاصيل يبعدنا عن الخوض في معركة الاشتباك الفقهي والمعرفي مع الأدبيات الفقهية التي تبرر ارتكاب تفجيرات تمت في العديد من بقاع المعمور.

وبدهـــي أن تـــبني هـــذا المخرج قد "يغري أولئك الذين تعودوا على إشهار "نظـــرية المؤامرة" بمجرد سماعهم حسيس مسؤولية "الخارج" عن أوضاعنا وأوضاع العـــالم لكن هذا لا يغير من واقع الأمر شيئا، ذلك لأن مثل هذه المواقف لا يعرقل الحـــوار والتواصـــل فقـــط بـــل إنه يحول دون تعدد القراءات ودون فهم سَوِيّ لإشـــكالاتنا"، علـــى اعتـــبار أن "الذهنية المهووسة بالتصنيف تَضمُرُ لديها ملَكَةُ الإنـــصات، في حـــين تتـــضخم الحساسية عندها تجاه مفاهيم وأفكار ما أن يتم "الـــتقاطها" حتى تتحرك آلة الفرز والإقصاء عبر استدعاء قوالب جاهزة تُحنِّط كل إمكانية للتفكير"[2].

نقرأ في تقديم مبحث تييري ميسان، أن "أكاذيب حكومة بوش حول الطبيعة الحقيقية للاعتداء الـــذي تعـــرض له البنتاغون، تشكل طعنا خطيرا بالديمقراطية الأمريكية وبالقانون الدولي. وترمـــي هـــذه الحكومة من خلال التلاعب بمواطنيها وببقية العالم، إلى ضمان الموافقة على اتخـــاذ قـــرارات غيـــر شرعية. وتتدرج هذه القرارات تحت حكم "دواعي المصلحة العليا". والكتاب هو تحقيق حول "الطريقة التي يتم بها تسميم أفكارنا بواسطة وسائل الاتصال التابعة للبنتاغون".

(1) جلال أمين: ستة عشر سببا للشك في نظرية الإرهاب، الحياة، لندن، 27 أغسطس، 2005.

(2) مصطفى المرابط: الإرهاب علامة مسجلة، موقع "الجزيرة. نت"، مبحث مؤرخ في 10 أيار 2007.

علـــى صـــعيد آخر، لم يصطدم المتلقي العربـــي والمسلم بفورة في الأعمال والقـــراءات التفـــسيرية الاختـــزالية، وإنما برزت موازاة مع ذلك فورة في قراءات الطمأنـــة الـــتي تلقي باللوم على الغير (أو الآخر)، وتزيح أي مسؤولية عن الذات العـــربية والإسلامية، فيما يُشبه تصديرا للأزمات الذاتية اللصيقة بالوطن العربـــي والعـــالم الإسلامي، أو تحريفا للتحديات التي أصبحت مطروحة للنقاش على العقل الإسلامي المعاصر.

نجـــد ضمن هذه القراءات، كتاب "الهجوم على الإسلام والمسلمين"، لمؤلفه الباحث السوري ماجد عرسان الكيلاني[1]، وميزة العمل أنه تجميع وقراءة في أهم الـــندوات والمؤتمرات التي نظمت في المجال التداولي الغربـــي (في الولايات المتحدة وأوروبـــا علـــى وجه الخصوص، وبدرجة أقل في إسرائيل)، والتي تطرقت لواقع المـــسلمين والعرب وأداء الحركات الإسلامية، أو تيارات "اليقظة الإسلامية" بتعبير الكاتب.

ونجـــد ضمن نفس منطق خطاب الدفاع عن الإسلام، كتاب "الإسلام وتهمة الإرهـــاب" للـــباحث المغربـــــي حسن عزوزي، ونقرأ في تمهيده أن العمل "يأتي ليسهم في تصحيح جانب من جوانب تلك الصورة المشوهة للإسلام التي نضجت بقوة في الأوساط الغربية غداة تفجيرات 11 شتنبر 2001، ويشكل محاولة طموحة لـــبحث أسباب وخلفيات إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام وهي التهمة التي ترددت طـــويلا عـــبر مختلف وسائل الإعلام الغربية في تحد صارخ لمشاعر أكثر من مليار مسلم"[2].

وســـواء تعلـــق الأمر بكتاب "الهجوم على الإسلام والمسلمين" أو كتاب "الإســـلام وتهمـــة الإرهاب"، فإننا إزاء دراسات تُرَوّج لخطاب طمأنة الذات العـــربية والإســـلامية، وتختـــزل أبرز مسببات التحديات التي يمر منها العقل الإســـلامي المعاصر في عوامل خارجية موضوعية، وتكاد تبرئ العقل الإسلامي من أي مسؤولية في ما يقع لنا اليوم، وينطبق نفس التقييم على حيثيات كتاب

(1) ماجد عرسان الكيلاني: الهجوم على الإسلام والمسلمين، ص مركز الناقد، دمشق، ط1، 2008.
(2) حـــسن عـــزوزي: الإسلام وتهمة الإرهاب، ضمن سلسلة "تصحيح صورة الإسلام" (مطبعة آنفو. برانت. فاس)، الطبعة الثانية، 2006.

"إطلالة على الإرهاب من شرفة حديثية"، للداعية السعودي محمد بن ناصر بن محمد القرني[1].

ولا نـــريد الاسترســـال في خطاب مؤرق لا يقل تأزيما عن خطاب الطمأنة، ونقصد مأزق ازدواجية القراءات التي تبزغ بين الفينة والأخرى عن رموز الحركات الإسلامية المعتدلة، والتي تعلن أنها تدين العنف من جهة، وتسهم بشكل أو بآخر في التـــرويج لخطـــاب يكـــاد يتقاطع مع الخطاب المحسوب على الحركات الإسلامية "الجهادية"، أو بتعبير أحد الباحثين، نحن إزاء حركات "ترفض الإرهاب لأنها تعلم أن مجـــدها سوف يسقط إذا ما أعلنت أي تعاطف مع العمليات الإرهابية، ولكنها في ذات الوقت تدين بكل ما في الذهنية الجهادية من تطرف وآراء تكفيرية وعنفية واضحة"[2].

المبحث الثالث: مأزق التأسيس للنقد المزدوج

في معـــرض الـــبحث عن مخارج لأزمة العنف التي تطال المنطقة العربية، بعد صـــدمة تفجيرات الدار البيضاء في 16 أيار (مايو) 2003[3]، اعتبر المفكر المغربـــي محمـــد سبيلا أنه لا سبيل أمام فرقاء الساحة من "تقوية الديمقراطية كنظام سياسي هدفـــه الأساس هو تحويل الصراع الاجتماعي إلى صراع سلمي، وتحويل "حوار" البـــنادق إلى حـــوار بـــين الأفكار والمشاريع والمصالح"[4]، في حين حذّر الباحث الـــسعودي يحـــيى الأمـــير من أن "الموقف من الجهاد الذي تربى عليه كل الشباب الـــسعوديين هو ذات الموقف الذي تربى عليه غيرهم، وهو جزء من الخطاب الديني الوحيد الذي تمتلئ به المساجد والمدارس والمنابر المختلفة، والذين توجهوا ليصبحوا إرهابـــيين هـــم أفراد ملتزمون بشكل حقيقي وواضح بكل ما تعلموه وتربوا عليه وآمـــنوا به[5]، وبالنتيجة، يضيف يحيى الأمير، فإن "الإرهاب اليوم هو نتاج متدرج

(1) محمـــد بـــن ناصر بن محمد القرني: إطلالة على الإرهاب من شرفة حديثية، مكتبة الرشد، الرياض، 2006.

(2) يحيى الأمير: أيام الإرهاب في السعودية، مرجع سابق، ص 176.

(3) خلفت اعتداءات الدار البيضاء سقوط 45 قتيلا ليلة 16 أيار (مايو) 2003.

(4) محمد سبيلا: المثقفون المغاربة وتفجيرات 16 مايو، مرجع سابق، ص 7.

(5) يحيى الأمير: أيام الإرهاب في السعودية، مرجع سابق، ص 98.

لسنين من النشاط والحضور الفقهي الذي استطاعت أن تمثله تلك الأصوات التقليدية المتدينة، ونتاجا متدرجا أيضا لسنوات من التنظير "الديني" المتشدد والمتعصب الذي ملأ ساحات واسعة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، ومن أبرزها السعودية وتحوّل إلى تيارات ومدارس تختلف في الوسائل، ولكنها تتفق في مجملها على صيغة دينية متشددة واحدة ذات صيغ متفقة في العديد من القضايا، كالجهاد المطلق والموقف من الآخر ورفض التغيّر الحضاري والالتجاء إلى الساكن، والركون إلى الموروث بلا تفصيل أو إعادة قراءة".

أما الباحث السوري عبد الرحمن حللي، فيخلص إلى أن "الفصام الفقهي الذي يرتبط بتخلف فكري عام يعيشه العالم العربي والإسلامي يشمل الجانب السياسي والاقتصادي وما يتبعهما ليس إلا البيئة الخصبة لولادة التطرف والإرهاب، فلا ينبغي أن يستغرب أحد نموه وتكاثره ما دامت هذه الظروف على ما هي عليه، بل إن الغرابة أن توجد هذه الظروف والضغوط بأنواعها ولا يوجد التطرف"(1).

يُحسبُ للباحثين الثلاثة (المغربي والسعودي والسوري، وغيرهم بطبيعة الحال)، شجاعة نقد الذات، أو "الشجاعة المطلوبة" بتعبير أحد رموز "نزع القداسة عن النص الديني"، والتي تتأسّس على "مواجهة النفس بالنقد، الذي لا يجب التقليل من شأنه لمجرد أنه صادر من آخرين. وعلى ذلك، يجب علينا عدم المراوغة للتهرب من الإجابة عن السؤال التالي: لماذا يستشهد المسلون دائما بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تبرز الوجه السلمي المتسامح للإسلام، ويتجاهلون النصوص الأخرى التي تحض على القتال؟"(2)، لولا أن التركيز فقط على نقد الذات، في ملف شائك ومركب يحمل عنوان نقد وتقييم ما يصدر عن الحركات الإسلامية "الجهادية"، يخدم مروجي الأطروحات التي تزيح أي مسؤولية أخلاقية أو سياسية أو استراتيجية لعوامل خارجية تقف وراء تغذية ظواهر العنف

---

(1) عبد الرحمن حللي: التجديد الديني وظاهرة التطرف في السياق الإسلامي المعاصر، ضمن كتاب: الإسلام في عالم متجدد، سياسات الإصلاح الإسلامي بعد 11 أيلول، مرجع سابق، ص 104.

(2) نصر حامد أبو زيد: الإسلام والغرب: حرب الكراهية.. لماذا؟ وجهات نظر، القاهرة، العدد 36، السنة الثالثة، كانون الثاني (يناير) 2002.

والاعتداءات في الوطن العربـــي والعالم الإسلامي، ونتحدث تحديدا عن السياسات الغـــربية المغذية لهذه الظواهر، وقد اعتبر أحد الباحثين العرب أن "الخطر الرئيسي الـــذي يتـــربص بالبـــشرية هو إرهاب الدولة الذي يجب أن تتركز ضده الجهود المتضافرة لوضع حد له أو على الأقل عرقلته. كما تجب مكافحة الإرهاب الأصغر (إرهاب الأفراد و/أو الجماعات) مع الأخذ بالحسبان علاقة التغذية التبريرية القائمة بينه وبين إرهاب الدولة"(1).

الحـــديث عـــن تأثير "إرهاب الدولة" الذي "يُفرِز "الإرهاب الأصغر"، يحيلنا علـــى ميـــزة خطاب النقد المزدوج المفتقد بشكل كبيرٍ في أغلب ما يُنشر في مجالنا التداولي الإسلامي العربـــي، ونقصد بذلك الخطاب النقدي الذي يلجأ إلى مطرقة الـــنقد ضد ممارسات العقل الإسلامي المعاصر من جهة، وممارسات العقل السياسي الغربـــي من جهة ثانية، وقلّما نجد مثيلا لخطاب من هذه الطينة، تتوفر فيه مُميزّات الجرأة والرصانة والمسؤولية، ويهمنا في خاتمة هذا الفصل، الاستشهاد بأربعة نماذج مرجعية في هذا الصدد:

أ - قـــراءة أحمـــد كمـــال أبو المجد الذي يركز نقده للذات الإسلامية (للعقل الإسلامي الحركي بالذات، في شقه "الجهادي")، بالتأكيد على أننا إزاء ثقافة جانبية أو تحتية نشأت تاريخيا كما تنشأ كل الثقافات الجانبية والتحتية، ترفع لـــواء العقـــيدة أو الـــثقافة العامة التي يعبر عنها التيار الواسع العريض لتلك الثقافة، ولكنها تتوجه في رؤيتها وفكرها، وفي سلوكها العملي المعتاد توجهّا يناقض روح ذلك التيار الواسع، ويخرج على الحدود المبدئية والأخلاقية لتلك الثقافة، مقابل نقده للعقل السياسي الغربـــي (الأمريكي دون سواه) بالتحذير مـــن أن "الذي تطلبه الولايات المتحدة يكشف عن عمق الأزمة التي يعيشها النظام الدولي المعاصر، كما يكشف عن استمرار الولايات المتحدة في ممارسة أساليب العمل التي أدى تكرارها وتراكمها إلى خلق موقف يوشك أن يكون

(1) نور الدين عواد: السياسة الخارجية الأمريكية مسؤولة عن انتشار الإرهاب في العالم، القدس العربـــي، لندن، 4 يناير 2004، ومحرر الدراسة كاتب عربي يقيم في هافانا بكوبا، والمبحث عـــبارة عـــن بحث تم طرحه أمام ندوة دولية أقامتها كاتدرائية بوليفر - مارتي في كوبا يوم 10 تشرين الأول 2004.

إجماعـــا في سياســاتها ومـــواقفها بالنـــسبة إلى العديد من القضايا الدولية الشائكة"[1].

ب – نأتي لقراءة نقدية ثاقبة صدرت عن المفكر المغربـــي مصطفى المرابط، حيث يرى ضرورة "اعتماد أسلوب القراءة المزدوجة التي تقرأ "الظاهرة" من داخلها ومـــن خارجهـــا، بهدف القطع مع الفكر الذي يتوسل بالتفسيرات البسيطة والحلـــول الجاهزة والمتسرعة من جهة، والتحرر من أسر المقاربات التي تنظر إلى "الخـــصوصية" كجوهر قار، فتُرجِع كل ما تعرفه المنطقة من أحداث إلى طبيعة خاصة مركزة في شعوب هذه المنطقة دون سواها من جهة أخرى.

ومقايـــسة علـــى ما أشار إليه البشري، في معرض التوفيق بين نقد الذات ونقـــد الغير، يخلص المرابط إلى اعتبار أن "العنف نوعان اثنان، عنف كفعل إثـــارة (stimulus) وعـــنف كرد فعل أو جواب عن الإثارة، وتدافعهما وتجاذبهمـــا هو الذي يوَلِّد الفوضى. فإذا كان النوع الثاني هو الذي يسلَّط عليه الضوء ويوسم بـــ "الإرهاب" فإن النوع الأول يتم توريته وتغطيته مع أنه هو الأصل. وإذا كان النوع الثاني لا يَعرف من صيغ التعبير إلا الشكل الكثيف أو المادي (وهنا تكمن محدوديته) فإن النوع الأول يتجلى من خلال شـــكلين من أشكال التعبير، الشكل المادي أو الصلب والشكل الرمزي أو الـــناعم (وهـــنا تكمن خطورته وتفوقه)، وتأتي أعمال العنف التي يُتحدث عـــنها (الـــنوع الـــثاني) كرد فعل على سياسة التحريض المعتمدة (النوع الأول)[2].

ج – قراءة المفكر التونسي أبو يعرب المرزوقي والتي تدور في نفس "المدار المعرفي" الـــذي ارتحل إليه مصطفى المرابط، ويمكن اعتبار المرزوقي بالذات، أحد أبرز رموز تيار "النقد المزدوج" في مجالنا التداولي الإسلامي العربـــي، عبر سلسلة دراسات رصينة نشرت في هذا الصدد، ويوجز المرزوقي قراءاته النقدية ضد التـــيارات الإيديولوجـــية المتصارعة في الساحة الإسلامية العربية من جهة،

---

(1) أحمـــد كمـــال أبو المجد: الإرهاب والإسلام ومستقبل النظام الدولي، وجهات نظر، القاهرة، العدد 34، نوفمبر (تشرين الثاني) 2001.

(2) مصطفى المرابط: "الإرهاب علامة مسجلة"، مرجع سابق.

وأطروحات العقل السياسي الغربـي الاستعلائي؛ بالنسبة للصراع الإسلامي الحركـي/العلماني، فإننا إزاء صدام زائف بين الصدام بين الدولة الثيوقراطية والدولـة المدنـية، تعود جذوره إلى الحرب الأهلية الإسلامية التي بدأت منذ الفتنة الكبرى، وهو صدام حسم نظريا وعمليا قبل المعركة الزائفة الحالية لأنه لا علاقـة له بالمعركة بين الأصوليين والعلمانيين؛ وبالنسبة لأطروحات العقل الغربـي الاستعلائي، فإننا إزاء حداثة "تسعى إلى تمسيح العالم بنظرية تأليه الإنسان وإخضاعه للفصام المرضي بين قيصر والله: وباسم الأول يتم إخضاع حـياته المادية لحيل المافيا السياسية وباسم الثاني يتم إخضاع حياته الروحية لحيل المافيا العلمانية التي تنافس المافيا الدينية على هذه السلطة"[(1)].

د -وأخـيرا، نختـتم بالذي صدر عن رضوان السيد، ويرى أسس نقده المزدوج للعقلـين الإسلامي والغربـي بالتأكيد على أن "الأصوليين[(2)] يملكون مفهوما شـعائريا ومقدسـا للعنف باسم الدين ومن أجل نصرته، يحتجون له بالنص، وبلحظـات منتقاة من التاريخ. والمشكلة ليست في طبيعة الدين، أو في موقفه مـن العنف؛ بل في انهيار المؤسسة الدينية التقليدية من جهة، وفي فشل الدولة الوطنية في القيام بوظائفها العادية تُجاه الداخل وتُجاه الخارج، وتعملق الوعي بالهـوية المهـددة. ويزيد الطين بلة أن هذا الخارج - الذي لم يعد خارجا - يشارك في عمليات الصراع على الإسلام، فقط حفظا لأمنه ومصالحه بعد هذا العنف التبادلي بينه وبين الأصوليين الإسلاميين"[(3)].

للمفكـر الأمريكـي وعالم اللسانيات نعوم تشومسكي، مقولة أشبه بصرخة لـصيقة بـدور المـثقف، جـاء فيها أنه "من مسؤولية المثقفين أن يقولوا الحقيقة ويفضحوا الأكاذيب"[(4)].

---

(1) أبـو يعرب المرزوقي: الأصولية العلمانية تنفي علاقة الدين بالدولة والأصولية الدينية تزعم أنهما شيء واحد، القدس العربي، لندن، العدد 5825، 27 شباط (فبراير) 2008.

(2) والإحالـة هـنا علـى تيار "الأصولية الإسلامية"، والذي وصفه رضوان السيد في أكثر من مناسبة بتيار "الإحيائية الإسلامية".

(3) رضوان السيد: العنف الديني تجاه الآخر، مرجع سابق، ص 164.

(4) جـاء ذلـك في محاضرة مهمة ألقاها، ضمن نشاطه السياسي المعادي لتدخل الولايات المتحدة في فيتنام، بجامعة هارفارد عام 1966، وجاءت المحاضرة تحت عنوان: "مسؤولية المثقفين".

وبديهـــي أن قول الحقيقة وفضح الأكاذيب في هذا الموضوع المؤرق يتطلب تحـــصيل شـــجاعة أدبية غير هينة، ويمر أولا عبر إعلان "حرب أفكار مركبة بين الـــذات والغـــير"، ومن نافلة القول التأكيد على أن "حرب الأفكار"[(1)] تبقى حربا تـــراكمية وبطيئة، لا تحسم نتائجها بوضوح شأن الحروب العسكرية، نظرا لطبيعة ســـاحتها ونوعـــية آلياتها، فهي ساحة الوعي والفهم والفضاء العقلي ومعقولياته، وكيفـــية تفهمه للأشياء ورؤيته للعالم أساسا"[(2)]، كما أن آفة العنف "لا يمكن أن تُـــصرَف إلا بالفكر والمعرفة، وليس من خلال الحلول الأمنية والعسكرية الصلبة؛ فالاخـــتلاف الفكـــري لا يسوى بالعنف، وإنما بالحوار المبني على فضائل الجهاد الأخلاقي والثقافي"[(3)].

إذا كـــان الأمر كذلك، وكنا متفقين على أنه في ضوء النتائج الخطيرة الناجمة عـــن التوظيف والاستغلال السياسي للمفاهيم، "وجب أن يضطلع المفكر المعاصر بمهمـــته المـــستعجلة الكامنة في تصحيح المفاهيم، تصحيحا يستهدف ترشيد الفعل الـــسياسي كـــي يكون أقرب إلى العدل والصلاح وأبعد عن الظلم والفساد"[(4)]، فكيف نفسر كون تعاطي المفكرين والباحثين العرب مع ظاهرة الإرهاب لا يخرج عـــن المميـــزات التي طبعت تعاطي النخب العربية والإسلامية، حيث سيادة المآزق الثلاثة سالفة الذكر: المرجعية الإيديولوجية، النموذج التفسيري، وخطاب الطمأنة وتـــصدير الأزمـــات، وهـــو ما أوجزه باقتدار الراحل تركي علي الربيعو في نقده لقـــراءات النخـــبة العربية لمستقبل الإسلاميين (المعتدلين والجهاديين) على هامش صـــدمة تفجيرات نيويورك وواشنطن. فـــ "بقدر ما زلزل الحدث/الصدمة الأرض

---

(1) يُحسب لوزير الدفاع الأمريكي السابق، دونالد رامسفيلد، أحد رموز تيار "المحافظين الجدد"، على عهد الرئيس جورج بوش الابن، سبق الحديث السياسي الغربـــي لأول مرة عن حتمية شن حرب أفكار ضد أطروحات الحركات الإسلامية "الجهادية"، كما جاء في ثنايا مقابلة مع قناة "إيه. بـــي. سي"، في 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 2003.

(2) هانـــي نسيره: القاعدة والسلفية الجهادية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، مؤسسة الأهرام، القاهرة، 2008.

(3) محمـــد زاهد كامل جول (باحث وكاتب من تركيا): التدين السياسي الإسلامي: آفات الحداثة المادية المستعارة، التسامح، العدد 21، شتاء 2008، السنة السادسة، مسقط، ص 191.

(4) عـــبد المجيد الصغير: "النقد الأخلاقي لمفهوم محاربة الإرهاب"، المنعطف، عدد خاص عن الاستراتيجية الأمريكية في العالم العربي والإسلامي: الوجه والقناع، وجدة، 2003.

الــتي يقــف عليها العالم الإسلامي برمته، بمقدار ما راح يعري واقع الفقر النظري والمعــرفي عــند المــثقفين والمفكرين العرب عموما فيما يتعلق بدراسات الإسلام الــسياسي، مبينا إلى حد كبير مدى أزمة المؤسسات الأكاديمية البحثية"[1]. يتقاطع هــذا النقد مع ما صدر عن مصطفى المرابط من أن التفجيرات التي عمّت المنطقة "تقــف شــاهدا على إفلاس أطرنا المعرفية ومناهج مقارباتنا في التوصل إلى قراءة قادرة على استشكال "الظاهرة" وتفسير هذه الأحداث"[2]، والانتصار لخيار النقد الذاتي، أو الخيار المُغيب في قراءات النخب الفكرية العربية، حيث كان صوت النقد المزدوج خافتا بين الأصوات النقدية السائدة في المجال التداولي الإسلامي العربــي، مقابــل تكــريس الغلــبة لخيارات نقد الغير، وتبرئة الذات، سواء أكانت الذات عربية/إسلامية أم غربية.

وحاصــل الكلام في هذا الفصل، أن صوت أصحاب "الأفكار الرائدة"، كان الغائــب الأكــبر في زخم استحقاقات الحسابات السياسية والأمنية[3] والخلافات الإيديولوجــية والمذهبــية بين فرقاء الساحة في الوطن العربــي والعالم الإسلامي، بــسبب ثقــل أعطــاب ثلاثــة: مأزق المرجعية الإيديولوجية، ومأزق النموذج التفــسيري، ومــأزق خطاب الطمأنة وتصدير الأزمات، سواء أكانت الأعطاب لــصيقة بمــا صدر عن أقلام التيار "الليبرالي العربــي"، أو بعض رموز الحركات الإســلامية[4] ومــتى اقتنعــنا أننا مسؤولون بشكل أو بآخر عما حصل، ارتقت

---

(1) تركــي علــي الربيعو: "الحركات الإسلامية في منظور الخطاب العربي المعاصر"، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص 224.

(2) مصطفى المرابط: الإرهاب علامة مسجلة، مرجع سابق.

(3) من تنازل عن ترسانة أسلحة صرفت لاقتنائها الملايين إلى إعادة النظر في البرامج التعليمية بمــا يرضي الإدارة الأمريكية وحتى إسرائيل، واختلاق ذرائع للتضييق علي كل ذي توجه إسلامي غير مشبوه، بل والتنكيل به ورميه في غياهب السجون بتهم ملفقة، وإصدار الأوامر لوســائل الإعــلام لتكثيف فعلها الخبيث المتمثل في إفساد الأذواق والأخلاق وإطلاق العنان لــبعض الدجالــين لــسب الإســلام والمسلمين وربطهما المتعسف بشكل مفضوح بالتخلف والانغلاق".

انظر: ديرار عبد السلام، مرجع سابق.

(4) وهــذا موقف لا يشرف "مسؤولية الفقيه" أو "مسؤولية العالِم" إذا تعاملنا معه على أساس أنه "مــثقف دينــي"، مسؤوليته الأولى تقوم على "قول الحقيقة أمام السلطة" الزمنية الحاكمة في مجالنا التداولي الإسلامي العربي.

مـــسؤوليتنا في التـــصدي المعرفي والفقهي للظاهرة، ومصارحة الذات، وتبني خيار الـــنقد المـــزدوج، والتفكير الجماعي، بعيدا عن الانصياع لإملاءات الغير واستيراد الحلول الجاهزة أو إسقاطها القسري على مجالنا التداولي الإسلامي العربـــي.

الفصل الثاني

المثقفون المسلمون في الغرب ونقد تنظيم "القاعدة"

زيادة على المآزق المنهجية الثلاثة التي ميّزت قراءات المثقفين العرب (المقيمين في الوطن العربي والإسلامي)، والمتمثلة تحديدا في: مأزق المرجعية الإيديولوجية، ومأزق النموذج التفسيري، ومأزق خطاب الطمأنة وتصدير الأزمات، تزداد أثقال "المسؤولية الثقافية" - القائمة على "قول الحقيقة وفضح الأكاذيب" بتعبير نعوم تشومسكي - بسبب الحضور الفعلي للعديد من المفكرين والباحثين العرب والمسلمين في الديار الغربية (وخاصة في القارة الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية)، وحيث مأزق التوفيق بين تمرير قناعات شخصية بخصوص الموقف من التفجيرات المحسوبة على الحركات الإسلامية "الجهادية"، والتفاعل المباشر مع ردود فعل النخب السياسية والفكرية والإعلامية، كما جرى في أكثر من مناسبة مثلا، مع النقاشات الفكرية التي انخرط فيها مثلا، الباحث المصري/السويسري، طارق رمضان على شاشات الفضائيات الفرنسية، بل تطورت الأمور في مقام "الاشتباك" الفكري والإعلامي مع هذا الاسم بالذات إلى درجة صدور أعمال تكاد تشيطن أطروحات حفيد الإمام حسن البنا[1]، ولو أنه يُحسب له تمرير العديد من القراءات النقدية الصريحة ضد خيارات الحركات الإسلامية عموما، والدعوة شبه المغيبة من لدن رموز العديد من الحركات الإسلامية، والقاضية بأن تداعيات تفجيرات نيويورك وواشنطن، تفرض علينا

(1) لم يسبق لباحث مسلم (أو "إسلامي" برأي أغلب مخالفيه)، أن أثار الجدل كما أثاره الباحث طارق رمضان، سواء عبر مؤلفاته ومقالاته وأيضا، في ثنايا المناظرات التلفزيونية التي شارك فيها.

"التحلـــي بالشجاعة لممارسة النقد الذاتي"، والاعتراف بـــ "أننا تخلينا عن العقل الـــنقدي وثقافة الحوار"[1] كما أنه كان من السباقين إلى التحذير من التحديات الجسيمة التي أصبحت ملقاة على المسلمين اليوم، وبخاصة لدى المسلمين المقيمين في الغـــرب، إذ لم يعد كافيا الاكتفاء بترويج خطاب التسامح التعاضدي، كما أصـــبح ضـــروريا فـــتح قنوات الحوار والتفسير بين الجميع، على أساس قواعد مـــشتركة تنتصر لقيم التعددية الثقافية والعدالة الاجتماعية والمواطنة المتساوية في الغـــرب وفي العـــالم، وأن "الوجود الإسلامي في الدول الغربية يتطلب المساءلة، ويـــستوجب بالـــتالي القـــيام بتقييم ونقد ذاتي"[2]، وهو ما أشارت إليه الباحثة الـــبريطانية المـــرموقة، ســـارة سيلفستري، التي اعتبرت أن "المسلمين في القارة الأوروبـــية، وخاصـــة منهم فئة الشباب، يوجدون في موقف حرج بين الضغط والعـــنف: العنف المعنوي والمادي للإرهابيين من جهة، والاستراتيجيات الوطنية والدولية ضد العنف"[3].

وتلافـــيا لمـــا قد يثيره كثرة الشواهد والقراءات النقدية الصادرة عن الأقلام المحـــسوبة على العقل الإسلامي المعاصر، والمقيمة في الغرب، سوف نستأنس على الخـــصوص بعملـــين بـــارزين في هذا الصدد: كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة المـــوروث الإســـلامي"، وكـــتاب "مكانة التسامح في الإسلام"، لاعتبارات عدة نوجزها في نقاط أربع:

- أولهـــا أن الكـــتابين يستعرضان وجهات نظر باحثين مسلمين غير مقيمين في الـــرقعة العـــربية، على اعتبار أن القارئ العربـــي، تعوّد أكثر على متابعة ما يصدر عن الأقلام العربية بالدرجة الأولى في التفاعل مع التحديات التي تمر منها المـــنطقة، وبخاصة تلك التي تواجه العقل الإسلامي/العربـــي المعاصر، إذ هناك سوء تقدير جلي من لدن هذا القارئ لما يصدر عن الكتاب العرب والمسلمين

(1) Tariq Ramadan, A tous mes concitoyens, musulmans ou pas, In Le courrier International. Paris, N. 575. du 8 au 14 novembre 2001.

(2) Tariq Ramadan, Condamner et résister ensemble, Le Monde, Paris, 3 octobre 2001.

(3) SARA Silvestre, Radical Islam: Threats and Opportunities, published in Global Dialogue (Special issue “Europe and Its Muslims”), vol. 9, no. 3-4, Summer/ Autumn 2007, p. 118.

المقـــيمين في الغرب من جهة، ولما يصدر عن الأقلام المسلمة غير العربية، من جهـــة ثانية، ولما يصدر عن الباحثين والكتاب الذين اعتنقوا الإسلام من جهة ثالثة.

- وثـــاني هـــذه الاعتبارات، أن النخب المسلمة المعنية بهذين الكتابين المرجعيين، تنتمي إلى مختلف التيارات الإيديولوجية، بدءاً من تلك المحسوبة على تيار علم الكلام الجديد، مرورا بالإسلاميين الجدد، وانتهاء بالمسلمين العلمانيين، بل إننا نجـــد ضـــمن هـــذه الإيديولوجـــيات، باحثا في "معهد الدراسات الإسلامية الإسماعيلـــية بلـــندن"، وهو المعهد الذي يلقى معارضة مذهبية من لدن أغلب ممثلي التيار الشيعي، فضلا عن التيار السني الممثل الأكبر لمسلمي اليوم[1]، وقد يُحْسَبُ لهؤلاء الباحثين أنهم يساعدوننا في معرض تفادي عقبة مفاهيمية مؤرقة حول مدى تفاعل العقل الإسلامي العربـــي مع الغرب، توقف عندها بتدقيق جلـــي، المفكر المغربـــي مصطفى المرابط، مفادها أننا "لا نعرف الغرب معرفة دقيقة، فنحن في موقفنا منه فريقان: فريق لا يعرف منه إلا وجهه الاستعماري والعـــدواني، فصورته في نظره قاتمة وشيطانية، وفريق لا يعرف منه إلا وجهه التنويري والتقدمي، فصورته في نظره ناصعة وملائكية"[2].
- ثالـــث هـــذه الاعتـــبارات، كون العملين يترجمان أهم ما ميّز تعاطي النخبة الإســـلامية المقـــيمة في الغرب، أي تبني خيار النقد الرصين، أو المؤدلَج، لأداء الحـــركات الإسلامية المعاصرة، سواء تعلق الأمر بالحركات الإسلامية الدعوية أو السياسية[3]، أو الحركات الإسلامية المحسوبة على التيار "الجهادي"، إضافة إلى تـــراجع "رهانات" المتتبعين على مقاربات نقدية نوعية يمكن أن تصدر عن

(1) لا تـــوجد إحـــصاءات دقيقة حول نسبة الشيعة ضمن المشهد السني، وتتحدث أغلب الأرقام المـــتداولة في الرقعة العربية والغربية على أن عدد الشيعة في العالم يبلغ حوالي 150 مليون مسلم من أصل 1.3 مليار مسلم.

(2) مـــصطفى المـــرابط: آن الأوان لانتفاضـــة المفكر، المنعطف، عدد خاص عن الاستراتيجية الأمريكية في العالم العربي والإسلامي: الوجه والقناع، وجدة، 2003.

(3) نقـــصد بهـــا كل الحركات الإسلامية المعتدلة التي تبنت خيار الانخراط في العمل السياسي الـــشرعي، والمؤســـساتي، مـــن قبـــيل تيارات أحزاب "العدالة والتنمية" في تركيا والمغرب وماليزيا مثلا.

رمـــوز الحـــركات الإسلامية، الوسطية قبل "الجهادية"، بحكم غلبة الهواجس الـــسياسية والإيديولوجية على الهموم المعرفية والفكرية لدى النخب الإسلامية الحـــركية، بصيغة يوجزها تعقيب دال صادر عن مسلم فرنسي اعتنق الإسلام عـــن طريق التصوف، ويتعلق الأمر بمطرب "الراب" الفرنسي عبد المالك الذي لاحظ أثناء مساره الذي أدى به إلى اعتناق الإسلام، والذي تطلب منه المرور عـــبر العديد من الحركات الدعوية، أن"العديد من النخب الإسلامية الحركية الـــتي كـــان يلتقي بها، تتحول بشكل فجائي نحو أشخاص غريبـــي الأطوار، ومـــتهجمين، عندما يُطرق باب التفكير، كما لو أن مجرد ذكر الإسلام، يَحُدُّ من القدرات الفكرية للمرء"[(1)].

- وآخـــر هذه الاعتبارات، كون مقاربات الباحثين في العملين سالفي الذكر، تروج لأطـــروحات تزعم الانتصار لجوهر الإسلام، بمخرج روّج له مثلا، الباحث ج نـــوراني، ومراده، حتمية تبني تفكير مبدع جريء، وتصميم ثابت على استرداد جوهـــر الإسلام وربطه بظروف الوقت الحاضر، بهدف "انتشال المسلمين من الـــورطة الـــتي يتخبطون فيها اليوم"[(2)]. ويمكن إيجاز الخطوط العريضة للصراع على النطق باسم الإسلام اليوم، بما يُشبه الصراع بين الصوفيين والسلفيين.

المبحث الأول: الصراع على النطق باسم الإسلام

نـــبدأ بالـــذي حفِـــل بـــه كـــتاب "الإســـلام والأصولية وخيانة الموروث الإســـلامي"[(3)]، ويـــندرج العمل في جبهة الحجاج المعرفي (الفقهي والفكري) مع

(1) Abd Al Malik, Qu'Allah bénisse la France, Espaces libres, Editions Albin Michel, Paris, 2007, p. 117.

(2) ج. نوراني: الجهاد والإسلام: التحيز في مواجهة الواقع، ترجمة رياض حسن، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2007، ص 123.

(3) جوزيـــف أ. ب. لمبارد: تقديم كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي: أبحاث كتـــبها باحـــثون مـــسلمون غربيون"، كتاب أعده للنشر سيد حسين نصر، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، ط1، 2007.
وجاء الكتاب موزعا على ثلاثة فصول: "الأسس الدينية"، وتضمن الدراسات التالية: "أسطورة الإســـلام المناضـــل" بقلم ديفيد دكاك (أمريكي مسلم، ومتخصص في علم اللاهوت المقارن والفلسفة الإسلامية)، "أفول المعرفة وظهور الإيديولوجية في العالم الإسلامي"، بقلم جوزيف

أدبـــيات الحركات الإسلامية بشكل عام، وإن كانت أغلب الدراسات القيّمة التي حفـــل بهـــا، ركزّت أكثر على نقد أداء الحركات الإسلامية "الجهادية"، في تقاطع عملـــي مع الذي صدر يوما عن وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، دونالد رامسفيلد، أحد أبرز الداعين، في حقبة ما بعد منعطف تفجيرات نيويورك وواشنطن، إلى شن "حرب الأفكار" ضد "الجهاديين"، وفي مقدمتهم تنظيم "القاعدة"، ومن يطلّع على كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي"، سيجد أمامه كتابا يترجم بـــشكل كـــبير بعض إسقاطات المقصود من "حرب الأفكار"، سواء بالمعنى الذي طرحه رامسفيلد، أو بالمعنى الذي تُرَوّج له العديد من القيادات الإسلامية في العالم العربـــــي والإسلامي، وإن جاءت في شكل نصح ودعاوى إلى الرشد والوسطية والاعـــتدال، كمـــا صدرت عن الشيخ يوسف القرضاوي، والداعية سلمان فهد العودة.

يقول جوزيف لمبارد، مقدم الكتاب: "الذين ساهموا في هذا الكتاب، بعضهم مـــن معتنقـــي الإسلام، والبعض الآخر، من المسلمين المقيمين في الولايات المتحدة الأمـــريكية وبـــريطانيا، شأنهم شأن الكثيرين من الناس في الغرب، رَوَّعهم وأحبط

أ. ب. لمـــبارد (أمريكـــي مـــسلم، أستاذ مساعد في الدراسات الإسلامية بالجامعة الأمريكية بالقاهـــرة)، "رد إسلامي تقليدي على ظهور الحداثة"، بقلم: فؤاد س. نعيم (باحث باكستاني، مقـــيم فـــي الولايات المتحدة بجامعة "ديوك"، ويهتم بالنزعات الفكرية الإسلامية بشبه القارة الهندية).

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان "أبعاد تاريخية"، وتضمن الدراسات التالية: "تذكر روح الجهـــاد"، بقلم رضا شاه كاظمي (باحث مساعد بمعهد الدراسات الإسلامية الإسماعيلية بلـــندن)، "التمـــثلات الأوروبية الكلاسيكية للإسلام قبل وبعد الحادي عشر من سبتمبر: جذور اعتقاد خاطئ"، بقلم: إبراهيم كالين (أستاذ مساعد في الدراسات الإسلامية بمدرسة الـــصليب المقـــدس، حيث يدرس الإسلام والفلسفة الإسلامية وعلم اللاهوت والتصوف والإسلام).

أمـــا الفصل الثالث والأخير، فقد جاء تحت عنوان: "أبعاد سياسية"، متضمنا المقالات التالية: "اقتـــصاديات الإرهاب: كيف يغير ابن لادن قوانين اللعبة"، بقلم وليد الأنصاري (أمريكي ذو أصـــل مـــصري، باحـــث بمعهـــد البحث الإسلامي، وهو مجمع للتفكير والبحث بالعاصمة واشـــنطن)، "العـــالم الإسلامي والعولمة: الحداثة وجذور الصراع"، بقلم إعجاز أكرم (باحث باكـــستاني، وأســـتاذ مساعد في العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة)، وهناك خاتمة حـــررها ت. ج. ونتر، وجاءت تحت عنوان: "جذب التعصب"، ويشغل الكاتب كرسي الشيخ زايد بن سلطان في الدراسات الإسلامية بمدرسة اللاهوت بجامعة كمبردج.

همهـــم التوتر المتنامي بين الإسلام والغرب". لكن بخلاف أغلب هؤلاء المواطنين، فالمـــشاركون في هذا العمل، وُلِدوا في الغرب أو هاجروا إليه، لهذا "نجد أنفسنا في مـــأزق حقيقي أصبح فيه الدين الذي نشأ البعض منا في أحضانه، والبعض الآخر مـــنذ اعتـــناقهم إيـــاه، مقتـــرنا بالنـــسبة لكثير من جيراننا وزملائنا في العمل، بإيديولوجيات أقلية منشقة وجانحة"(1) كما نقرأ في تمهيد العمل.

وبدهي أن هذا الجيل من الباحثين يؤدي وظيفة تأويل الغرب للمسلمين، ومن جهـــة أخـــرى، فهـــم يمثلون أيضا سفراء للإسلام في الغرب، علاوة على كونهم يفـــسرون الإســـلام للجماهير الغربية. نحن إزاء نموذج تطبيقي في توظيف التعاليم الإســـلامية الأصيلة ووسائل علم المنهاج الحديث بغية تقديم تحاليل معمقة ودقيقة للإسلام في عالمنا الحديث.

ســـوف نـــتوقف عند أهم الانتقادات الموجهة ضد "الجهاديين"، والحركات الإســـلامية المعتدلة، قبل التعريج على خيار الانتصار لصوت الإسلام التقليدي (أو التصوف)، والذي يقابل، كما جاء في العديد من الدراسات الأخرى، سواء كانت عـــربية/إسلامية أو غربية، "شيطنة الوهابية"، وخاصة في المجال التداولي الأمريكي، وطـــبعا، لـــدى العديد من الأقلام الإسلامية والعربية(2)، أو قراءات ابن الوراق، (كاتـــب هندي - باكستاني)، وهو من أصول إسلامية، تبرأ من الإسلام (أو ارتد عـــن الإسلام!)، وسَلَّطت عليه العديد من المنابر الإعلامية الغربية الأضواء مباشرة بعد منعطف تفجيرات نيويورك وواشنطن(3).

---

(1) جوزيف أ. ب. لمبارد: تقديم كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي"، مرجع سابق، ص 9.

(2) ونذكر من بينها، القراءات الصادرة عن الناشط الباكستاني (العلماني المرجعية) طارق علي، كما جاءت، نموذجا في مبحث مرجعي له يحمل عنوان: "التطرف الوهابي: إنه المسؤول". انظر:

Tariq Ali, Le fanatisme wahhabite, voilà le responsable, Courrier international, Paris, N. 573, 25 octobre 2001.

(3) مـــنها مقـــال شهير نشرته يومية "نيويورك تايمز" الأمريكية، ونشرت ترجمته في أسبوعية "ماريـــان" الفرنـــسية تحت عنوان: "إيديولوجية شمولية"، والإحالة هنا على الإسلام باعتباره "عقيدة شمولية"، وليس إيديولوجية الحركات الإسلامية! انظر:

Ibn Warraq, Une idéologie totalitaire, Marianne, Paris, 24-30 septembre 2001.

افتـــتح لمبارد ورقته بتوجيه النقد الصريح لأداء الحركات الإسلامية المتشددة، أو"الجهاديـــة"، معتـــبرا أن المتشددين حاولوا تطبيق الآيات بطرق تستدعي ابتداع وخلـــق معـــاني مخالفـــة للمعاني المتفق عليها، وأن "التفسيرات" من هذا القبيل لا تـــتعارض مع المظاهر الأساسية لعلوم القرآن والتفسير فحسب، بل تستحدث بدعا بممارسة الدين الإسلامي نفسه، وذلك بوضع الجهاد في مسلك إراقة الدماء، وبهذا فـــإن المتشددين، ينتهكون المبادئ الأساسية للحرب في الإسلام، ويخونون القدوة التي سَنَّها النبـــي (ﷺ) وكذلك المسلمون الذين شاركوا في الجهاد، متسائلا عن حقيقة الإســـلام الـــذي يروجون له من خلال تبني مثل هذه الاعتداءات، من منطلق أن تجاهلـــهم المـــتعمد لحقائـــق التاريخ الإسلامي الأول، وكذا الظروف التي أطرت نـــــزول الوحـــي القـــرآني، تجعلنا نتساءل أي إسلام، عدا الاسم، يَدَّعي هؤلاء المتطرفون إنقاذه؟

أمـــا أهم ما يوجز الانتقادات الموجهة للحركات الإسلامية المعتدلة، وخاصة المعنـــية بالمشاركة في العمل السياسي، فهو حديث لمبارد عن أن اختزال الدين في إيديولوجية، تفرز قلب الوظائف، بحيث لن تكون وظيفته تنقية القلوب وإنما تبرير المطامـــع الفردية والطموحات السياسية، في تقاطع ملفت مع ما أشار إليه طه عبد الرحمن، من أن "السياسة التي تتصل بالدين لا يمكن أبدا أن تكون هي هذه السياسة الـــتي تمـــارس في المجالس المعلومة والكواليس المشهودة والدهاليز المظلمة، وأهون مظاهرها الحسابات والمزايدات وأسوأ هذه المظاهر المكايد والمؤامرات"[(1)].

---

(1) جاء ذلك على هامش تفكيك طه عبد الرحمن لصلة الدين بالتسيس، فالغالب على الإسلاميين، والتقيـــيم لعبد الرحمن، أن يروا أن التدين والتسيس لا يفترقان، بحجة أن الدين يشمل جميع جـــوانب الحياة الإنسانية والسياسية جانب واحد منها على الأقل، فيلزم أن تتدرج فيه، إلا أن خطأهم في نظرنا يكمن في كون وجوه تصورهم للسياسة وأساليب ممارستهم لها لا يختلفان فـــي شيء عن تصورات وممارسات خصومهم غير الإسلاميين الذين يقولون بافتراق الدين عـــن السياسة، والحال أن السياسة التي تتصل بالدين لا يمكن أبدا أن تكون هي هذه السياسة التي تمارس في المجالس المعلومة والكواليس المشهودة والدهاليز المظلمة، وأهون مظاهرها الحسابات والمزايدات وأسوأ هذه المظاهر المكايد والمؤامرات، فيكون خصومهم بدعواهم إلى فـــصل السياسة عن الدين، أبلغ حجة منهم، إذ كلامهم يوهم بأنهم أكثر تعظيما للحقيقة الدينية مـــن القائلـــين بالوصـــل بينهما، كأنما يربأون بالدين أن ينحط إلى رتبة السياسة، إذ هو كله مكـــارم الأخـــلاق، بينما تبدو هي كما لو كانت كلها مساوئ الأخلاق، وعلى هذا، فواحد من

كـــان مـــبحث ت. ج. ونتر، أكثر جرأة في نقد مجمل التيارات الإسلامية الحـــركية، مطالبا رموز "الصحوة الإسلامية"، إذا كانوا يطمحون فعلا إلى ازدهار هـــذه الصحوة، بضرورة الاعتراف بأنها في أزمة حقيقية، وأن مواردها الفكرية قد أثبـــتت عدم كفاءتها للإيفاء بالاحتياجات المعاصرة، وتحتاج الإجابة على هذا الأمر إلى الارتكـــاز على عملية من المحاسبة الجماعية، وعلى مساءلة النفس، التي تسمو فوق إسلام الأدلجة المحدث من طرف دعاة إحياء الدين"، محللاً "التطرف السلفي، من منظور الشجرتين اللتين صَوَّرهما القرآن"[(1)].

نـــصعد درجـــة أعلى عندما نطرق باب نقد لمبارد للإصلاحيين والحداثيين، معتـــبرا أن "لإصـــلاحيين ينـــضمون إلى الحداثيين في الاعتقاد بأن المرء يمكنه تبني الـــزخارف الخارجـــية للعلم الحديث بدون تقييم للنظرية الفردية التي ظهر منها، فالإصـــلاحيون يُخطِـــئون في الاعتقاد بأن الإنسان يمكنه أن يعمل بالعلوم المنقولة وحـــدها، وبأنـــه لا يحـــتاج إلى تنمية ملكات تفسيرية تترعرع من خلال العلوم الإنسانية الذهنية.

أما الحداثيون، فيُخطِئون من جهتهم في الاعتقاد بأن المرء يمكنه نبذ الكثير من التقالـــيد المنقولة، مثل الحديث والفقه، أو بأن هذه يجب أن تفسر الآن من خلال المنهجـــيات الغربية[(2)]، بتعبير آخر، يلجأ الطرفان كلاهما إلى نظريات ومنهجيات

أمـــرين: إمـــا أن نقول بالاتصال بين الدين والسياسة، فيلزمنا إذ ذاك أن نفهم من السياسة ما نفهمـــه من الممارسة الأخلاقية، وإما أن نقول بالانفصال بينهما، فيجوز لنا حينئذ أن نمارس الـــسياسة علـــى مقتـــضاها غيـــر الأخلاقـــي، بحيث يصبح لفظ "السياسة" دالا على معنيين متعارضـــين، وقد اخترت الأخذ بالأمر الأول، فيكون قولي باتصال الدين بالسياسة هو عين قولـــي باتـــصال الـــدين بالأخلاق، وهذا ما لا يمكن أن يوافقني فيه الإسلاميون الذين طاب لبعضهم دخول "اللعبة السياسية" كما يدخلها غير الإسلاميين، سواء بسواء.

انظـــر: طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، جمعه وأعده للنشر رضوان مرحوم، منشورات الزمن، العدد 13، الرباط، ط1، نيسان (أبريل) 2000.

(1) ويـــتحدث عن مدلول الآيتين القرآنيتين 24 و26 من سورة إبراهيم: "ألم تر كيف ضرب الله مثلا ملكة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويـــضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار".

(2) يـــؤاخذ المفكـــر المغربي خالد حاجي على بعض رموز التيار الحداثي في المجال التداولي الإســـلامي العربـــي، رهـــانهم على "ثورة العقل والمراهنة على محاربته بأسلحة من جنس

تُعـــد غير إسلامية بدون جدال، إن لم تكن ضد الدين، ليَخْلُصَ إلى أن "المفكرين الحداثـــيين الليبراليين المسلمين والنشطاء الإصلاحيين الراديكاليين هما وجهان لعملة واحدة"[1].

نطلع على مقاربة نقدية مماثلة لما ذهب إليه لمبارد، في ورقة وليد الأنصاري، والـــذي اعتـــبر أن الفكـــر العلماني يساهم في الأصولية الدينية المعاصرة، وذلك بالتعتـــيم على الأفق الديني الحكيم الذي ينفذ إلى داخل معنى الوحي، كما أنه – أي الفكـــر العلمـــاني – ليس بالقوة الكافية، بل هو "الخطاب الأضعف" بتعبير المفكر السوري برهان غليون[2]، لتحويل الأصوليين إلى علمانيين "جيدين" أو إلى حداثيين متدينين، واعتبر من ناحية أخرى – وتقاطعا مع تأكيد لمبارد أننا بصدد "تحـــديات فكرية تتطلب جوابا فكريا" – أن الأزمة الراهنة هي أزمة فكرية على أقـــل تقدير، إلى جانب كونها أزمة سياسية، وكونها تظهر غياب المعرفة بالمبادئ

أسلحته، ويقترح هؤلاء، مُمَثَلين في شخص علي حرب، الذوبان في تاريخ الغرب بقصد بلوغ مـــستوى الخلق والابتكار. وبَدَهِي، يضيف حاجي، أن مآل هذا الخطاب الناقد للعقل العربي، المبخس للذات العربية والإسلامية هو الفشل الذريع في مخاطبة القوى الحية في المجتمعات التـــي يـــتحدث باسمها. وإن شأن أصحابه هو شأن جملة مثقفي حقبة ما بعد الاستعمار الذين يجعلـــون سقف طموحهم هو أن يصيروا غربا آخر وأن ينتزعوا الريادة منه فينصبوا أنفسهم محله".

يراجع الفصل الأول من كتابه "مضايق الحداثة"، وجاء تحت عنوان: "محاولات النهوض من مـــنطق الإلحـــاق إلـــى إمكانات التجاوز". من مضايق الحداثة إلى فضاء الإبداع الإسلامي والعربـــي"، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط1، 2006، من ص 13 إلى ص 41.

(1) جوزيـــف أ. ب لمبارد: تقديم كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي"، مرجع سابق، ص 111.

(2) يحصي برهان غليون ثلاثة خطابات رئيسية في الإسلام اليوم:
– الخطـــاب الإســـلامي (الحركي)، وهو الخطاب الأكثر تلونا بالفكر الإسلامي، ثم خطاب الدولـــة، وهـــو خطـــاب الإسلام المتسامح والمعتدل، وأخيرا، خطاب التكتل العلماني، وهو الخطـــاب الأضـــعف بين الجميع، وهذا الفاعل هو الذي يمثل الوعي الشقي في هذا الصراع الثلاثي.

برهان غليون: الإسلام وأزمة علاقات السلطة الاجتماعية، ضمن كتاب "الإسلاميون والمسألة الـــسياسية"، الطـــبعة الثانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، كانون الأول (ديسمبر) 2004، ص 143، ونشرت الدراسة أيضا في مجلة المستقبل العربي، السنة 12، العدد 128، تشرين الأول (أكتوبر) 1989.

الـــروحية. والمسألة الآن هي مسألة وقت قبل أن تجبرنا المشاكل السياسية والبيئية علـــى إعـــادة النظـــر في سياســـاتنا الخارجية والداخلية على ضوء هذه المبادئ الروحية(1).

المبحث الثاني: الصراع على شيطنة الإسلام

نـــأتي لانتقادات مؤرقة صدرت في هذا العمل، وتندرج ضمن نـــزعة غربية سُـــلّطت علـــيها الكـــثير مـــن الأضواء مباشرة بعد منعطف تفجيرات نيويورك وواشـــنطن، ونتحدث عما يُشبِه "شيطنة الوهابية"، ولو أن النقد في مبحث لمبارد، جاء بشكل مُلطّف، في حين كان جليا في أوراق أبحاث أخرى في الكتاب، حيث اعتـــبر المـــتدخل أن الإصـــلاحيين المتشددين، مثل الوهابيين في المملكة العربية السعودية، والجماعات الإسلامية في الباكستان، يقترحون تمسكا صارما بالقرآن والسنة، لكنهم بعملهم هذا يتنكرون بعجرفة لثلاثة عشر قرنا من التاريخ الفكري الإسلامي، مدعين بأن لا حاجة للمساعدة من مفكري الماضي العام من أجل فهم وتفـــسير النصوص التي أدركوها هم أنفسهم ونقلوها، ولعل ما يخدم أطروحات نقـــد الوهابـــية، كـــون العديد من المفكرين الغربيين من معتنقي الإسلام، تبنوا وروَّجـــوا للأطـــروحات الصوفية، ذات الخلاف التاريخي مع التيارات الإسلامية الإصـــلاحية، ونجـــد ضمنها الوهابية، ونستحضر ما يصدر عن المفكر الفرنسي المـــسلم إريـــك جوفروا، الأستاذ في جامعة "مارك بلوخ" وجامعة ستراسبورج، والـــذي يعتـــبر أن مستقبل الإسلام في أوروبا يكمن في الرهان على التصوف، وذهـــب إلى مـــرتبة "اتهـــام عوائد البترودولار في دول الخليج العربـــي بتحمل

(1) تكمـــن أبـــرز خلاصات وليد الأنصاري في التأكيد على أنه "بدون تغيير في إدراكنا لقواعد اللعـــبة علـــى ضـــوء المبادئ الروحية، وبدون تبني الحلول السياسية والفكرية والاقتصادية الملائمـــة للمشاكل التي تدفع بالإرهابيين إلى القيام بهجمات ضد الولايات المتحدة، فإن هذه الهجمات من المحتمل أن تتواصل رغم أننا ندعو الله ونلح في الدعاء أن لا تقع مستقبلا. وإذا وقعـــت مثل هذه الهجمات، فالسبب لن يكون ضغط الولايات المتحدة على إسرائيل من أجل الـــتحكم في استعمال القوة، كما يدعي ذلك بنيامين نتنياهو، وإنما سيكون هو الفشل الأخلاقي والفكري لكل الأطراف المعنية بهذا الصراع".
ولـــيد الأنـــصاري: "اقتصاديات الإرهاب: كيف يغير ابن لادن قوانين اللعبة"، ضمن كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي"، مرجع سابق، ص 325.

المسؤولية في "انتشار السرطان الوهابي، ودعم القضايا الأكثر ظلامية، وفي مقدمتها القضية الطالبانية"[1].

يوجز مبحث وليد الأنصاري الموسوم "اقتصاديات الإرهاب: كيف يغير ابن لادن قوانين اللعبة"، أبرز الانتقادات الموجهة للوهابية، معتبرا بداية أن الفكر الأصولي الوهابي يقدم مقاربة مقتضبة نسبيا للإسلام، بالإضافة إلى كونها تميل إلى الخلط المغلوط والخطير بين الأفكار الإسلامية والعلمانية عبر الاجتهاد، لأن الفكر الوهابي خصوصا هو فكر صارم في عدم تشجيع دراسات الموروث الفكري الإسلامي. ولا تنقصنا الأمثلة التي يمكن أن تعزز هذا النقد، بالصيغة التي يتبناها الباحث طبعا، ويوجد في مقدمة هذه الأمثلة، من يُلقّب بزعيم تنظيم "القاعدة"، أسامة بن لادن، حيث اعتبر الأنصاري، أنه ليس من قبيل الصدف أن يكون ابن لادن قد ترعرع في مثل هذه البيئة (الوهابية)، أو أنه ليس من الصدف أن يكون ابن لادن قد نشأ في بيئة اقتصادية عصرية أضعفت الإسلام التقليدي، وخلقت بذلك الظروف الفكرية الضرورية لاستراتيجية ابن لادن التي تنبني على المعاملة بالمثل[2] دون أن يعني ذلك أن الفكر الوهابي يقلب بالضرورة القيم الإسلامية[3]، أو أن الوهابي المثالي هو إنسان إرهابي ينشغل بالأشكال المغلوطة للجهاد، كما فعل ابن لادن، وكما رَوَّج لذلك المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما، والذي لم يتردد، أسابيع قليلة فقط بعد

---

(1) Eric Geoffroy, In L'Islam dans la cité. Sous la direction de Philippe Yacine Demaison, Albin Michel-spiritualités, Paris, 2006, p. 97.

(2) تزامن صدور كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي" مع صدور تصريح عن الأمير محمد العبد الله الفيصل (ابن شقيق وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل)، ودعا من خلاله إلى "تغيير فلسفة التعليم في المملكة العربية السعودية"، قائلا إن "المناهج خرّجت إرهابيين فجروا أنفسهم، وعلينا أن نبحث كيف يجب أن نخرّج هذا الشباب".
انظر التقرير الإخباري الصادر في يومية القدس العربي اللندنية، تحت عنوان "أمير سعودي يقول إن المناهج الدراسية السعودية خرّجت إرهابيين، عدد 25 كانون الثاني (يناير) 2008.

(3) يرى الباحث الفرنسي أوليفيه روا أنه "غالبا ما يلاقي المذهب الوهابي معارضة شديدة في أوساط رجال الدين السنّة التقليديين".
انظر: أوليفيه روا: "تجربة الإسلام السياسي"، ترجمة نصير مروة، دار الساقي، لندن، الطبعة الثانية، 1996، ص 113.

تفجـــيرات نيويورك وواشنطن، في تصنيف "الفكر الوهابـــي بسهولة على أنه إسلامية فاشية"[(1)].

إن الكـــثير من الوهابيين هم مسلمون ورعون، ولا يقومون بأعمال إرهابية، بتعـــبير الأنصاري، وبالنتيجة، فإن "القول بأن كل ذلك ساهم في صناعة الإرهاب هو من قبيل التحليل السريع جدا، إذ إن شيئا لم يكن ممكنا لو أن الغرب، وخاصة الـــولايات المتحدة، لم يتآلف بكل تلك السهولة مع حلفاء إسلاميين جذريين بُغية محاربة الشيوعية في أفغانستان"[(2)]، كما أن "اقتحام الفكر العلماني للعالم الإسلامي لا يغفر لابن لادن المسؤولية الأخلاقية لمناصرة الإرهاب، لولا أن خطر قلب القيم الإســـلامية في الفكـــر الوهابـــي مرتفع لكون الفلسفة الدنيوية/العلمانية غالبا ما تدخل إلى المجتمع عبر "البوابة الخلفية"، مع العلوم الطبيعية الدنيوية"[(3)].

نجـــد تفـــسيرا أكثـــر رصـــانة لما سُمي "انحراف القيم الإسلامية في الفكر الوهابـــــي"، في التأثير الجلّي للبنى التحتية على بنى الوعي الفكري، من منطلق أن السلفية تجد بيئتها الطبيعية في البادية والريف والأطراف الإسلامية الداخلية والنائية، حـــيث المؤثرات الأجنبية الوافدة ضعيفة أو معدومة، وحيث نمط الحياة الاجتماعية والإنتاجية بسيط لا يتطلب حلولا تركيبية وإضافات جديدة، ولهذا "يؤدي التصلب العقدي بالسلفيين إلى تصلب فكري يفتقر إلى المرونة وإلى القدرة على بحث الأمور مـــن جـــوانب متعددة ومنظورات ومستويات شمولية، ويحجب الرؤية النسبية في الأشـــياء والظواهـــر وذم الاهتمام بالحقائق التي تعارض الحكم المسبق الذي تحمله العقيدة على الشيء، ويميل إلى موقف القطيعة"[(4)].

ونعتـــبر أن أهم نقد وازن صدر حول النـــزعة السلفية، حُرِّر اثنا عشر سنة قـــبل اعـــتداءات نيويورك وواشنطن، وصدر عن طه عبد الرحمن في كتابه "العمل

---

(1) Francis Fukuyama, Their Target: The Modern World, ***Newsweek***, December 2001-February 2002.

(2) بتعبيـــر جوزيف مايلا في عمله المشترك مع محمد أركون: من مانهاتن إلى بغداد: ما وراء الخير والشر، ترجمة عقيل الشيخ حسين، دار الساقي، لندن، ط1، 2008، ص 179.

(3) ولـــيد الأنـــصاري: اقتـــصاديات الإرهاب: كيف يغير ابن لادن قوانين اللعبة، ضمن كتاب الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي، مرجع سابق، ص 299.

(4) عـــبد الحكـــيم أبو اللوز: تصلب الإيديولوجيا السلفية الجديدة، إضافات (المجلة العربية لعلم الاجتماع)، بيروت، العددان الثالث والرابع، صيف وخريف 2008.

الديني وتجديد العقل"، عندما توقف عند أهم الآفتين اللتين سقطت فيهما النـزعة السلفية، وهما بالتحديد، آفتا "التجريد" و"التسييس". فأما "آفة التجريد"، فيقصد بها قصر التأمل في النصوص على العقل المجرد وحده، فتتجلى في وجهين للممارسة السلفية: وجه "التسلُّف النظري" الذي يقول بإمكان الإدراك العقلي المجرد للدلالات الحقيقية للنصوص الأصلية وإمكان الانتفاع العملي بها بمجرد هذا الإدراك، ووجه "التسلُّف النقدي" الذي يقول بإمكان التحليل العقلي المجرد للمعارف والتجارب وإمكان ضبط اقتران النظر بالعمل؛ ثم "آفة التسييس"، وهي تعليق الإصلاح بالجانب السياسي وحده وصرف الجانب التأنيسي بأشكاله الثلاثة: "اجتناب التطرف" و"الخلو عن التوقف" و"دوام اليقظة"(1).

كان تبني موقف نقدي من الوهابية، من النقاط الجامعة بين الخطوط العريضة لمبحثي "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي" و"مكانة التسامح في الإسلام"، والعديد من المؤلفات، ونتوقف عند نموذجين بارزين في هذا الصدد:

- ما جاء في التمهيد الدال لكتاب لويس دوكورانسي، ويحمل عنوان: "الوهابيون: تاريخ ما أهمله التاريخ"، حيث اعتبر الناشر أن أهمية العمل تكمن في أنه "يُسلّط الضوء على حقبة نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ما زالت مفاعيلها توثر حتى اليوم في حياتنا العربية والإسلامية"، وقد أسّست – بيت القصيد – لما بات يُعرف الآن بالسلفية أو الأصولية الإسلامية التي هي اليوم اللاعب الأساسي والدرامي في المواجهة بين الشرق والغرب"(2).
- أما الكتاب الثاني، فقد كان وصفيا وتقريريا بخلاف العمل السابق، حيث بدت عليه سمات الخطاب الطائفي وما يُشبه تصفية الحسابات المذهبية والسياسية مع

---

(1) وجب التذكير أن تمهيد كتاب "العمل الديني وتجديد العقل" مُؤرخ في نيسان (أبريل) 1989، وقد اعتمدنا في سرد الاستشهاد على طبعة عام 2000 من الكتاب.
انظر: طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 2000، ص 112.

(2) لويس دوكورانسي: الوهابيون: تاريخ ما أهمله التاريخ، دار رياض الريس للكتب والنشر، ط 1، تموز (يوليو) 2003.

"الـــسلفية الوهابـــية" والسلطة الزمنية الحاكمة في السعودية، وذلك من خلال اتهـــام الوهابـــية بـــــ "تشويه التعاليم الأساسية للإسلام، بعد أن قامت بدور الدعاية الإيديولوجية لنظام أهدر ثروات الجزيرة العربية، مشوهة صورة المسلمين، شيعة وسنة باعتبارهم غير مسلمين، وموصية بإهدار دمائهم"(1)، والاستشهاد تحديـــدا بمواقـــف محمد المسعري، زعيم "لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية"، وسعد الفقيه زعيم "الحركة الإسلامية للإصلاح".

ولعـــل أبـــرز مـــا يوجز هذه القراءات النقدية، التي اقترب بعضها من مرتبة الـــشيطنة، ما صدر عن الباحث البريطاني، والباكستاني الأصل، زيوالدين صاردر، واعتبر أن "الوهابية المعاصرة تلغي الماضي وتلغي أي بديل لما هو قائم مع نصوصها الـــتي تدرسها للوهابيين السعوديين وغير السعوديين، حيث يتم إلغاء ونسف كل التاريخ الإسلامي منذ الحقبة الأموية حتى اليوم، مع إصرار على إلغاء ونفي التنوع والتعدد المميز للتاريخ والثقافة الإسلامية"، موجها انتقادات لاذعة للنظام التعليمي في العربية السعودية(2).

ومـــا يـــشفع للباحث البريطاني/الباكستاني تمرير مثل هذه القراءات، إصرار الـــناطقين باسم "الإسلام الوهابـــي"، أو "السلفية الوهابية" تحديدا، على اعتبار أن الوهابـــية ليست محصورة فقط "فيما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتبه وأحاديثه ودروسه"، والمسلم الوهابـــي هو "الذي يرى أن دينه هو الحق وأنه يحثه على دعوة الناس إلى الإسلام، و"الوهابـــي باختصار هو كل مسلم يحاول الالتزام بتعالـــيم ديـــنه حـــتى لـــو كان يعيش في البلاد الغربية"، ونحن نعلم أن "في العالم الإسلامي أناساً كثرا لهم مشكلة مع الوهابية"(3).

---

(1) حامـــد ألكـــار: الوهابية: مقالة نقدية، ترجمة عباس خضير كاظم، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)، بغداد، ط1، 2006، ص 66.

(2) Ziauddin Sardar, Is Muslim civilisation set on a fixed course to decline? New Stateman, June 14, 2004.

(3) جعفـــر شـــيخ إدريس: المفهوم الغربي للوهابية، البيان، لندن، العدد 191، رجب 1424هــ، أيلول (سبتمبر) 2003.

المبحث الثالث: الصراع على اختزال الإسلام

نقصد بالانتصار لتيار "الإسلام التقليدي"، الانتصار للتصوف بشكل أدق، وهذا ما نطلع عليه بشكل جلّي في كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي"، وخاصة في مبحث "رد إسلامي تقليدي على ظهور الحداثة"، لفؤاد. س. نعيم، والذي لاحظ أن إهمال صوت الإسلام التقليدي في الغرب يحرمنا من رؤية الصورة الكاملة للحضارة الإسلامية، حيث أدى هذا الإهمال إلى اختزال الإسلام في ثنائية متناقضة ومضللة، وهي ثنائية "الأصولية" و"التيارات الحداثية"، التي لا يتبعها سوى عدد قليل نسبيا من المسلمين. وعلى هذه الخلفية، تم التصريح غير ما مرة من طرف مفكرين أمثال سلمان رشدي وبرنارد لويس ودانيال بايبس، بأن الإسلام مطالب بموائمة روح العصر إن هو أراد ألا يستسلم للقوات الأصولية، ويغفل جميع هؤلاء، برأي الباحث، أن المسلمين لا يستطيعون اعتناق لا الحرفية المتزمتة ولا الحداثة، ويبقون مع ذلك مخلصين لدينهم"[1]، ومُعلِنا تبنّيه لخيار "الإسلام التقليدي"، ومذكرا المتلقي بأنه في الوقت الذي "بدأ فيه الغرب نفسه يسأل أسئلة حول إرثه الحداثي، من علمانية، وعقلانية، وإنسانية، وغيرها، وبدأ البحث عن الروحانية الحقيقية يزداد بسرعة في الغرب، يستطيع التراث الفكري والروحي الإسلامي أن يقدم أجوبة حاسمة وبعيدة الأثر، على اعتبار أنه لا الحركات الدينية المتزمتة التي تحصر الحقيقة في نظرة حرفية ضيقة، ولا الحداثة الليبرالية التي تعتبر الحقيقة نسبية تستطيعان القيام بهذه المهمة. لذلك فإنه من الأهمية بمكان أن يتعرف الغرب على صوت الإسلام التقليدي ويتعامل معه، وصوت الإسلام التقليدي لا يزال هو صوت أغلبية المسلمين، من بين العامة والسلطات الدينية معا"[2]، في تقاطع ملفت مع ما أشار إليه المفكر سيد حسين نصر، من أن "قيم العالم الإسلامي التقليدية، هي التي تفسر استمرار أجواء السلام والطمأنينة لدى المسلمين، رغم كل الحروب والغزوات والاعتداءات التي تعرض لها الإسلام،

(1) فؤاد س. نعيم: "رد إسلامي تقليدي على ظهور الحداثة"، ضمن كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي"، مرجع سابق، ص 118.

(2) فؤاد س. نعيم: "رد إسلامي تقليدي على ظهور الحداثة"، ضمن كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي"، مرجع سابق، ص 165.

وهي التي تفسر سر السلم السائد في هذا المسجد أو تلك الحديقة، من مراكش إلى لاهور"[1].

تقاطعـــت هذه القراءات النقدية مع ما صدر عن بعض الأقلام المحسوبة على التيار العلماني في المجال التداولي الإسلامي العربـــي، ونخص بالذكر، بعض أعمال الأديـــب والـــباحث الفرنسي، ذو الأصل التونسي، عبد الوهاب المؤدب، لولا أنه بالنـــسبة لهذا الباحث – وغيره من الأقلام المحسوبة على التيار العلماني – غالبا ما صـــبّت بعـــض قراءاته النقدية المنتصرة لخيار الإسلام التقليدي في ما يُشبه تصفية حـــسابات فكـــرية ومذهبـــية مع منافسين إيديولوجيين، كما أوجزها العديد من قـــراءات هذا الأديب، منها إشارته إلى أن "إسلاميي اليوم"، أو "المحافظون الجدد"، يمسحون من هذا التراث، تلك النسخة من الإسلام التقليدي، الذي انتقل بسببه من تعـــريف الإسلام بأنه عبادة مفتوحة نحو اختزاله في الحجاب اليوم"[2]، أو اختزال "أزمة" النهضويين العرب في مطلع القرن العشرين (محمد عبده، رشيد رضا، رفاعة الطهطـــاوي..)، في "الفـــشل في استيعاب جوهر النصوص المؤسسة للأوروبيين" (يقصد لعصور الأنوار الأوروبية)[3].

---

(1) Seyyed Hossein Nasr, La violence n'est pas dans la religion, mais dans les hommes, Courrier international, Paris, N. 571, du 11 au 17 Octobre 2001.

(2) Abdelwahab Meddeb, Ferveur et piété des humbles, In le nouvel observateur, Numéro hors série sous le thème: les nouveaux penseurs de l'Islam. Paris, Avril-Mai 2004, p. 20.

(3) Abdelwahab Meddeb, L'Islam doit, sans complexe, empreinter à l'Occident, In Le Nouvel Observateur. Paris, N. 1967, du 18 au 24 Juillet 2002.

والملاحـــظ في قراءة عبد الوهاب المؤدب وتعاطيه مع النصوص الدينية الإسلامية المؤسسة (القـــرآن والسنة الصحيحة)، إقراره بأن ما يهمه في العملية أن "أنتقد ديانتي الإسلام بطريقة مـــشابهة لما فعله نيتشه في عصره مع المسيحية"، معتبرا أن "من ينظر بدقة إلى المسجدين الكبيـــرين فـــي المـــدن الإســـلامية المقدسة مكة والمدينة فسوف يلاحظ بكل سهولة أن كلا المسجدين مطابقين لمدينة "ديزني لاند" الترفيهية في "انعدام الجمال". يعتبر الأصوليون اليوم أنفـــسهم معاصـــرين روحيا للنبي، مع أنهم في الحقيقة متأمركين دون أن يدروا، ووضعهم الروحـــي أســـوأ ما يكون" (حوار مع الباحث والأديب التونسي عبد الوهاب المؤدب، أجراه بـــيآت شتاوفر (صحفي سويسري مختص في شؤون المغرب العربي)، ترجمة عبد اللطيف شـــعيب، ونـــشر في موقع مجلة "قنطرة" الألماني)، وقد يكون المؤدب مصيبا أو مخطئا في اعتـــبار أن "الوضع الروحي للحركات الإسلامية أصبح أسوأ ما يكون"، ولكنه، وهو الأديب والباحث الذي يبحث عن "بُعد إغريقي للإسلام"، أفصح أيضا عن بعض سمات ما قد نصطلح

لم يكـــتف الأديـــب الفرنسي/التونسي بخوض معارك الاشتباك النقدي ضد أدبـــيات الحـــركات الإســـلامية عموما، وإنما ذهب بعيدا في انضمام صريح لتيار عربـــي مقيم في الغرب، أطلق عليه الناشط الباكستاني طارق علي وصف "عرب البـــيت الأبيض"، وهذه تسمية طريفة ودالة تهم الأقلام العربية التي تريد أن تصبح غـــربية أكثـــر مـــن الغـــربيين، وهي، حسب طارق علي، "شخصيات تحتاجها الإمبراطورية وتربيها الأكاديمية، ممن يسعون إلى إرضاء الإمبراطورية، عبر قول أمور يفكـــر فيها كثير من الغربيين دون أن يجرؤوا على الجهر بها"[(1)]، وتلك هي القيمة الأبـــرز لهذا التيار: إنهم مستعدون لأن يكونوا مستشارين لدى الغرب، ليقولوا له: أنت لا تقوم بعملك بما يكفي من الإتقان.

قـــد يكون الأكاديمي الأمريكي، اللبناني الأصل، فؤاد عجمي، من أبرز رموز تـــيار "عرب البيت العالم الغربـــي"، في شقه الأمريكي، أو "عرب البيت الأبيض" بتعـــبير طارق علي، حيث تطوع بتشخيص مأزق السياسة الراهنة، بصيغة تترجم رؤى تـــيار "المحـــافظين الجدد"، في ثنايا محاضرة ألقاها في واشنطن في عام 2004، عـــندما اعتبر أن هناك مدرستان للتفكير حول السؤال الشهير: "لماذا يكرهوننا؟"، مدرسة تقول إنهم يكرهوننا، فما هي مشكلتنا، ومدرسة تقول، إنهم يكرهوننا، فما هي مشكلتهم، مع الإقرار سلفا أنه ينتمي إلى المدرسة الثانية، مزيحا أي احتمال عن إمكانية وجود خلل في سياسة الإدارة الأمريكية.

لم يخـــرج آخـــر عمل صدر لعبد الوهاب المؤدب عن مسار أعماله السابقة، فالإســـلام، برأي مؤلف "رهان من أجل الحضارة"، أعطى للعنف بُعدا عالميا، فيما الديانة اليهودية أبقته في حيز جغرافي ضيق يخص فقط المطالبة بالأرض المقدسة" أين المـــزدوجين الآخرين؟، و"العنف ملازم ومحايث للإسلام أكثر مما هو عليه في بقية الـــديانات والـــتي لا يعدو الإسلام أن يكون مجرد نسخة باهتة لها"[(2)] وغيرها من القـــراءات التي تحيلنا على الرؤى الاستشراقية ذات النـــزوع الاستئصالي، لولا أن

علـــيه بمعـــالم "التطـــرف الحداثـــي"، في شقه المروج لأطروحات نزع القداسة عن الأديان السماوية، وخاصة منها الإسلام، عندما اختزل منظر "مساجد مكة المكرمة والمدينة المنورة، في التطابق مع مدينة "ديزني لاند" الترفيهية!

(1) انظر: طارق علي: عن الإمبراطورية والمقاومة، دار الآداب، بيروت، ط1، 2006.

(2) Abdelwahab Meddeb, Paris de civilisation, Editions Seuil, Paris, 2009.

الأمـــر هـــذه المرة، يتعلق بقلم عربـــي مسلم مقيم في غرب "الأنوار" و"الحداثة" و"نـــــزع القداسة عن النصوص الدينية/القرآنية"، معلنا انتماءه إلى مشروع/"مدرسة" أسّسها محمد أركون، ترفع شعار "الإسلاميات التطبيقية"، وترى أن "الجهاديين لا يعيرون أي انتباه للاعتبارات العقائدية أو لتعزيز الوعي الإسلامي، لأنهم لا يمتلكون المؤهلات الضرورية ولا حتى مجرد فضول المؤمنين الذين يحترمون البحث عن المعنى في ديـــن تقلّص ليكون وظيفة واحدة: تنشيط مخيال الجهاد ضد عدو تأسيسا على أفكار مسبقة وغير عقلانية. ليس المهم عندهم صياغة أحكام الشرع عن دراية ولا صياغة تشريع الحرب المسمّاة الجهاد، ولا التوعية الروحية أو الأخلاقية انطلاقا من مجموعات النصوص التقليدية الكبرى"[(1)].

يناقض واقع الحال الإسلامي الفقهي المعاصر، أحقية حديث محمد أركون عن جهل هؤلاء "الجهاديين" بـــ "أحكام الشرع"، بل إن هذه الجزئية بالذات، اعتُبرت أهم التحديات التي واجهت المعنيين بالتصدي المعرفي والفقهي لأدبيات الحركات الإسلامية "الجهادية"، بحكم أن هذه الحركات تؤسس عملها الميداني على أدبيات فقهية (أو "أحكام الشرع" التي يُقلل من شأنها محمد أركون)، تشرعن هذا العمل، بدلـــيل فورة الأدبيات الفقهية "الجهادية" التي أجازت شرعيا اعتداءات 11 أيلول (سبتمبر) 2001، أو الاعتداءات التي حصلت ببعض الدول العربية والإسلامية[(2)].

بالنسبة لإرشاد منجي، الباحثة الكندية من أصل باكستاني، فقد تفوقت كثيرا في ســـباق المـــسافات القصيرة لـــ "إرضاء الإمبراطورية"، بالصيغة التي جاءت في كـــتابها "مـــسلمون أحـــرار: متى توقفنا عن التفكير؟"، حيث اعتبرت أن المعنيين بـــــ "إحـــياء الشكوك التي تطرق إليها سلمان رشدي في آيات شيطانية"[(3)]، من

---

(1) محمد أركون وجوزيف مايلا: من مانهاتن إلى بغداد، مرجع سابق، ص 137.

(2) مـــن قبـــيل صـــدور لائحة من الدراسات والمقالات التي "شرعنت" الاعتداءات التي طالت العاصمة السعودية الرياض في 12 أيار (مايو) 2003، ونذكر منها: "النظرة الشرعية لأحداث الرياض"، "بيان لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية حول تفجيرات مجمع "المحيا"، "بداية جولة جديدة للصراع: بدر الرياض أم شمس الحقيقة"، "انتقاض الاعتراض على تفجيرات الرياض" و"بـــيان ناصـــع البياض بخصوص تفجيرات الرياض".. وغيرها من قراءات في "التأصيل الشرعي" للاعتداء!

(3) إرشاد منجي: مسلمون أحرار: متى توقفنا عن التفكير؟ منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) – بغداد، ط1، 2005، ص 71.

منطلق أن "الإسلام أضيق أفقا من بقية الأديان"[1]، وأنه "للقرآن نواقص"[2]، لن يخرج عن دائرة الولايات المتحدة ورموز التيار الليبرالي العربي، الذين توجه إليهم الكاتبة رسالة صريحة: "أيها المسلمون الليبراليون: ارفعوا أصواتكم عاليا بشأن الحقيقة التالية: أمريكا هي الأمل المرتجى لا رأس الأفعى"[3].

وردا على قراءات التيارات النقدية العلمانية المحسوبة على التيار المتشدد، يدقّق وليد الأنصاري في كون "الأصولية العلمانية – أو التعصب لنظرة الآخرين للعالم في الفكر الحداثي – تولد "أصولية إسلامية" متعصّبة كرد فعل، وهي تمزج في واقع الأمر بين عناصر الفكر الديني. وهذه وضعية فكرية ملازمة لصيغة الأصولية الإسلامية التي جاء بها أسامة بن لادن، ولتوضيح هذا، يطالبنا الأنصاري بالتطرق إلى نقطتين مصيريتين: العلاقة بين الموروث العقلي الإسلامي التقليدي والحضارة الإسلامية التي تقصي الإرهاب من جهة؛ والعلاقة بين الأصولية العلمانية وأشكال الأصولية الإسلامية العنيفة، والتي تجعل من الإرهاب أمرا ممكنا من جهة ثانية[4].

على أن الميزة الأبرز للمبحث المرجعي الذي حرّره فؤاد. س. نعيم، تكمن في تسليطه الضوء على مفكر هندي مرموق، ولكنه مجهول في المجال التداولي العربي تحديدا، فكان على أغلب المتتبعين لجديد النقد الإسلامي الرصين للأسس الفلسفية للحداثة الغربية[5]، انتظار مبحث "رد إسلامي تقليدي على ظهور الحداثة"، حتى نقرأ بعض اجتهادات أحد الأقلام الهندية التي رسّخت اسمها في نقد "قداسة الحداثة"[6].

---

(1) إرشاد منجي: مرجع سابق، ص 37.

(2) إرشاد منجي: مرجع سابق، ص 203.

(3) إرشاد منجي: مرجع سابق، 187.

(4) وليد الأنصاري: "اقتصاديات الإرهاب: كيف يغير ابن لادن قوانين اللعبة"، ضمن كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي"، مرجع سابق، ص 297.

(5) ونخص بالذكر هنا كتاب طه عبد الرحمن: "روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية"، وصدر الكتاب عن المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط1، 2006.

(6) في ثنايا أشغال ندوة فكرية نظمتها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء يومي 10 و11 كانون الأول (ديسمبر) 2004 تحت عنوان: "من تفسير القرآن إلى القراءات الحديثة للظاهرة القرآنية"، تدخل الباحث التونسي المنصف بن عبد الجليل، عن "معهد الدراسات حول

يـــؤاخذ فؤاد س. نعيم العلماء الغربيين، تركيزهم على ضخامة ما حرروه مـــن أدبيات حول الحداثة في العالم الإسلامي، وحول خصومهم في الجماعات الأصولية والإصلاحية، لكن إنتاجهم الفكري لم يدرس بما فيه الكفاية الأغلبية الواسعة لمن يصفهم بـــ "المسلمين العاديين" والمثقفين والعلماء المسلمين، الذين ظلوا تقليديين وأنتجوا أعمالا في اطراد مع الأفكار والأساليب العلمية والفكرية الإســـلامية التقليدية". ويبقى مولانا أشرف علي ثانفي أحد أبرز الشخصيات الـــتي تم تجاهلها، ليس في الإنتاج الغربـــي حول واقع الحداثة في المجال التداولي الإســـلامي العربـــي فحسب وإنما أيضا في إنتاج ومتابعات الأقلام العربية على الخـــصوص، مـــع أن للـــراحل، ما يربو عن ألف عمل منسوب إليه، مكتوب باللغـــات الأردية والفارسية والعربية، أغلبها في علوم التفسير والحديث والمنطق وعلـــم الكـــلام والحكمـــة والعقائد والتصوف. ومن بين أشهر أعماله، "بيان القـــرآن"، وهـــو كتاب في تفسير القرآن في اثني عشر مجلدا، والكتاب الخاص بإرشاد النساء، "بهشتي زفار" (الزخارف السماوية) الذي لا يخلو بيت مسلم من نسخة منه في جميع أنحاء شبه القارة الهندية، وألف كذلك كتابا من عدة أجزاء في شرح المثنوي لجلال الدين الرومي مقتفيا في ذلك أثر أستاذه الروحي، حاجي عمـــاد الله، الـــذي كـــان يلقي خطبا حول "المثنوي" في الحرم الشريف بمكة المكرمة.

إن الحداثـــيين – والتقييم لمولانا ثانفي، كما جاء في كتابه المرجعي "رد على الحداثة" – يخلطون مخطئين بين قوة الغرب الحديث وصحة أفكاره، ولذلك يريدون تحـــديث الإســـلام لجعلـــه أكثر قوة. أما الأصوليون – ويقصد بذلك الحركات الإســـلامية – فيحاولون تقوية الإسلام بزيادة قوته السياسية. وهذه مهمة يمكن أن تؤدي – إن لم تكن قد أدت فعلا – إلى استعمال وسائل عنيفة.

وواضـــح أن مقاربة الإسلام التقليدي، وهي المقاربة التي يتبناها مولانا ثانفي، تتحدى المنهجيتين معا (الحداثية والأصولية) بإظهار أن قوة الإسلام الدائمة تكمن

حـــضارات المـــسلمين" بلـــندن، واعتبر أن "الوحي لم يعد منتجا للحقيقة اليوم"، وأنه "لم يعد مـــصدرا للشرعية، فالحقيقة أصبحت في مكان آخر، وأصبحت الشرعية تمنح بأسس أخرى يمكن أن تكون خارج الدين"، وأن "ما استقر لم يعد بالإمكان مقنعا"!

لـــيس في قوته السياسية، بل في حقيقته، وفي الصحة والقوة الفكرية والأخلاقية[1] التي لا توفرها سوى الحقيقة وحدها.

نطلـــع علـــى ذات الانتـــصار لتيار الإسلام التقليدي في كتاب "التسامح في الإســـلام"، مـــن خـــلال توقف أحد المتدخلين عند المآزق التي يواجهها خطاب المـــسلمين الـــذين يتصدون لتهديد الإسلام من قبل المتطرفين الدينيين، ولخصه في "المـــبادئ المحافظـــة عـــند معظم العلماء (ليس كلهم)، التدريب التقليدي للعلماء والحكام المسلمين، والقوة عند الأصناف الأكثر تزمتا وإقصاء، كالوهابية والسلفية في الإسلام، وللتغلب على هذه العوائق، يحتاج هذا الجهاد إلى الانفتاح، والتجديد وأن يتحـــرك إلى الأمام بشكل سريع على الجبهات الدينية، والعقلانية، والروحية، والأخلاقية"[2].

ولعـــل أبرز قراءة نقدية صادرة عن إحدى رموز النخب العربية والإسلامية المقيمة في الغـــرب، بخـــصوص الـــصراع/الـــرهان علـــى التـــيار السلفي/الوهابـــي ومقابله التقليدي/الصوفي، القراءة الرصينة التي توقف عندها الباحث والإمام فيصل عبد الرؤوف، المقـــيم في الـــولايات المـــتحدة، وأحد رموز الدعوة والترويج لخطاب الحوار والتعارف والتدافع المعرفي بين المجالين، الإسلامي وغير الإسلامي، كما نقرأ في عمله المرجعي الذي يحمـــل عـــنوان: "رؤيـــة إسلامية جديدة للعرب والمسلمين"، حيث أوجز أهم محطات حـــركات التجديد الإسلامي خلال العقود الأخيرة في نهجين للإصلاح دون سواهما: ما يـــصفه بـــــ "الإسلام الوهابـــي"، وشعاره "دعنا نبدأ كل شيء من جديد"[3]،

(1) نستحضر في هذا المقام ما صدر عن طه عبد الرحمن من أن "الأخلاق إنما هي أول الأفعال التـــي تصدر عن ملكات الإنسان، فتكون أكثر من غيرها تغلغلا في الحقيقة الدينية، بحيث لا مجال للانفكاك عنها".
انظر: طه عبد الرحمن. سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية. المركز الثقافي العربي. بيروت. الدار البيضاء، ط1، 2000، ص 25.

(2) مـــشهود ريزفـــي: مكانـــة التـــسامح في الإسلام. ضمن عمل جماعي يحمل نفس العنوان، بمشاركة طارق علي، ميلوت فيورست، جون إسبوزيتو، عقيل بلغرامي، أمينة ودود، مشهود ريزفـــي، عبد الله جان، قمر الهدى، تحرير: جوشو كوهن وإيان ليغ، ترجمة: سامر زيتون، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2006، ص 98.

(3) الإمـــام فيـــصل عـــبد الـــرؤوف: رؤيـــة إسلامية جديدة للغرب والمسلمين، تقديم: كارين أرمـــسترونغ، تـــرجمة: محمـــد فاضل، مراجعة: كمال سيد محمد: مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2008، ص 230.

ويقـــوم علـــى تطبيق أحكام القرآن والسنة كما مارسها النبـــي (ﷺ) في المدينة المنورة في القرن السابع الميلادي، وهي فكرة، برأي الإمام/الباحث "جذابة للمسلم العـــادي، ولكنها مستحيلة من الناحية الفلسفية، بحكم التطورات التي طالت الحياة الإسلامية وقواعد الاجتهاد منذ الحقبة النبوية حتى اليوم"[1]، ثم "النهضة الصوفية"، مـــتوقفا عـــند حـــالات تطبيقية لدور الطرق الصوفية في جمع شمل القبائل العربية والتصدي للاستعمار الأوروبـــي في شمال إفريقيا، وخصّ بالذكر حالات السودان وليبـــيا والمغرب، وهذا عين ما توقفت عنده بعض الأعمال المروجة لآثار التصوف الإيجابـــية علـــى المجـــال الـــتداولي الغربـــي في حقبة ما بعد اعتداءات نيويورك وواشـــنطن، وفي إطـــار الانتـــصار لخـــيار الإسلام التقليدي، إلى تكثيف إصدار الأعمال[2].

حـــري بنا التوقف عند سؤالين اثنين من الأسئلة الموجهة إلى مُروّجي خيار الانتـــصار للإسلام التقليدي، ومرد ذلك، هو الجهر بالانتصار لنموذج "الإسلام التقلـــيدي"، أو "الإسلام الصوفي"، والملاحظ، أن تزايد عدد الأصوات التي تدعو إلى الانتصار لهذا النموذج، يتزامن مع مبادرات غربية، وأمريكية بالدرجة الأولى، لعل أشهرها، تقرير معهد "راند" (Rand Corporation)، والصادر في ربيع 2004، وجـــاء تحت عنوان: "الإسلام المعتدل الشركاء والخطط"، تنص بعض خلاصاته علـــى ضـــرورة الاســـتعانة بالطرق الصوفية، في معرض مجابهة التيارات السلفية

يـــراهن المؤلف في هذا العمل على مطالبة صناع القرار في الضفتين، الإسلامية والغربية، علـــى التسليم بأن تجاوز الأزمات الراهنة يتطلب فتح باب النقد المزدوج للمسلمين (ويتحدث أساســـا عن الأنظمة العربية والإسلامية، إضافة إلى الأدوار المنوطة بأهل الأفكار الطولى)، وللغـــربيين، ويخـــص بالذكـــر الولايات المتحدة الأمريكية، مع رهان المؤلف على استثمار القواسم المشتركة بين القيم الإسلامية والقيم المسيحية/الغربية، وليس خطاب التفرقة والصدام القائم في خطاب المتطرفين من كلا المجالين.

(1) الإمام فيصل عبد الرؤوف: مرجع سابق، ص 232.

(2) نذكـــر مـــن بين الأعمال كتاب: "التصوف الإسلامي في الغرب: الأثر الصوفي المغربي في بـــريطانيا نموذجا" (Islamic Sufism in the West) لمؤلفه عزيز الكبيطي إدريسي. (تمهيد مارسيا هيرمانسن، مديرة برنامج دراسات العالم الإسلامي بجامعة لويولا، شيكاغو، الولايات المـــتحدة الأمـــريكية)، وتقـــديم مـــارك سيدغويك (أستاذ ومنسق وحدة الدراسات الإسلامية والعـــربية بجامعـــة آرهـــوس بالـــدنمارك)، منشورات المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية، فاس، ط1، 2008.

الوهابـــية[1] ضمن تبعات سعي الحركات الإسلامية الراديكالية داخل المناطق التي تمـــتعت فيها بالنفوذ والسيطرة إلى قمع ممارسة الإسلام التقليدي والصوفي، مثلما تجلـــى في تـــدمير الآثار الإسلامية القديمة في السعودية، ونظرا "للاضطهاد الذي يتعرضـــون لـــه على يد السلفيين والوهابيين، يعتبر التقليديين والصوفيين حلفاء طبيعيين للغرب"[2] ونوجز هذه الأسئلة، في ما يلي:

1. إلى أي حـــد يمكـــن الـــرهان على توظيف الطرق والزوايا في الدول العربية والإســـلامية في معـــرض التـــصدي للتيارات السلفية الوهابية، وتحديدا تيار "الـــسلفية الجهادية"، الذي "يقدم مقاربة مقتضبة نسبيا للإسلام، بالإضافة إلى كـــونها تمـــيل إلى الخلط المغلوط والخطير بين الأفكار الإسلامية والعلمانية عبر الاجتهاد"، بتعبير وليد الأنصاري"؟، خاصة وأن هناك مقدمات ميدانية، تخدم أطـــروحة الانتصار لخيار "الإسلام التقليدي"، ومنها بعض الخلاصات الدقيقة

---

(1) حـــيث التمييـــز بـــين أربـــع فئات رئيسية في العالم الإسلامي: الأصوليون (الذين يرفضون الديمقـــراطية ويلـــزمون الناس بتصوراتهم للدين والحياة)، التقليديون (الذين يريدون مجتمعا محافظا ويشككون في الحداثة والتجديد وعمليات تطوير الإسلام من داخل)، العلمانيون (الذين يطالـــبون بالفصل بين الدين والدولة، ويريدون تطبيق النموذج الغربي في العالم الإسلامي)، وأخيرا، الليبراليون (وهم حداثيون يؤمنون بالتغيير شرط أن لا يفرض من خارج)، داعيا إلى تـــشجيع "الطرق الصوفية، ودعم الدول العربية والإسلامية التي تنمي التقاليد الصوفية على التقليد الأعمى للماضي".

انظر:

Building Moderate Muslim Networks, (By Angel Rabasa, Cheryl Benard, Peter Chalk, C. Christine Fair, Theodore W. Karasik, Rollie Lal, Ian O. Lesser, David E. Thaler) Published 2004 by the "RAND Corporation".

وتكـــررت نفـــس التوصـــيات بالتـــرويج للتيارات الصوفية في تقرير آخر صدر عن نفس المؤسسة وجاء تحت عنوان: "بناء شبكات مسلمة معتدلة".

انظر:

Moderate Muslim Networks, (By Angel Rabasa, Cheryl Benard, Lowell H. Schwartz and Peter Sickle). Published 2007 by the "RAND Corporation".

(2) لاحـــظ لمـــبارد أن "نبذ تعاليم الصوفية واجتهاداتهم المتأخرة يُعد من بين أهم الخسائر التي تكـــبدها العالم الإسلامي، باعتبارها حقا جزء أساسيا، مما يجعل أغلب العالم الإسلامي يتسم بـــ "الحداثة".

انظر: جوزيف أ. ب. لمبارد: تقديم كتاب "الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي"، مرجع سابق، ص 109.

الـــتي توصـــل إليها بعض الباحثين، وتتعلق بطباع أهم التيارات الإسلامية في مـــنطقة الساحل الإفريقي، وجاءت كالتالي: الإسلام الصوفي التقليدي (حيث ينتمـــي حـــوالي 51% مـــن سكان السنغال إلى الطريقة التيجانية)، والإسلام الإصـــلاحي (ويعتـــبر الكاتب الحركة الوهابية حركة إصلاح ديني من حيث دعـــوتها إلى تنقـــية الدين مما علق به من شوائب) والإسلام الحركي (نسبة إلى الحركات الإسلامية).

ويـــرتب الكاتـــب أهمية وثقل التيارات سالفة الذكر، عبر وضع الإسلام الطرقـــي (التـــصوف) في الرتبة الأولى، على الأقل من حيث عدد الأتباع المنـــتمين إلـــيه، إذ هـــم الأكثرية من عامة شعوب المنطقة، ويليه الإسلام الإصلاحي، ويضم الطبقات المتعلمة من الذين درسوا في المشرق العربـــي أو الخليج العربـــي، وبعض تلامذتهم المتأثرين بآرائهم، ثم الإسلام الحركي، ويـــضم أقلـــية من الذين أمكن لهم الاتصال بالإسلام الحركي في المشرق العربـــــي أو في المغـــرب أو في أوروبا[(1)]. ومن هنا خلفية حديث زعيم عربـــي أن الاعتداءات التي شهدها بلده العربـــي الإفريقي في نهاية 2007، "لا علاقة لها بثقافة بلده"، لأنها "ظاهرة محدودة جدا"، مضيفا أنه "لا وجود لتنظـــيم للقاعـــدة" في بلـــده، وكون تلك الاعتداءات، لا تعدو أن تكون "حـــالات معزولة فقط"[(2)]، وما يُدعم هذه المزاعم، الغياب الملفت لأسماء موريتانـــية في الخلايـــا الإسلامية المحسوبة على التيارات "الجهادية" التي تم تفكـــيكها في ربـــوع العالم، أو في لائحة الأسماء العربية المتورطة في مجمل

---

(1) محمد شقرون: "الإسلام الأسود.. جنوب الصحراء الكبرى"، دار الطليعة، دمشق، ط1، 2007، ص 103، وصـــدر الكتاب عن "رابطة العقلانيين العرب"، وتسعى – حسب التعريف الوارد في العمل – إلى "نشر الفكر العقلاني النقدي الجذري".

(2) جاء ذلك في تصريح صحافي أدلى به الرئيس الموريتاني في مقابلة مع صحافيين بمكتبه في القصر الرئاسي في نواكشوط، على هامش اعتداءات دموية شهدتها موريتانيا في تلك الحقبة، حيث قتل أربعة سياح فرنسيين عشية عيد الميلاد عام 2007، في جنوب البلاد كما قتل ثلاثة عـــسكريين فـــي 27 كانون الأول (ديسمبر) الموالي في شمال شرق البلاد من قبل عناصر محسوبة على تنظيم "القاعدة".

انظـــر التقرير الإخباري: الرئيس الموريتاني سيدي ولد الشيخ عبد الله: تنظيم "القاعدة" ليس متجذرا في بلادنا، الشرق الأوسط، لندن، 9 شباط (فبراير) 2008.

الاعـــتداءات التي مرت منها المنطقة العربية منذ منعطف تفجيرات نيويورك وواشنطن[1].

2. ما هي طبيعة الأدبيات الصوفية التي يعول عليها التصدي الفقهي لما يصدر عن الحـــركات الإسلامية القطرية، والتي تتنافس ضد السلطة تأسيسا على أدبيات فقهـــية؟ وما هي طبيعة الأدبيات الصوفية التي يعول عليها التصدي الفقهي لما يصدر عن الحركات الإسلامية "الجهادية"؟[2].

نطرح هذه الأسئلة وغيرها، لاعتبارين اثنين:

- أولهمـــا أن بعـــض الباحـــثين المتتـــبعين لمسار الحركات الإسلامية المعتدلة أو "الجهادية"، تعتبر أن "الصوفية فيها من مظاهر الشرك والبدع والضلالات ما لا

(1) لـــم يُذكر اسم موريتانيا في كتاب "القاعدة وأخواتها" في عدد صفحات الكتاب (409 صفحة) سوى مرة واحدة، ليس عبر اسم ذكر جهادي من موريتانيا، وإنما على هامش خوض المؤلف في طرق التمويه الذي كانت تلجأ إليه "الجماعة الإسلامية المقاتلة الليبية"، بهدف إخفاء حقيقة نـــشاطها ووجـــودها في الخرطوم: "كنا نعمل في السودان بهويات غير ليبية. كنا نقول إننا مغاربة، من تونس أو موريتانيا".

انظـــر: كميل الطويل: القاعدة وأخواتها: قصة الجهاديين العرب، دار الساقي، لندن، ط1، 2007، ص 163، وقـــد تكـــون ميـــزة الكـــتاب الأساسية، أنه يعج بالأسماء والمعطيات والتفاصيل اللصيقة بمختلف الحركات الإسلامية "الجهادية"، عبر التوقف عند أهم الرموز وأبـــرز المعتقلـــين الإســـلاميين فـــي ربوع الوطن العربي والعالم الإسلامي، كما لو أننا إزاء "دلـــيل أمنـــي"، ويكـــاد العمـــل يكون المقابل الإعلامي/الاستطلاعي لكتاب الباحث البريطانـــي مارك ساغمان: "أفول الزعامة الجهادية: الشبكات الإرهابية في القرن الواحد والعشرين".

Marc Sageman, Leaderless Jihad: Terror Networks in the Twenty-first Century, Publisher University of Pennsylvania Press, 2008.

(2) يشير تقرير إخباري إلى استفادة الحكومة الموريتانية مثلا، في عراكها مع التيار السلفي، من مـــساندة زعمـــاء الطـــرق الصوفية الذين يعد أتباعهم بالآلاف، والذين يخوضون منذ عقود صـــراعا مذهبـــيا مريرا مع السلفية القادمة من الجزيرة العربية ومع المذهب الوهابي بشكل خاص. وفي نهاية شهر يونيو 2005، استقبل المرابط سيدي محمود ولد الشيخ وزير الداخلية الموريتانـــي، مجموعة من زعماء الطرق التيجانية والقادرية والشاذلية وشرح لهم الموقف، وذكـــر أنهـــم أكدوا له مساندتهم لما تقوم به الحكومة من محافظة على الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية وطريقة الجنيد الصوفية التي تتأسس عليها الطرق الثلاث.

انظـــر: الحكـــومة الموريتانية تصعّد حربها على الإسلاميين مستعينة بقادة الطرق الصوفية المحلـــية، تقريـــر إخـــباري من نواكشوط أعده عبد الله السيد، القدس العربي، 28 حزيران (يونيو) 2005.

يخفى على أحد، وهذه لا تنفع السلفية الجهادية لا بالسياسة ولا بالجهاد، فالأمر أبعد ما يكون عن تمني السلفية أن يكون لمثل هذه الجماعة دور يذكر في شأن الأمة، بل هي خارج حسابات الإسلام والمسلمين"[(1)].

- وثانيها أن "أهل الصفة" أو "الفقراء" في العالم يُروّجون لأثر صوفي شهير جاء فيه أن "حُب السلطة آخر ما يُنزَع من قلب المريد"، وأن "استشراف المريد في أن يعلم الخَلْق بخصوصيته، دليل على عدم صدقه في عبوديته"[(2)].

ونترك مسك الختام لأبرز مبحث عربي أوجز قراءات الأقلام العربية والإسلامية لظاهرة الحركات الإسلامية، ما جاء في خاتمة عمل مرجعي للراحل تركي علي الربيعو، حيث أحصى ثلاثة "مواقف متباينة مضمرة بالكثير من الإيديولوجيا":

- اتجاه إيديولوجي سياسي يجُبُّ ظاهرة الإسلام السياسي بالجملة، فالكل سواسية، إذ هو يرفض ذلك التمييز السائد بين التيار المعتدل والتيار الراديكالي، ونجد ضمن أبرز رموز هذا التيار، نصر حامد أبو زيد.
- هناك في المقابل اتجاه ثاني ينطوي على المراجعة ويتلمس أعذارا بهدف إعادة تأهيل الجماعة من جديد وفتح الباب أمام مجال سياسي يجب إيديولوجيا التكفير، ويبقى أبرز رموزه المحامي منتصر الزيات.
- وأخيرا، اتجاه ثالث، يجعل من إيديولوجيا التكفير جرثومة تخلف أبدي، فإيديولوجيا التكفير ليست حديثة العهد، ولا ترتد إلى التأويلات الخاطئة التي مارسها الراديكاليون الإسلاميون، بل إلى الماضي البعيد ومنذ فجر الإسلام، وبالتحديد مع حروب الردة، وهذا ما يقول به الباحث المغربي

---

(1) انظر نص التقرير الإخباري الذي أعده رئيس تحرير صحيفة "العرب اليوم" الأردنية، متابعة لمحاضرة ألقاها الباحث الأردني أكرم حجازي في موضوع "مدخل إلى السلفية الجهادية ومشروعها الجهادي"، ضمن أشغال ندوة المعهد العربي للبحوث والدراسات الإستراتيجية، والتي عقدت في 11 فبراير 2008، العرب اليوم، عمان، 19 نيسان (أبريل) 2008.

(2) والمقولة محورة عن حكمة عطائية شهرية جاء فيها: "استشرافك أن يعلم الخَلْق بخصوصيتك، دليل على عدم صدقك في عبوديتك". انظر:
"اللطائف الإلهية في شرح مختارات من الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري"، شرحها عاصم إبراهيم الكيالي الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ص 107.

عبد الإله بلقزيز في كتابه "الإسلام والسياسة"، حيث تلتقي وجهة نظره مع قراءات استشراقية سائدة ومع رؤى سياسية تقوم على نفي ظاهرة الإسلام السياسي، ولا حل، مع هذا الاتجاه، إلا عبر إعادة نظر جذرية في تاريخ حضاري بأكمله، أو بجّب الإسلام جملة كما يعلن بعض الحداثيين[(1)] من خلال جبّ النص القرآني، بتعبير إرشاد منجي التي تعتبر أنه بدلا من "أن يكون القرآن كاملا، إنما يخوض حربا لا هوادة فيها مع نفسه حتى أن المسلمين لا خيار عندهم سوى انتقاء ما ينبغي التشديد عليه وما يتعين تمييعه"[(2)].

وقد يكون الاتجاه الذي غفل عنه الربيعو، وغفلت عنه التصنيفات الغربية للتيارات الأكاديمية والإعلامية في معرض تعاطيها مع ظاهرة "الإحيائية الإسلامية"، وغفل عنه الباحث شاكر النابلسي، في ترحاله النقدي المؤدلج مع عدد كبير من المراجع التي تطرقت للظاهرة، يكمن في التيار النقدي الذي ارتحل مع خيار "النقد المزدوج"، أو الخيار الذي كان صوته خافتا بين الأصوات النقدية السائدة في المجال التداولي الإسلامي العربي، حيث كانت الغلبة لخيارات نقد الغير، وتبرئة الذات، سواء كانت الذات عربية/إسلامية أم غربية، ونستحضر من الأقلام المسلمة التي رَوَّجت لحتمية ممارسة النقد الذاتي، ثلاثة نماذج:

- اجتهادات طلال أسد، من خلال عمله القيّم "عن التفجيرات الانتحارية"، والذي أبدع في التوفيق بين نقد أطروحات الحركات الإسلامية "الجهادية" من جهة، بالموازاة مع تسليط الأضواء على التداعيات المؤرقة التي أفرزتها السياسات الغربية (الأمريكية والأوربية) طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين، على المنطقة العربية، بما ساهم عمليا في تغذية الأطروحات "الجهادية"، وهذا معطى قلّما أشارت إليه الأقلام العربية والإسلامية التي تبنت خيار "شيطنة الذات"، ومعها الأقلام الغربية التي صرفت النظر بالكلية عن جسامة السياسات الغربية، مفضلة خيار تبرئة العقل الغربي و"شيطنة العقل الإسلامي".

---

(1) يراجع الفصل الأخير من كتاب "الحركات الإسلامية في منظور الخطاب العربي المعاصر"، تركي علي الربيعو، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط1، 2006.

(2) إرشاد منجي: مرجع سابق، ص 56.

ويعـــج كـــتاب طـــلال أسد بالعديد من الأمثلة المدققة في مسؤولية العقل السياسي الغربـــي المعاصر تُجاه استفحال أوضاع الرقعة الإسلامية والعربية، منها إشـــارته إلى أن "الدعم الفرنسي للانقلاب الذي قمع جبهة الإنقاذ الإسلامية بعد انتـــصاراتها الانتخابـــية في استحقاق 1991، لم يحسم أمر المذابح لاحقا"، أو كون "انبثاق نظام الجمهورية الإسلامية في إيران، رغم أن الفظاعات هناك غير ناجمة عن فعل الدول الغربية، لم يكن بعيدا عن انقلاب وكالة الاستخبارات الأمريكية، بدعم بـــريطاني، الـــذي دشّن ديكتاتورية الشاه في الخمسينيات"، وأخيرا، وليس آخرا، بالنظر إلى سلسلة طويلة من الأمثلة والوقائع التاريخية التي توقف عندها طلال أسد، كون "الحرب على الإرهاب أدت بالتأكيد إلى تزويد العديد من الأنظمة العربية – وخـــصَّ مـــنها مصر – بقدر أكبر من التسويغ للقسوة والتشدد"[(1)]، مستشهدا بما صـــدر عن المعلق الأمريكي جورج باكر في "النيويوركر" من أن الولايات المتحدة اســـتطاعت أن تحـــارب الحركات الجهادية بفضل ديكتاتوريات داعمة ومؤيدة، وبالنتـــيجة، أصبح من "غير المعقول أن يتم الحديث، أكثر من أي وقت مضى، عن الحاجـــة الماسة والطاغية إلى الإصلاح في ما يعرف باسم الحضارة الإسلامية دون القـــيام في الوقت نفسه بإعادة تقويم جملة من المواقف والمؤسسات والسياسات في الـــبلدان الغـــربية"[(2)]، ويكفينا في مقام النقد المزدوج، دلالة إشارة طلال أسد في مقدمة الطبعة اليابانية للعمل، أن كتابه "سيكون في اليابان، وهو بلد قد أخذ قسطه مـــن هول الحرب والخراب المدني الواسع، بلد يعرف معنى الانتحار فعلا من أفعال الحرب، أسهل على فهمه منه في أمكنة أخرى كثيرة"[(3)].

- مـــا صدر عن الأديب الأفغاني عتيق رحيمي (اللاجئ في فرنسا)، في تصريح يوجز بامتياز قراءات النقد المزدوج لممارسات العقل السياسي الغربـــي والعقل الفقهي الإسلامي: "عندما أشاهد الرئيس جورج بوش، يتهيأ لي كما لو كنت أشـــاهد أحد أفلام رعاة البقر، نحن إزاء نفس الرؤية الاختزالية للعالم والتي لا

(1) طـــلال أســـد: عـــن التفجيـــرات الانتحارية، ترجمة: فاضل جتكر، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط1، 2008، ص 46.

(2) طـــلال أســـد: مرجع سابق، ص 46، يراجع على الخصوص الفصل الأول من الكتاب (من ص 33 إلى ص 95)، وجاء تحت عنوان: "الإرهاب".

(3) طلال أسد: مرجع سابق، ص 223.

تـــرى هـــذا العـــالم في غـــناه، وتختـــزل العـــالم كما تختزله قوات طالبان والإيديولوجيات الماركسية اللنينية"[1].

- اعتبار المؤرخ الإيراني إحسان ناغاني، أن العنف الإسلامي القائم اليوم مرده من جهـــة إلى القمـــع السياسي الذي ساد طيلة القرن العشرين في العالم العربـــي والإســـلامي، في مصر وإيران والمغرب والجزائر على الخصوص، حيث السيادة للحزب الوحيد، ومن جهة ثانية إلى الدور الأوروبـــي في تجاهل الغير، كما أن الغطرســـة الإســـرائيلية مـــرتبطة ومؤطـــرة بشكل كبير من الغرب، ولا بد للأمريكيين والأوروبيين أن يمارسوا نقدا ذاتيا لممارسات الماضي وعلاقات اليوم مع اليهود"[2].

وحاصل الكلام في هذا الفصل، أن مسؤولية ممثلي "الأفكار الطولى" المسلمين المقـــيمين في الغرب، كانت مضاعفة مقارنة مع مسؤولية المثقفين العرب والمسلمين المقـــيمين في الـــوطن العربـــــي والعالم الإسلامي، وأنه إضافة إلى مآزق المرجعية الإيديولوجـــية والـــنموذج التفسيري وخطاب الطمأنة وتصدير الأزمات، برزت أصـــوات نوعية تدعو إلى تبني خيار النقد المزدوج والتفكير المبدع والجريء، وعلى "استرداد جوهر الإسلام وربطه بظروف الوقت الحاضر"، بما مهّد لاندلاع ما يُشبه "صـــراعا علـــى الإسلام"، تجلّت أبرز معالمه، في الخلافات الجليّة بين التيار الصوفي والـــسلفي، قامت بتزكيته أطروحات غربية، صادرة عن مراكز بحثية، وأن التركيز علـــى الترويج لنموذج إسلامي مُحدّد، لا يسحب البساط عن التوقف عند أسئلة ملحـــة على العقل الإسلامي الجمعي، تتطلب اجتهادات جماعية، وتطليق احتكار النطق باسم "الحقيقة الدينية".

---

(1) انظر:
Atiq Rahimi, Pour l'Amérique, l'afghan est un taliban. Propos recueillis par Martine Laval et Catherine Portevin, Télérama, Paris, N. 2698, 26 septembre 2001.

(2) Ihsan Naraghi: c'est la répression qui crée l'intégrisme, Propos recueillis par Fawzia Zouari, L'Intelligent, Paris, N. 2128, du 23 octobre au 5 novembre 2001.

الفصل الثالث

المثقفون الغربيون ونقد تنظيم "القاعدة"

بعد أن استعرضنا مواقف الكتاب العرب من ظاهرة الإرهاب، ومواقف كتاب عرب ومسلمين، مقيمين في الغرب، جاء الدور على مواقف واجتهادات بعض رموز الفكر والفلسفة في المجال التداولي الغربي، بخصوص التعامل مع مأزق الإرهاب بشكل عام، وتحديدا ما يصدر عن الحركات الإسلامية "الجهادية".

صدرت لائحة عريضة من المؤلفات الغربية لتقييم تبعات تفجيرات نيويورك وواشنطن، وتقييم الأطروحات "الجهادية"، ونحصي، من باب الاستئناس العناوين التالية لأعمال غربية ترجمت إلى اللغة العربية: "الإسلام السياسي في زمن القاعدة" لفرانسوا بورغا(1)، "الإسلام والعولمة والإرهاب" لستانلي هوفمان وبيير بورديو(2)، و"من مانهاتن إلى بغداد.. ما وراء الخير والشر" لمحمد أركون وجوزيف مايلا(3)، و"عنف العالم" لجان بودريار وإدغار موران(4) و"ماذا حدث في حدث 11 شتنبر؟"

---

(1) فرانسوا بورغا: الإسلام السياسي في زمن القاعدة: إعادة الأسلمة، تحديث، راديكالية، ترجمة: سحر سعيد، دار قدمس للتوزيع والنشر، دمشق، ط1، كانون الأول (ديسمبر) 2006. وصدر الكتاب بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية في لبنان.

(2) ستانلي هوفمان وبيير بورديو: الإسلام والعولمة والإرهاب، ترجمة: عزيز لزرق، الرباط، 2008.

(3) Mohammed Arakoun, joseph Maïla, De Manhattan à Bagdad: au-delà du Bien et du Mal, Editions de Desclée de Brouwer, Paris, 2003.

وصدرت الترجمة العربية للعمل تحت عنوان: من مانهاتن إلى بغداد.. ما وراء الخير والشر. دار الساقي. لندن، ط1، 2008، وبحكم اطلاعنا على العمل في نسخته الأصلية ونسخته المترجمة للعربية، سوف نعتمد في لائحة المراجع على المرجعين معا.

(4) جان بودريار وإدغار موران: عنف العالم، ترجمة: عزيز توما، وتقديم: إبراهيم محمود، دار الحوار، دمشق، ط1، 2005.

لجـــاك دريدا[1]، "القاعدة، وماذا يعني أن تكون حديثة"، لجون غراي[2]، وأخيرا، "نشوء الإسلام السياسي الراديكالي وانهياره" لراي تاكيه ونيكولاس غفوسديف[3].

يمكـــن إيجاز الخطوط العريضة لأبرز الأعمال الغربية التي تطرقت بالنقد والنقض والتقييم لما يصدر عن الحركات الإسلامية، قولا وممارسة، في اتجاهات ثلاثة:

- قراءات مُؤَسَّسة على الرؤى النقدية الاختزالية.
- قراءات ترهن لمنطق الوصاية والنـــزعة المركزية.
- وأخيرا، قراءات تنتصر لحتمية المرور عبر عتبة النقد المزدوج، على غرار ما صدر عـــن أهل الأفكار الطولى في المجال التداولي الإسلامي العربـــي، كما سبق أن أشرنا سلفا في الفصل الأول من هذا العمل.

رفيقنا في هذا الفصل، كتاب "من مانهاتن إلى بغداد.. ما وراء الخير والشر"، والـــذي يوجـــز بعض أبرز القراءات النقدية لأداء الحركات الإسلامية "الجهادية"، وفي طليعتها تنظيم "القاعدة"، حيث اعتبر جوزيف مايلا، أن إسلام "القاعدة" ليس علـــى شـــيء من الإسلام بالنسبة إلى الغالبية العظمى من المسلمين. كما اعتبر أن الوهابـــية تبقى تربة ملائمة لنمو فكر جذري وقتالي، وأن "تمويل شبكة ابن لادن كـــان مؤَمّنا، جزئيا، عن طريق صناديق موصوفة بأنها مبادرات خيرية، والتي كان يملأها التدين النضالي وتحويلات الزكاة. ومع ذلك، فإن القول بأن كل ذلك ساهم في صـــناعة الإرهـــاب هو من قبيل التحليل السريع جدا، إذ لم يكن ممكنا لو أن الغـــرب، والـــولايات المـــتحدة تحديـــدا، لم يتآلف بكل تلك السهولة مع حلفاء إسلاميين جذريين بُغية محاربة الشيوعية في أفغانستان"[4].

---

(1) جـــاك دريدا: ماذا حدث في حدث 11 شتنبر؟ ترجمة: صفاء فتحي، مراجعة بشير السباعي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 2006.

(2) ***John Gray***, Al Qaeda And What It ***Means*** To Be ***Modern,*** Faber and Faber; London, 2007.

(3) راي تاكيه ونيكولاس غفوسديف: نشوء الإسلام السياسي الراديكالي وانهياره، ترجمة: حسان بـــستاني، دار الـــساقي، لندن، ط1، 2005، وتتأسس أهم خلاصات هذا العمل على الانتصار لطرح ثانوية الدور الذي أصبحت تقوم به الحركات الإسلامية في الرقعة العربية والإسلامية، أو أنهـــا تـــسعى فـــي ظل قيادات أكثر اعتدالا إلى التكيف مع النموذج الديمقراطي الغربي وإيديولوجيات السوق الحرة، في الأساس، للترويج للتعددية في السياق الإسلامي.

(4) Mohammed Arakoun, joseph Maïla, De Manhattan à Bagdad, op. cit., p. 143.

نحن إزاء يوتوبيا خطيرة في الوقت نفسه قراءة للنصوص المقدسة بقدر ما هي عملية لبناء إيديولوجي يستمد مبرراته من الوقائع السياسية في الفترة الراهنة، مدققا في أهـــم المآزق التي تواجه الحركات الإسلامية، وموجها لائحة من الأسئلة الحرجة للناطقين باسم العقل الإسلامي الرسمي والحركي: "ما الذي ينبغي للإسلام المعاصر أن يقـــوله عن هذه النسخة من الإسلام؟ وما الذي يمكن للمسلمين أن يقولوه عما فُعِل بالإسلام، وعما دُفِع الإسلام إلى فعله وقوله من خلال العمل والتصور اللذين أسبغتهما عليه القاعدة؟"[1].

أما أوليفيه روا، الباحث الفرنسي الذي حظي بالسبق الأكاديمي بالحديث عن "فشل الإسلام السياسي"[2]، واعتبر أن "الرؤية المانوية ("للجهاديين")، تجسد قاسما مـــشتركا مـــع الأطـــروحات النقدية الصادرة عن منتقدي العولمة، لولا أن رؤى "الجهـــاديين" تقودهم نحو بناء بديل إسلامي في المتخيل"، ملفتا النظر إلى أننا إزاء "أصـــولية نتاج وفاعل في العولمة الراهنة في آن، لأنها تمحو الثقافات الأصلية دونما أدنى حنين، وتسعى في المقابل إلى التأسيس لهوية دينية كونية، على أنقاض الثقافات المحلية"[3].

المبحث الأول: قراءات النقد الاختزالي

نقـــصد بقراءات النقد الاختزالي، القراءات التي حازت على نسبة الأسد في لائحة الرؤى الصادرة طيلة سنين بعد منعطف تفجيرات نيويورك وواشنطن، والتي ســـقطت في فـــخ منهجـــي يصفه المفكر الموسوعي الراحل عبد الوهاب المسيري بـــــ "النموذج التفسيري الاختزالي"، (مقابل "النموذج التفسيري المُرَكَّب"، كما أشرنا سلفا في الفصل الأول).

يقـــف عـــراب المستـــشرقين الأبرز، برنارد لويس على رأس قائمة مروجي الأطـــروحات الاختزالية، كما تطرق إلى ذلك في عملين مرجعيين: "أزمة الإسلام" (The Crisis of Islam)، و"مـــاذا أصـــاب الإسلام" (What Went Wrong?)،

---

(1) Mohammed Arakoun, joseph Maïla, De Manhattan à Bagdad, op. cit., p. 156.
(2) Olivier Roy, L'Echec de l'Islam politique, Paris, Le Seuil, 1992.
(3) Olivier Roy, Globalised Islam: The Search for a New Ummah, London, Hurst and Company, 2004, p. 25.

وبـــصرف النظر عن خلفيات ودلالات تبنيه خيار شيطنة الوهابية، حيث خصص فصلا كاملا في كتابه هذا للتحالف بين النظام السعودي والعقيدة الوهابية.

يـــصطدم المتلقـــي العربـــــي والمسلم بما يُشبه "الصراع الأكاديمي على تقيـــيم الوهابية" بين ما صدر عن برنارد لويس الذي يُخصص فصلا كاملا في "شـــيطنة الوهابـــية" في عمله هذا، مقابل ما صدر عن المؤرخ الفرنسي شارل ســـانت بـــرو، الذي خصص فصلا كاملا أيضا هو الآخر، ينتصر فيه للوهابية باعتـــبارها "حـــركة دينـــية إصـــلاحية ومجددة أكثر منها إيديولوجية طائفية متشددة"[1].

علـــى صـــعيد آخر، يضيف لويس أن التحالف جاء رد فعل على التطورات التاريخـــية الـــتي مـــرت منها المنطقة[2] و"تعبير على رفض الحداثة"[3]، أو احتقاره للإســـلاميين عمـــوما وتركيـــزه أكثر على التحذير من ثقل "نسبة غير هينة من المـــسلمين، ليسوا بالضرورة أصوليين، هم عداونيون ويمثلون خطرا للغرب، ليس لأننا في حاجة إلى صناعة الأعداء – بعد انهيار الاتحاد السوفياتي – ولكن لأنهم فعلا كـــذلك"[4]، فـــإن الخـــيط الناظم لأطروحات لويس كونه يذهب بعيدا في نقد النـــصوص الإســـلامية (المقدسة عند المسلمين، أو المؤسسة عند الأقلام الحداثية)، وليس التيارات الإسلامية[5].

---

(1) انظـــر: الـــباب الثانـــي من كتاب "مستقبل الإسلام بين الثورة والتغريب"، وجاء الباب تحت عنوان: "الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأصول الإصلاح"، من ص 239 إلى ص 356.
Charles Saint-Prot. Islam: l'avenir de la Tradition entre révolution et occidentalisation. Editions du Rocher, Monaco, 2008.

(2) Bernard Lewis. L'Islam en crise, Editions Gallimard. Paris 2003. traduction française du livre The Crisis of Islam, Holy War and Inholy Terror, p. 138.

(3) Bernard Lewis, L'Islam en crise, op. cit., p. 137.

(4) Bernard Lewis: L'Islam en crise, op. cit., p. 52.

(5) ضـــمن القراءات العربية النقدية التي يصدق تصنيفها ضمن خانة "العمالة الحضارية" بتعبير المفكـــر المصري أنور عبد الملك، نقرأ للباحث حمادي الرديسي، مبحثا مرجعيا في شيطنة الـــذات الإســـلامية، كمـــا جاء في كتابه الموسوم: عقد نجد: كيف الإسلام الطائفي إسلاما؟، مُخصّصا فصلا كاملا (من ص 9 إلى ص 34) حول مفهوم "الطائفية الأرثوذكسية".
انظر:
Hamadi Redissi. Le pacte de Nadjd. Ou comment l'Islam sectaire est devenu l'Islam, Editions du Seuil, Paris 2007.

نجد من مروجي الأطروحات الاختزالية في المجال التداولي الفرنسي، الباحث الفرنـــسي برونو إيتيان، والذي إضافة إلى تخصصه في شؤون شمال إفريقيا، وعلى غـــرار جـــيل كيبـــيل وفرانـــسوا بورغا وأوليفيه روا، يعتبر من زمرة الباحثين المتخصـــصين في ملـــف الحـــركات الإسلامية، ويسحب إيتيان البساط عن ثقل الأسباب الخارجية في ظهور الحركات الإسلامية "الجهادية"، كما نطلع على ذلك في كـــتابه المرجعـــي في هذه الرؤى، ويحمل عنوان: "المقاتلون الانتحاريون"[(1)]، ويـــتمحور حـــول المخـــيال الإسلامي و"العشق الانتحاري" وفشل الإسلاميين الـــراديكاليين، والحـــق أن الـــباحث اجتهد أن يضع منفذّي اعتداءات نيويورك وواشـــنطن في ســـياق طويل من العنف: في "إطار اضطهاد ما قبل الاستعمار"، الحـــروب وعمليات الاجتياح الاستعمارية (حيث كانت الآذان والخِصي تُجمَع بنوع من التباهي بالانتصار من قبل الفرنسيين)، العنف الكولونيالي (الذي كتب عـــنه فرانـــــز فانـــون)، حروب التحرر من الاستعمار، وحشية أنظمة الحكم الديكـــتاتورية (القومـــية منها والإسلامية على حد سواء)؛ وأخيرا، العنف الذي يمارسه الجيش الإسرائيلي، مثل إيجاد دولة إسرائيل، ضد الشعب الفلسطيني الذي قامت هذه الدولة على حسابه، لولا أن تركيزه على النظر إلى "العنف الإسلامي بوصـــفه لغزا يتطلب تفسيرا خاصا، في الحقيقة، إلى صرف القارئ عن التنبه إلى مركـــزية العنف والقتل في السياسة كلها، بما فيها السياسة التي يثمنها الليبراليون أنفسهم ويدافعون عنها"[(2)].

يمكـــن تـــصنيف القراءات التفسيرية التي ارتأت إسقاط الخيار العدمي على خـــيارات الإسلاميين "الجهاديين"، ضمن النماذج التفسيرية الاختزالية، لاعتبارات عدة، أنها تسحب البساط عن لائحة من المقدمات/الأسباب الذاتية والموضوعية التي تقـــف وراء صعود نجم الحركات الإسلامية المتشددة، والتي تبنت خيار العنف ضد السلطات الزمنية الحاكمة في الوطن العربـــي والعالم الإسلامي، كما لو أن مقارنة التطـــرف الإســـلامي بالتطرف الفوضوي الأوروبـــي الذي برز في القرن التاسع

(1) Bruno Etienne, Les combattants suicidaires, Editions deloup, 2005.

(2) طـــلال أســـد: عـــن التفجيـــرات الانتحارية، ترجمة: فاضل جتكر، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط1، 2008، ص 144.

عــشر"[1]، يشفع للمتلقي الغربـي لأن يوقع نهاية تداعيات الصدام القائم بين السـياسات الغربية والحركات الإسلامية المتشددة، ولعل أبرز رموز "التفسير العدمـي"، المفكر الفرنسي أندريه غلوكسمان، ومؤلف كتاب مرجعي في هذا الـنمط التفـسيري، ويحمـل عنوان "دوستويفسكي في مانهاتن"[2] ويرى أن ابـن لادن ومن معه أناس عدميون على طريقة الروس الذي برع دوتسوفسكي في وصفهم من خلال رواياته "دوستويفسكي في مانهاتن"، والحق، والكلام هذه المـرة للـباحث السوري هاشم صالح، أن الإسلاميين الجهاديين "هم أبعد ما يكونون عن العدمية لسبب بسيط هو أن الشك لا يمكن أن يدخل إلى قلوبهم أو يخطر على بالهم لحظة واحدة. على العكس فهم ذوو يقين مطلق وعدواني، و لم يدرسـوا ديكـارت في حياتهم لكي يراجعوا أنفسهم أو يحاسبوها ولو قليلا، وبالـتالي تنطـبق عليهم كلمة نيتشه التي يقول فيها: ليس الشك وإنما اليقين القطعي هو الذي يقتل، فإذا كنت أشك في معتقداتي أو صحة آرائي ولو قليلا، فمـن المستحيل أن أقدم على قتل الآخرين أو سفك دمائهم بمثل هذه السهولة واللامسؤولية"[3].

نجـد ضـمن مروجي نفس الأطروحات المؤسسة على "الحل العدمي لدى الإسـلاميين الجهـاديين"، باسكال بروكنير، الباحث الفرنسي، ويرى أن "الخلايا النائمة المحسوبة على شبكة ابن لادن لا تعج بأعضاء مؤمنين، وإنما بعدميين"[4].

---

(1) James Fallows, Cinq ans après. Et si on déclarait la victoire au terrorisme. In Le courrier International. Paris. N. 827, du 7 au 13 septembre 2006.

(2) André Glucksmann, Dostoïevski à Manhattan, Robert Laffont, Paris, janvier 2002.

(3) يـرى الباحث السوري هاشم صالح أن "تحليل كيبل لظاهرة الأصولية أكثر إقناعا بكثير من تحليل أندريه غلوكسمان. وهنا تكمن فائدة الاختصاص أو التخصص في دراسة موضوع ما. ومعلـوم أن كيبل ما انفك يتعمق في دراسة الظاهرة الأصولية منذ ثلاثين عاما وحتى الآن، ولذلك تجيء أبحاثه ناضجة أكثر فأكثر كل مرة"، انظر: هاشم صالح. جيل كيبل.. ونصوص "القاعدة"، الشرق الأوسط، لندن، العدد 9792، 19 أيلول (سبتمبر) 2005، وما لم يتطرق إليه هاشـم صـالح أن النموذج التفسيري الذي يعتمده كيبل وغلوكسمان، حتى لا نضيف أسماء عـربية وإسـلامية، يبقـى اختزاليا بشكل لافت، مقارنة على الأقل، مع ما صدر عن جون إسبوزيتو وفرنسوا بورغا مثلا.

(4) Pascal Bruckner, Tous coupables? Non, Le monde, Paris, 26 septembre 2001.

امتلك الأديب الإسباني ميشيل ديل كاستيلو، شجاعة مشهودة لنقد أطروحة أندريـــه غلوكسمان حول العدمية، معتبرا أنها تشرعن طرد فئة من البشر من النوع الإنساني، وكون "العدميين الذين تحدث عنهم دوستوفسكي، كانوا ملحدين، بخلاف العدميين الذين يتحدث عنهم غلوكسمان، من نموذج ابن لادن ومن معه"(1).

يمكننا إدراج القراءات المشيطنة للوهابية وللإسلاميين "الجهاديين" ضمن نفس الخانة الاختزالية، ونجد في مقدمة الأسماء الأوروبية في هذا الصدد، أعمال ومقالات ألكـــسندر ديـــل فال، مؤلف كتاب "الإسلاميون وأمريكا: تحالف ضد أوروبا"، ويعتبر هذا الكتاب نموذجا تطبيقيا في عقلية المؤامرة والشيطنة المطلقة للآخر المسلم والعربـــــي، ونقرأ ضمن عناوينه الفرعية: "استمرار الاستراتيجية الأمريكية الموالية للإســـلام الـــسياسي بعد سقوط جدار برلين"، "الاستراتيجية البوسنية: نحو دولة مـــسلمة مـــساندة لأوروبا"، "استراتيجية بطون العالم الرخوة الأمريكية"، "روسيا وأوروبـــا في مواجهة التهديد التركي الإسلامي"، "الانضمام التركي لأوروبا: نهاية أوروبا"(2).

ويمكن إضافة أعمال ومقالات ألكسندر أدلر، مدير أسبوعية "البريد الدولي"، وأحـــد أبـــرز المؤيدين للسياسات الإسرائيلية في التعامل مع قضايا منطقة الشرق الأوســـط، على غرار برنار هنري ليفي أو أندريه غلوكسمان أو آلان فنكلروت، ويذهب أدلر إلى تشبيه الحركات الإسلامية إجمالا، وليس فقط الحركات الإسلامية المتشددة أو "الجهادية"، بأنها "تحيلنا على ما ميَّز النازية، حيث الحقد على الحريات، كره المرأة واليهود، تمجيد العنف، والولع المضطرب بالانتحار"(3)، أما برنار هنري ليفـــي، فينتصر جليّا "للتصنيفات التي يُرَوِّجها الطاهر بن جلون حول الإسلام، بين إســـلام متشدد، أسود وقاتل يفرز طالبان ويحكم في السعودية، وبين إسلام متنور، في حرب ضد الأول، غني بالتقاليد"(4).

(1) Michel Del Castillo, Je suis un musulman, Le monde, Paris, 18 janvier 2002.

(2) Alexandre del val, Guerres contre l'Europe, Editions des Syrtes; Paris, Octobre 2001.

(3) Alexander Adler, De si proches parents, In Le courrier International, Paris, N. 575, du 8 au 14 novembre 2001.

(4) Bernard-Henry Levy, Quand Tahar Ben Jelloun explique l'islam aux musulmans et aux autres, Le point. Paris, N. 1531, 18 janvier 2002.

وقد يكون التصريح التالي الصادر عن زبيغنيو **بريجنسكي**، الذي عمل مستشارا للأمـــن القومي في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، أبرز الأمثلة الجلية علـــى النـــزعة المركزية المترسخة لدى بعض المؤثرين في صناعة القرار الغربـــي: "الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي تقدر على الفعل والقصف على الصعيد العالمـــي"(1) وبحكم أن "الإرهاب ظاهرة أكثر جدية من أن يُترك أمر التعامل معها للـــسياسيين"(2) من جهة، أو لأنه من جهة ثانية، "منذ 11 أيلول (سبتمبر)، أنه "لم يعد مسموحا للبلدان البعيدة أن تواجه وحدها الفوضى، طالما أصر الأغنياء والذين يعـــتقدون أنهـــم في مأمن، على أن يزدادوا غنى وأمنا"(3)، وما دام العقل السياسي الغربـــي، يرتهن لأطروحات مراكز الدراسات وخزانات الأفكار (Think Tank)، فإنه غالبا ما نجد التأسيس الأكاديمي لهذه التصريحات في أعمال مفكرين وباحثين، ونستحـــضر في هـــذا الـــصدد، الخدمات الاستراتيجية التي قدمتها أعمال "صدام الحـــضارات" للراحل صامويل هنتنغتون، أو "نهاية التاريخ" لفرانسيس فوكوياما، والمـــندد بـــ "الرجعية الإسلامية ضد الحداثة"، و"عدم قدرة القيم الإسلامية على ملاءمة النـــزعة الاستهلاكية"، تجسد "عدوا رئيسيا"(4).

في المجـــال الـــتداولي الأوروبـــــي، والفرنسي تحديدا، نقرأ استعلاء أوليفيه مـــونغان، أحـــد أقطـــاب شهرية "إيسبري" الشهيرة، مفاده أن "القيم الديمقراطية الكونـــية، الـــتي ولدت في الحضن الأوروبـــي، تفرض على أوروبا الترويج لعقل هندســـي وتـــأطير مؤسسات تروج لهذه القيم على الصعيد العالمي"(5)، أو دعوة أوليفيه مونغان، من أن "الاحتلال العالمي الجديد" ليس وليد اليوم، يضيف مونغان،

(1) Zbigniew Brzezinski, L'Express, Paris, 27 Décembre 2001, (propos recueillis par Philipe Coste).

(2) بتعبير الكاتب والصحافي الأمريكي بول ستاروبان. انظر:
Paul Starobin, The French were right, National Journal, Washington, 7 Novembre 2003.

(3) Zygmunt Bauman, Guerres de reconnaissance sur la frontière planétaire, (Wars of recognition along the global border), Zygmunt Bauman. Esprit, Paris, décembre 2002.

(4) Francis Fukuyama, Le choc de l'Islam et de la modernité, Le figaro, Paris, 26 novembre 2001.

(5) Olivier Mongin, Une nouvelle "grammaire des civilisations", Le Monde, Paris, 3 octobre 2001.

ولكـن السـيناريو الـذي يقوم على أساس الاعتقاد بأن التهديد يأتي من مصدر خارجـي، أجنبـي، هـو اعتقاد مغلوط لأنه يتغذى من وهم، مفاده أنه يمكننا اجتـثاث العـنف الإرهابـي من الداخل[1]، أو الإقرار الآخر لآلان جرار سلامة "الدول الغربية في معرض تقديم المساعدات المادية للدول السائرة في طريق النمو أن تكـون مـشروطة بالانخراط في القيم الديمقراطية، لأن هزيمة النموذج الأكثر تخلفا للأصولية الإسلامية، يحتم على المسلمين الانخراط في الحديثة، في انتظار الإيمان بقيم الديمقـراطية الـتي ستصبح تحصيل حاصل في هذه الحالة"[2]، في تماهي ملفت مع "وصايا" برنارد لويس، التي مرّرها في شكل خيارين أمام الدول العربية والإسلامية في مـنطقة الـشرق الأوسـط؛ إما الانخراط في صراع ضد الغرب، باسم تطبيق الشريعة، وإما الاعتراف بأن الأزمات الراهنة تتطلب الانفتاح أكثر على قيم الحرية والديمقراطية"[3].

إذا كـان تمرير خطاب الوصاية والاستعلاء منتظرا من أسماء أوروبية من طينة أوليفيه ومونغان آلان جرار سلامة وألكسندر ديل فال وغيرهم كثير، فإن المـثير كـان انخراط باحث اشتهر لدى المتتبعين العرب بالاشتغال على ملف الحـركات الإسلامية، في تمرير نفس الأطروحات الاستعلائية، عبر سحب أي مسؤولية عن العامل الخارجي/الموضوعي في صعود الحركات الإسلامية المتشددة أو "الجهادية"، وعبر التقليل من شأن الخدمات الاستراتيجية التي جسدتها أعمال هنتنغتون وفوكوياما، ملاحظا أن "مفارقة خطاب صدام الثقافات وحتى صدام الحضارات، كونها غير قائمة بتاتا مع ما يصدر عن ابن لادن والملا عمر، باعتبار أنهمـا مـن أبـرز رموز "الأصولية الجديدة"، لأنهما يساهمان في تدمير الثقافة الإسـلامية، خاصة أن ما قام به الملا عمر، الذي يُضحي ببلد كانت الولايات المـتحدة علـى وشك الاعتراف بها في حال تسليم ابن لادن، يُعتبر دليلا على القطيعة التي يجسدها مع الواقع، واستحالة التعايش مع الحياة"، وكون ابن لادن

---

(1) Olivier Mongin, Sous le choc, Fin de cycle? Changement d'ère, Esprit, Paris, N. 278, Octobre 2001, p. 2.

(2) Alain-Gérard Slama, Le pari de la modernité, Le figaro, Paris, 19 novembre 2001.

(3) Bernard Lewis, Free at last? In Foreign Affairs, March-April 2009.

والملا عمر، هما نذر ثقافة الموت، وهما أبعد عن تمثيل "صدام الحضارات"، لأنهما يقتلان حضارتهما[1].

أما مرد "الإثارة" في قراءة أوليفيه روا للظاهرة، فيمكن أن نوجزه في معطيين اثنين:

أولهما أن الباحث يُعتبر عند صناع القرار السياسي والأمني في الوطن العربي والعالم الإسلامي، من "الخبراء الغربيين" الأكثر رصانة وجدية في فهم الظاهرة الإسلامية الحركية، فيما يُشبه تكريسا لمنطق تخلي العرب والمسلمين عن "الملكية الفكرية للإسلام"، بتعبير أحد الباحثين العرب المقيمين في الولايات المتحدة، ويقصد به مفارقة وجود العديد من "هؤلاء الأكاديميين الغربيين الذين يديرون برامج الدراسات الإسلامية، والذين يجهلون اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم وهو أساس الإسلام كدين، يتم تمويل برامجهم بالمال العربي"[2].

- وثاني هذه الأسباب، كون أوليفيه روا محسوب أصلا على مجال تداولي أوروبي، عُرِف عنه، مقارنة مع المجال التداولي الأمريكي في معرض قراءة الظاهرة الإسلامية الحركية، أنه كان "أكثر تفهما للظاهرة الإسلامية، وذلك بسبب الوعي الاستعماري بمنطقة الشرق الأوسط، وضعف اللوبي الصهيوني في تلك الساحة"[3].

---

(1) يرى أوليفيه روا أن "انحراف الملا عمر، الذي يضحي بمستقبل دولة كانت معرضة لأن تصبح معترفا بها في حال تسليمه أسامة بن لادن، تعبير عن تطليق للعالم الفعلي، ومن التصالح مع الحياة". ويضيف روا، أن "التأسيس لهوية إسلامية يمر حتما عبر نفي مفهوم الثقافة، إذا كانت سابقة للدين، كما هو الحال مع البوذية في أفغانستان".
انظر:

Olivier Roy, L'Islam de Ben Laden, Le nouvel observateur, Paris, Hors-série N. 46 sous le thème: La guerre des dieux; Janvier 2002, p. 23.

(2) في نبرة نقدية ساخرة، يضيف الباحث أننا "نفخر بالاحتفالات المبهرجة التي تقيمها بعض الجامعات الغربية لعظماء القوم عندنا، تبهرنا حفلات الشاي وتسعدنا درجات "الدكتوراه" الفخرية، ونخرج من جيوبنا "شيكات" لتمويل الجهل الغربي فيما يخص ديننا وثقافتنا".
انظر: مأمون فندي: هل تخلينا عن الملكية الفكرية للإسلام؟ الشرق الأوسط، لندن، العدد 10905، 6 تشرين الأول (أكتوبر) 2008.

(3) أحمد يوسف: مستقبل الإسلام السياسي: وجهات نظر أمريكية، إعداد: أحمد يوسف، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط1، 2001، ص 20.

وفي معرض اختتام الأمثلة المُجسّدة للقراءات الغربية الاستعلائية والاستفزازية، لـــن نجد أفضل مما صدر عن الإعلامية الإيطالية الشهيرة، أوريانا فالاتشي، مؤلفة الكتاب/الضجة: "الغضب والكبرياء" المسيء للإسلام، حيث تصف المسلمين بأنهم "يتكاثـــرون كالجرذان"، وتُشبّه المسلمين (وليس الإسلاميين) بـــ "النازيين"، ولا تتردد في مؤاخذة الكنيسة الكاثوليكية وإيطاليا وفرنسا على موقفهم "المتسامح مع معانـــاة الفلـــسطينيين"[(1)]، لـــولا أن الأمر في الحالة الراهنة، لا يتعلق فقط بمعاناة الفلـــسطينيين، والـــتي قد يوضع لها حد إذا افترضنا جدلا أن تم التأسيس لمشروع سلام حقيقي في المنطقة، وإنما غالبا ما يتم إغفال تبعات أصناف أخرى من المعاناة في مـــناطق شتى من العالم الإسلامي، وخاصة في "يوغوسلافيا السابقة والكوسوفو والجزائـــر وأفغانـــستان"، حـــيث نجد أنفسنا "إزاء ذاكرة سحيقة لثقافة أو أديان مقمـــوعة، تقـــف وراء العـــودة التـــراجيدية لأعمال العنف والمذابح والإرهاب الانتحاري"[(2)].

لم تقف عقلية الوصاية والنـــزعة المركزية لدى الأقلام الغربية عند مرتبة تمرير دروس سياســـية في تـــصدير الديمقـــراطية وتذكير "الرجل الغربـــي" بسمو تأدية "مهامـــه الحـــضارية"، وإنمـــا امتدت إلى مرتبة مطالبة المسلمين بالارتهان لنصائح وتوجيهات الأقلام الغربية فيما يتعلق بطبيعة القيم الإسلامية المفروض على المسلمين تبنـــيها في حقـــبة ما بعد منعطف تفجيرات نيويورك وواشنطن، إلى درجة صدور أعمـــال تنتصر لنمط إسلامي معين دون سواه، قد يكون أهمها، كتاب الباحثة آن ماري دولاكومب، ويحمل عنوانا دالا: "صوفي أو مفتي: أي مستقبل للإسلام"[(3)]، حـــيث تنتصر المؤلفة لخيار الإسلام الطرقي، أو الصوفي، تأسيسا فقط على أعمال محيي الدين بن عربـــي، وفي مقدمتها "الفتوحات المكية"، مدققة على الخصوص في

---

(1) انظر:

Oriana Fallaci, Moi, je dis que notre culture est meilleure, In Le courrier International, Paris, N. 575, du 8 au 14 novembre 2001.

ويراجع على الخصوص كتابها المستفز:

Oriana Fallaci, ***La rage*** et l'orgueil, Plon, Paris, 2002.

(2) Michel Maffesoli, L'avènement du tragique, Le Figaro, Paris, 28 Décembre 2001.

(3) Anne-Marie Delcambre, Soufi ou Mufti? Quel avenir pour l'Islam? Editions de Desclée de Brouwer, Paris, 2007, préface de Daniel Pipes.

الـــدروس الغربية التي يمكن استخلاصها من هذا العمل، عندما نصح ابن عربـــي أميرا سلجوقيا بأن يتعامل مع المسيحيين باعتبارهم أهل ذمة[1].

ولعل تحرير دنيال بايبس مقدمة هذا العمل، توجز أهمية هذا العمل، المؤسَّس علـــى نـــــزعة غربية استعلائية، ولو أنه يؤاخذ على دولاكومبر عدم التفريق بين الإســـلام والحركات الإسلامية، مقابل مطالبته "الحكومات الغربية بضرورة التفريق بـــين الإســـلاميين والإســـلام المعتدل، عبر قمع الأول وتشجيع الثاني"، أو إقراره الاســـتعلائي الآخــــر، ومفـــاده أن "نمط الإسلاميين يهدد نمط عيش الأمريكيين والغـــربيين"، مع أنه علميا، وتأسيسا على أدبيات رموز الدفاع على البيئة، ومنهم نائب رئيس أمريكي سابق، آل غور، أصبح نمط العيش الغربـــي المادي هو المهدد الأول لنمط العيش في العالم بأسره.

ولكي نستوعب بعض مقدمات تصنيف دانيال بايبس في أعلى سُلّم الخطاب الغربـــي الاستعلائي، وتمرير قراءات تمارس الوصاية على العقل الإسلامي المعاصر، في تفـــرعاته الـــرسمية والإيديولوجية والمستقلة، أو "النظرية"، علينا أن نأخذ بعين الاعتـــبار أن بايبس الذي تم تعيينه من قبل الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش مديرا لـــ "معهد السلام"، يقف وراء إلغاء تأشيرة دخول التراب الأمريكي لطارق رمـــضان، المفكـــر السويـــسري من أصل مصري، والذي دعي للتدريس بإحدى الجامعـــات الأمـــريكية، بحجـــة أنه "متطرف مستتر، ومن أنصار تنظيم "القاعدة" وأســـامة بـــن لادن"، كتحصيل حاصل للمهمة الأكاديمية التي يُشرِف بايبس عبر شـــبكة الإنترنت، من خلال إشرافه على "كامبوس ووتش" (Campus Watch) الذي يراقب ويتابع ما يصدر عن دراسات الشرق الأوسط والإسلام في الجامعات الأمـــريكية، وتقيـــيم كتاباتهم، بهدف إدانة كل عمل أكاديمي يسيء إلى الولايات المتحدة وإسرائيل.

ولا نجـــد أبـــرز استشهاد من عقلية الوصاية التي يمارسها بايبس على العقل الإســـلامي المعاصـــر، مـــن دعوته للمسؤولين الأمريكيين تولي مهمة "تغيير رؤى المـــسلمين لدينهم"، ولو أن العملية الحضارية والاستراتيجية، "تمر عبر عدة عقبات

(1) Anne-Marie Delcambre, Soufi ou Mufti? op. cit., p. 199.

وأسئلة، لأن مساعدة المسلمين المعتدلين شيء، وتحديد هذه الفئة، شيء آخر"[(1)]، وقبل التفكير في معالم هذه المساعدة، المُنظّر لها أكاديميا، يجب أولا على صناع القرار في البيت الأبيض الاقتناع بأن "مهمة الأمريكيين لا تقتصر فقط على التأثير على المجتمعات الإسلامية، وإنما الإسلام ذاته، عبر مجهود ضخم ومتصاعد في الإصلاح الإسلامي، عبر تمويلات سرية لمشاريع إعلامية وتنقيح المناهج الدراسية، وتأسيس مراكز للفكر الإسلامي، وغيرها من المبادرات التي تشجع تيار الإسلام المعتدل"[(2)].

أما أصول النزعة الاستعلائية الغربية، بالصيغة التي نستشفها في أعمال بايبس وكابلان وغيرهم من الأكاديميين والباحثين الغربيين، فنطلع عليها في أحد الأعمال الرصينة التي حررتها الباحثة الفرنسية صوفي بسيس في كتابها القيّم "الغرب والآخرون: تاريخ سيطرة، عندما توقفت عند مزالق حقبة "عصر الأنوار" الذي "لم يسلم من النزعة العنصرية البغيضة، بحيث أن الحديث عن عالمية الحقوق الإنسانية كانت تهم فقط الرجل الأبيض، قبل مجيء النظرية العلمية التي تتحدث عن سمو هذا الرجل الأوروبي الأبيض من أجل الدفاع عن مصالحه وتغذية شهيته الاستعمارية وهو في كامل قواه العلمية. من أجل جعل العالم أكثر تحضرا، وبالتخلي عن النزعة الإنسانية، أصبح الرجل الأوروبي الأبيض يعتبر نفسه الحارس الخاص لهذه النزعة"[(3)].

من تجليات الدعوة إلى تبني قيم إسلامية جديدة، لاحظ المتتبع العربي فورة في المتابعات الإعلامية الغربية التي تقدم بعض الأقلام العربية والإسلامية، باعتبارها حاملة لواء نهضة العرب والمسلمين دون سواها، أو "الإصلاح الديني/الإسلامي"، بتعبير عنوان ملف خصصته إحدى الأسبوعيات الفرنسية، وخصت بالذكر تحديدا: نصر حامد أبو زيد (ووصف في ورقة تعريفية بـ "شهيد الحداثة"[(4)]، محمد

(1) Daniel Pipes, Washington Finally Gets It on Radical Islam. FrontPageMagazine.com. April 25, 2005.

(2) David E. Kaplan, Hearts, Minds, and Dollars, Us News and World report, April 17th 2005.

(3) Sophie Bessis, L'Occident de l'Orient, Le nouvel observateur, Paris, Hors-série, N. 46 sous le thème: La guerre des dieux, Janvier 2002, p. 24-25.

(4) Catherine Farhi, Nasr Abou Zeid: Le martyre de la modernité, Le Nouvel Observateur, Paris, N. 1967, du 18 au 24 Juillet 2002.

الـــشرقي، عـــبدو فيلالي الأنصاري (وصفته الأسبوعية بالفيلسوف المسلم الأكثر تجــسيدا لتـــيار النـــزعة الإنسانية")، عبد الوهاب المؤدب، مؤلف كتاب "أمراض الإسلام"[1]، طارق رمضان، محمد الطالبـــي، (قبل صدور مؤلفه الانقلابـــي الذي يحمل عنوان "ليطمئن قلبـــي")، وطبعا، محمد أركون[2].

في حين، أورد جون إسبوزيتو أسماء أخرى، أقل تشددا إيديولوجيا مقارنة مع الأسمـــاء سالفة الذكر، تأسيسا على انتمائه لتيار نقدي غربـــي أنصف أبناء المجال الـــتداولي الإســـلامي العربـــــي، حيث خصّ بالذكر كلا من أنور إبراهيم (من ماليـــزيا) ومحمـــد خاتمي (من إيران) وعبد الرحمن واحد (من إندونيسيا)، واصفا إيـــاهم بـــأنهم "أصوات تدعو للإصلاح الإسلامي، وهم يكشفون أنه ليس هناك إسلام أو مجتمع إسلامي واحد أو كيان شمولي"[3].

أما ملف فصلية باريسية، وخُصِّص لموضوع "المفكرون المسلمون الجدد"، فقد توقـــف عند أعمال عبد الوهاب المؤدب، رشيد بن الزين، عبدو فيلالي الأنصاري، مالـــك شـــبل وعبد المجيد شرفي، وجلهم من الباحثين المغاربيين المقيمين في فرنسا ولـــندن[4] حـــيث يوجز تقديم العدد الخاص الذي حرّره الإعلامي الفرنسي جون دانيال، بعض سمات عقلية الوصاية والنـــزعة الاستعلائية الغربية.

يرى دانيال أن "تأمل مواد العدد المخصص للمفكرين المسلمين الجدد، تصب في اتجـــاهين: الأول هـــو أن أوروبا وفرنسا تجسدان فرصة أمام الفكر الإسلامي الجديـــد (ويقـــصد بالتحديد علم الكلام الجديد)، والثاني، أن التعامل مع الظاهرة

---

(1) انظر:

Abdelwahab Meddeb, La maladie de l'islam, Paris, Seuil, (collection. La couleur des idées), Paris, 2005.

وكتابه الآخر: "الخروج من اللعنة: الإسلام بين الحضارة والبربرية".

Abdelwahab Meddeb, Sortir de la malédiction, L'Islam entre civilisation et Barbarie, Editions du Seuil, Paris, 2008.

(2) Dossier «Ils veulent réformer l'Islam», Un dossier réalisé par Catherine Farhi, In Le Nouvel Observateur, Paris, N. 1967, du 18 au 24 Juillet 2002.

(3) جون إسبوزيتو: الحرب غير المقدسة: الإرهاب باسم الإسلام، ترجمة: مصطفى حسين عبد الرازق، دار الحوار، اللاذقية، ط1، ص 160.

(4) Le nouvel observateur, Numéro hors série sous le thème: les nouveaux penseurs de l'Islam, Paris, Avril-Mai 2004, p. 29.

الإســـلامية (يقـــصد الحركات الإسلامية) أصبح من أهم اهتمامات الإسلام، وأنه علـــى المسلمين تحمل مسؤوليته"[1]، أو على الغربيين تحمل مسؤولية جبهة حرب الأفكـــار، كمـــا لخصها تقرير مرجعي صدر عن مؤسسة "راند"، من منطلق أن "الحرب على الإرهاب، تبقى بالدرجة الأولى حربا على أفكار الإرهاب"[2].

ومن باب الإنصاف التنويه بصدور قراءات نقدية في المجال التداولي الغربـــي تنـــتقد بـــشكل جلّي خلفيات تمرير هذه الرؤى والترويج لهذه الأسماء في "قيادة" مشروع النهضة الإسلامي والإصلاح الديني/الإسلامي دون سواهم، ومن بين هذه الانـــتقادات الـــوازنة، الإقـــرار الغربـــي بأن "إسلام الأنوار الذي تروج له بعض أطروحات نصر حامد أبو زيد وعبد المجيد الشرفي وعبدو فيلالي الأنصاري ومالك شـــبل وحمادي الرديسي وعبد الكريم سوروش، لا يعدو أن يكون الإسلام الذي يـــسعى الغـــرب لأن يـــسود اليوم، وليس الإسلام الذي تسعى الدول والشعوب الإسلامية أن يسود"[3].

ومن باب الإنصاف أيضا، ونتحدث عن إنصاف موقف الرأي العام الغربـــي الذي خرج في مظاهرات تندد بالحرب في العراق مثلا، التذكير بأن "الشعارات التي تـــرفعها الخطابـــات السياسية والأكاديمية الغربية، من قبيل الإسلاموفوبيا أو الخطر الأخضر، تعكس عقلية النخبة السياسية والإعلامية الغربية، ولا تعبر بالضرورة عن تـــوجهات الشعوب الغربية في أوروبا وأمريكا، بالرغم من أن هذه الشعوب تأخذ مـــن الوجبات الإعلامية الغربية التي أنتجت بشكل منمق ومنسق لتعكس العلاقة التحالفية بين المال والسياسة والإعلام لتدجين الشعوب وتشويه الآخر"[4].

(1) Jean Daniel, Islam.. de nouveaux réformateurs? Editorial de la revue le nouvel observateur, Numéro hors série sous le thème: les nouveaux penseurs de l'Islam, Paris, Avril-Mai 2004, p. 3.

(2) Beyond al-Qaeda: The Global Jihadist Movement. (Part 1) By Angel Rabasa, Peter Chalk, Kim Cragin, Sara A. Daly, Heather S. Gregg, Theodore W. Karasik, Kevin A. O'Brien, William Rosenau, Library of Congress Cataloging-in-Publication Data, 2006, p. 106.

(3) Charles Saint-Prot, Islam: l'avenir de la Tradition entre révolution et occidentalisation, Editions du Rocher, Monaco, 2008, p. 521.

(4) أيمـــن طـــلال يوســـف: تنميط الإسلام في التصورات الغربية بين الأصولية والفوبيا: قراءة تحليلية نقدية، المجلة العربية للعلوم السياسية، بيروت، العدد 18، ربيع 2008.

المبحث الثاني: قراءات النقد المُعلّق

نقـــصد بالـــنقد المُعلّق، كل قراءة نقدية غربية أنصفت نسبيا موقف الدول العربية والإسلامية بخصوص إصرار صناع القرار الاستراتيجي الغربـــي على تغذية الأطـــروحات الإسلامية "الجهادية" من خلال تبني سياسات غير منصفة تُجاه أهم أحداث الساحة في المجال التداولي الإسلامي (الصراع في الشرق الأوسط، والحرب في أفغانـــستان على وجه الخصوص)، دون أن تكون ذات القراءات منصفة بشكل كلّـــي في كـــشف الوجه الآخر لمسببات الأطروحات "الجهادية"، أي الاعتبارات الذاتية الخاصة بأعطاب الجهاز المفاهيمي للعقل الإسلامي المعاصر، وهذه مهمة أهل الأفكـــار الطولى في المجال التداولي الإسلامي بالدرجة الأولى، قبل أن تكون مهمة أهـــل الأفكار الطولى في المجال التداولي الغربـــي، ولعل تقاعس المشتغلين المسلمين بقـــضايا الفكر والتجديد والنهضة والإصلاح، يُبرر تطفل المشتغلين على أداء العقل الإسلامي في الجانب الغربـــي، بما يفسر صدور قراءات استعلائية وظهور خطاب الوصاية على العقل الإسلامي المعاصر.

يقـــف الراحل جون إسبوزيتو، والذي شغل منصب أستاذ الأديان والعلاقات الدولـــية بجامعة جورج تاون، ورئيس سابق لرابطة شمال أمريكا لدراسات الشرق الأوســـط[1]، على رأس هذه القائمة من الأقلام الغربية، ارتأى في دراسته النقدية، تحمـــيل العـــربية الـــسعودية "المسؤولية السياسية" في ظهور النـــزعات الإسلامية المتـــشددة، مقابـــل تحمـــيل أطروحات سيد قطب ومنظري "الجماعة الإسلامية المـــصرية" و"الجهـــاد" مـــا قـــد نصطلح عليه بـــ "المسؤولية المعنوية" من تبعات الاعتداءات التي عصفت بالدول العربية والغربية[2].

(1) مـــن مـــؤلفاته: "الإســـلام والسياسة: الصراط المستقيم"، "الإسلام في آسيا: الدين والسياسة والمجتمع"، "المرأة في قانون الأسرة الإسلامية"، "الثورة الإيرانية وتأثيراتها الدولية"، "الحرب غير المقدسة: الإرهاب باسم الإسلام".

(2) يرى إسبوزيتو أن العديد من "الحركات الإسلامية والجهادية، وكذلك أسامة بن لادن، مدينين بشكل أكبر للإيديولوجية المتشددة لسيد قطب أو الجماعات الإسلامية المصرية المتشددة مثل جماعـــة "الجهـــاد الإســـلامي"، التكفير والهجرة، والجماعة الإسلامية، منها للتقاليد الوهابية السعودية، والتي تعد بشكل كبير محافظة دينيا وسياسيا أكثر منها ثورية".
انظـــر: جـــون إسبوزيتو: "الحرب غير المقدسة: الإرهاب باسم الإسلام"، ترجمة: مصطفى حسين عبد الرازق، دار الحوار، دمشق، ط1، 2006، ص 128.

إلا أنـــه يـــؤكد في المقابـــل على أن "الترويج لخطاب الصراعات السياسية والثقافية، لا يتجلى فقط في المخاوف من المواجهة، ولكن أيضا في الإقرارات على أن الإســـلام لا ينـــسجم مـــع الديمقراطية والروح العصرية، وبالنتيجة، أصبحت الاتهامات الموجهة للحركات الإسلامية بأنها ميالة للقتال بالفطرة، شماعة لقمع هذه الحـــركات، وســـد الـــباب أمـــام الدفع بالعديد من الدول الإسلامية لأن تصبح ديمقراطية"(1).

نجـــد ضـــمن نفس خانة "النقد المُعلّق"، ما حرّره أب المؤرخين الأوروبيين، الـــبريطاني إريك هوبسباوم، ويرى أن "مأزق الولايات المتحدة أنها توهمت بقوتها، بعـــيدة عـــن أي خطر، في حين، أنه لا توجد قوة عظمى اليوم قادرة على ممارسة هيمنة مطلقة على عالم يتجه نحو المزيد من التعقيد"(2).

مـــن الأسماء الغربية المنصفة لقضايا العرب والمسلمين في حسابات السياسات الغـــربية، نجـــد على الخصوص الباحثة الأمريكية كارين أرمسترونغ، مؤلفة أبحاث مرجعية تسحب البساط عن إلصاق تهمة التطرف والعنف بالإسلام دون سواه(3)، والمـــؤرخة الإســـبانية ماريا روزا، مؤلفة كتاب قيّم للغاية، تنتصر خطوطه الناظمة لحتمـــية رد الاعتـــبار لثقافة وقيم التسامح في العلاقة بين أتباع الديانات التوحيدية الـــثلاث، كمـــا كانت سائدة في حقبة العصر الوسيط بالأندلس(4)، وضمن نفس اللائحـــة، نقـــرأ لـــبروس ب. لورنس أن "تشويه التطور الاقتصادي، والخضوع لمتطلـــبات التجارة والاستثمار والإنتاج العولمي – أي للغرب – وظهور الطبقات البيروقراطية العليا باسم الاستقلال، وفسخ الهيكلية الإيديولوجية الوطنية العليا عن

(1) John L. Esposito, The Islamic Threat: Myth or Reality? Oxford University Press, 3rd edition, 1998.

(2) Eric J. Hobsbawm, Le passif d'une illusion. Propos recueillis par Jean-Paul Monferran, L'Humanité, Paris, 26 septembre 2001.

(3) ســـوءا تعلق الأمر بكارين أرمسترونغ الأمريكية أو أن صوفي رولد السويدية أو آن ماري شيمل الألمانية، وغيرهن من الأسماء، نحن إزاء أكاديميات وباحثات غربيات ذهبن بعيدا في تمريـــر قراءات نقدية للعقل الغربي المعاصر في معرض تقويم وتقييم ما حرّره عن الفضاء الإسلامي – العربي.

(4) Maria Rosa Menocal, The Ornament of the World: How Muslims, Jews and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain, Boston, Little, Brown, 2002.

المستعمرين، وردّ فعل المناهضين للطبقة العليا الذين سعوا لتأكيد حقّهم في السلطة والـــشرعية، من خلال تحدّيهم الأسس السياسية والثقافية الأصيلة. إن هذه المسيرة التاريخـــية ليـــست بعـــيدة عن المسلمين إذ إنهم مثل الآخرين يُصدمون بالتيارات الكـــبيرة. ولذا فإن تفسير السلوك السياسي للمسلمين، اعتمادا على تصنيفات مثل "الغـــصب الإسلامي"[1] لا يبدو تصغيرا فحسب، بل هو أيضا ضيق في التفكير[2]، كمـــا استشهد لورنس بمختصر دال صدر عن أرنولد هاتينغر، قيدوم مراسلي "نيو زورشير زيتونغ" منذ العام 1956 إلى العام 1991 في منطقة الشرق الأوسط، عندما اختصر سبب كراهية العرب بدقة محكمة: "إن كراهية العرب للغرب تسبق نهوض الحركات الإسلامية بزمن طويل. فمنذ عشرين عاما بعد الاستقلال وتأسيس دولة إســـرائيل، كانت هذه الكراهية راسخة في القومية العربية، في مختلف تنوعاتها، ومما لا شـــك فـــيه، أن تأســـيس دولة إسرائيل كانت العامل الرئيسي الذي تسبب في مشاعر الكراهية تلك"[3].

أمـــا سارة سيلفستري، الباحثة الشابة في جامعة كامبدرج، فتستنكر بشكل جـــريء قـــراءات "التـــضخيم في مصطلح السلفية، بحيث يصبح مرادفا للجهاد والإرهاب، وهي قراءات تصرف النظر عن التنوع في التأويلات للمفهوم كما هو قـــائم في الفكـــر الإســـلامي، وتقاطعا مع أطروحة جون غراي في كتابه المرجعي "القاعـــدة.. ومعـــنى أن تكـــون حديـــثة"، تلاحظ الباحثة أن السلفية – وليس "الإرهاب" – نتاج تفاعل الثقافة الإسلامية مع الحداثة، وتأسيسا على هذا المعطى، لا يمكـــن قراءة السلفية على أنها مضادة للقيم الغربية، ولا كونها لا عقلانية أو ضد الحداثة.

انـــتقدت الباحـــثة أيضا "إصرار الأجهزة الأمنية الغربية على إلصاق السلفية بالظلامـــية والعـــنف" على اعتبار أن "توظيف الدين في الحياة الخاصة، ليس تقليدا

---

(1) فـــي إحالـــة إلى أحد عناوين أحد أبرز دراسات برنارد لويس حول الإسلام، وتحمل عنوان: "جذور الغضب الإسلامي".

Bernard Lewis, The Roots of Muslim Rage, The Atlantic Monthly; September 1990; Volume 266.

(2) بـــروس ب. لـــورنس: تحطيم الأسطورة: تخطي الإسلام للعنف، تعريب: غسان علم الدين، مراجعة: رضوان السيد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2004، ص 12.

(3) ج نوراني: "الجهاد والإسلام: التحيز في مواجهة الواقع"، مرجع سابق، ص 34.

جديـــدا، وإنما متجذر في تاريخ الفكر الغربـــي، وخاص بسيرورة العلمانية المنبثقة من مناهج مسيحية، ثم إن توظيف الدين عموما في أعمال عنف طالما تم في العديد من المحطات التاريخية السابقة على قدوم الإسلام، ومنها حقبة الحروب الصليبية"[1].

نجـــد في المجـــال الـــتداولي الفرنسي، الباحث فرانسوا بورغا، مؤلف عملين مرجعيين في قراءة الظاهرة، صدر الأول قبل منعطف تفجيرات نيويورك وواشنطن، ويحمـــل عـــنوان: "الظاهرة الإسلامية في المغرب العربـــي"[2]، والثاني، وهو الذي يهمـــنا أكثر في مبحثنا هذا، يحمل عنوان: "الإسلام السياسي في زمن القاعدة"[3] ويمكن تلخيص خلاصات هذا العمل في نقطتين أساسيتين:

- الاجـــتهاد النـــسبـــي في الاقتراب من تمرير نموذج تفسيري مركب، أكثر منه اختـــزالي في التعامل مع ظاهرة الإرهاب عموما، وظاهرة الحركات الإسلامية "الجهادية" بالتحديد.
- خـــيار الأسباب الموضوعية المسببة لظاهرة الإرهاب، وخاصة منها، السياسات الغـــربية، حيث كثرة "الاختلالات السياسية والاقتصادية التي لا تخلو من علاقة مـــع تلـــك التي ساهمت في ظهور تنظيم "القاعدة"، في الأراضي التي تبلغ فيها الهيمـــنة الغـــربية، الـــناتجة من المصالح النفطية والأمن الإسرائيلي، حدّة خاصة وحـــيث، فوق كل شيء، يمنع الأنموذج السياسي المحلي كل أشكال الاحتجاج الـــشرعي، تقـــضي الراديكالية إلى ظهور اللغة الثورية ثم الممارسة والراديكالية المتعصبة لأسامة بن لادن وأنصاره"[4]، أو تذكير صُناع القرار الغربـــي على أن "الأزمـــات الـــسياسية الداخلية في العالم العربـــي وجزء من العالم الإسلامي، تُـــربط في مخـــيّلة جـــيل بأكمله، وليس فقط لدى الإسلاميين، بشكل متزايد ومنهجي بهذا النظام الذي يرغب أن يكون عالميا لكنه يبدو أكثر فأكثر أمريكيا

(1) Sara Silvestri. Radical Islam: Threats and Opportunities, published in Global Dialogue (Special issue "Europe and Its Muslims"), vol. 9, no. 3-4, Summer/Autumn 2007, p. 119.

(2) L'islamisme au Maghreb: la voix du sud, François Burgat (Ed. La Découverte) (1988).

(3) François Burgat. L'Islamisme à l'heure d'Al-Qaïda, Réislamisation, modernisation, radicalisations, La découverte, Paris, 2005.

(4) فرانسوا بورغا: الإسلام السياسي في زمن القاعدة، مرجع سابق، ص 61.

فقـــط"[1]، كمـــا أنه "ليس بالضرورة أن يكون المرء، أو لا يكون من الإخوان المـــسلمين، مـــستندا إلى انـــتمائه الديني، لكي يقرر أن يعارض بعض مظاهر الغطرســـة الغـــربية في العـــالم الإســـلامي"[2]، وهي الغطرسة التي لا يبدو أن "الأمـــريكيين، مـــن ذوي الذاكرة القصيرة، يفقهونها جيدا، وقد أصبحوا اليوم مطالـــبين بأن يستوعبوا أنه لا يمكن لهم البقاء في العراق للأبد، وكون السنوات الـــست التي قضوها في العراق، أثبتت لنا أن الإقامة/الاحتلال ليست بالضرورة رديفا لحل الأزمات السياسية المحلية"[3].

ويـــضيف بـــورغا في مقـــام آخر إلى أن "الجهاديين الأوروبيين هم ضحايا ممارسات النظام العالمي، وليد التحالف الأمريكي الإسرائيلي، وهم إنتاج تقاطع بين الإفـــلاس المجتمعي الذي تعاني منه الفئات الاجتماعية ذات الأصول الأجنبية"، أما "ابن لادن، فيعتبر أن الولايات المتحدة هي الفاعل الاستراتيجي الرئيسي في منطقة الشرق الأوسط، ولا يبدو أنه خاطئ في ذلك"[4].

التـــنويه بإنـــصاف القراءات النقدية الصادرة عن جون إسبوزيتو الأمريكي وفرنـــسوا بـــورغا الفرنـــسي وماريا روزا الإسبانية، وثلة من الأقلام التي أنصفت القـــضايا العـــربية والإسلامية، تتطلب تدقيقا نقديا جريئا من أبناء المجال التداولي الإســـلامي، من باب تفادي السقوط في خانة "خطاب طمأنة الذات" أو "تصدير الأزمـــات"، لاعتـــبارات عدة، أهمها أن الناطقين باسم الأديان السماوية، عادة ما يحتكرون النطق باسم الحقيقة، وفي الحالة الإسلامية، لو كان لأي مذهب آخر، غير الوهابـــية، ما كان لهذه الأخيرة من أموال، لتم نفس الشيء، أي الترويج له داخل المجال التداولي الإسلامي العربـــي وفي المجال التداولي الغربـــي، كما تمّ عمليا طيلة عقـــود مضت، بعد الفورة النفطية، ويبقى المأزق الحقيقي، والذي أفرزته أحداث نـــيويورك وواشنطن، هو الحسم في طبيعة الإسلام الذي نريد، ونريده للبشرية، إلى

---

(1) فرانسوا بورغا: الإسلام السياسي في زمن القاعدة، مرجع سابق، ص 65.

(2) فرانسوا بورغا: الإسلام السياسي في زمن القاعدة، مرجع سابق، ص 117.

(3) F. Gregory Gause. Islamists and the Grave Bell, The National Interest, (The Nixon Center) Washington, ***September/October 2009.***

(4) François Burgat. Que reste t-il du projet islamiste? In Télérama. Hors série sous le thème: Comprendre l'Islam, si proche, si loin, Paris, Novembre 2001.

درجة جعلت بعض الأقلام العربية لا تتردد في وصف بعض الأدبيات الفقهية المرجعية لدى تيار عريض من المسلمين، من قبيل كتاب "السياسة الشرعية" لابن تيمية، بمثابة "مانفستو الجهاد"، وهو مقابل كتاب "ما العمل" للينين[1]، أو تغذية انتقادات الأقلام الغربية حول "حتمية حسم المسلمين مع المكانة التي يحظى بها الدين في كل حضارة، حيث نجد أن الإسلام دين ودولة، وشمولي، ولا يمكن تقسيم النصوص القرآنية بين بعدها الروحي وبعدها الزمني، إنه شيفرة حياة، ومن الأفضل لنا مجابهة الأسئلة المحرجة قبل أن تفاجئنا"[2] وضمن هذه المفاجآت، الخاصة بأبناء المجال التداولي الإسلامي، ضرورة الحسم مع نتائج اللسانيين الغربيين، ومنهم كريستوفر لوكسنبرغ، لساني ألماني، خلص إلى أن القرآن الكريم "حصيلة قراءات خاطئة تمت طيلة قرون مضت، ومؤسسة على نسخ قديمة من القرآن تعرضت بدورها للتحريف، ومنها نصوص قرآنية مستقاة من نصوص مسيحية سابقة على الحقبة النبوية"[3].

وسواء تم التركيز على أسباب سياسية أو أمنية أو فقهية، لا يمكن اختزال صعود الحركات الإسلامية "الجهادية" في سبب مُعين مع التقزيم من أسباب موازية، وبالنتيجة، لا يمكن اختزال صعود نجم "الجهاديين" في طبيعة السياسات الغربية تُجاه الدول العربية والإسلامية، كما اجتهد في التحذير منها إسبوزيتو وبورغا وماريا روزا، لأنه على فرض أن هذه السياسات تعرضت للتقويم والإنصاف اتجاه أبرز القضايا العربية والإسلامية، فإن هناك لائحة من المقدمات الذاتية اللصيقة بالمجال التداولي الإسلامي العربي، أهمها انسداد آفاق العمل السياسي على نخب ما بعد حقبة الاستقلال، تأثيرات الصراع العربي الإسرائيلي التي تدفع عالم الاجتماع الفرنسي الشهير آلان تورين، ومؤلف كتاب "نقد الحداثة"، إلى وصف المشهد العالمي الراهن بما يشبه "حرب أشباح لن نخرج منها إلا عبر إحقاق الحقوق،

(1) Slimane Zéghidour. Le petit livre du Djihad, In Télérama, Hors série sous le thème: Comprendre l'Islam, si proche, si loin, Paris, Novembre 2001.

(2) Christian Makarian. Islam, Les vérités qui dérangent, L'express, Paris, 12 Juin 2008.

(3) Alexander Stille. Radical New of Islam and the Origins of the Koran, New York Times, March, 5, 2002.

وخاصة في ما يجري بفلسطين، عبر تأسيس دولتين: إسرائيل ودولة فلسطينية لا علاقة لهـــا بالحالة الكاريكاتورية التي تم اقتراحها"[1]، تبعات سياسات التغريب والعلمنة لدى النخب السياسة الحاكمة، إصرار فقهاء المؤسسات الدينية الرسمية على إعادة إنتاج "فقه المـــراوحة المكانـــية"، الـــسائد في أغلـــب الدول الإسلامية والعربية، ونقصد به الفقه الاجتـــراري الـــذي لا يساير التحديات الجمّة التي يواجهها العالم والمسلمون على حد ســـواء، وغيرهـــا من الأعطاب الذاتية التي تتطلب شجاعة تاريخية من قبل الناطقين أو المحسوبين على العقل الإسلامي المعاصر، إذا أردنا فعلا أن نطرق باب الفعل الحضاري والمـــسؤول، وليس الفاعل به أو صاحب "رد الفعل"، بالصيغة الصادمة التي أفرزتها اعـــتداءات نيويورك وواشنطن في الغرب، أو الاعتداءات التي عصفت بالعديد من الدول العربية والإسلامية، من الدار البيضاء بالمغرب إلى إندونيسيا.

المبحث الثالث: قراءات النقد المزدوج

رفيقـــنا في هذه الجزئية، كتاب "من مانهاتن إلى بغداد" وهو عمل مشترك بين محمد أركون وجوزيف مايلا، (مختص في الجغرافيا السياسية)، ويرى هذا الأخير أن "التخميـــنات والتـــركيبات الذهنية عن هذه الاعتداءات تكشف عن علاقة ثقافية وفكـــرية مُـــشبَعة بالمـــشكلات بين شرق وغرب ينوءان تحت وطأة تاريخ مُثقل بأشكال الحذر وسوء التفاهم"[2]، مطالبا المتلقي بمساءلة البعد السياسي الصرف في أسباب الأزمة وتداعياتها، على اعتبار أن إعادة وضع هذه الواقعة الحديثة في سياقها التاريخـــي ضمن إطار العالم المنبثق عن فترة ما بعد الحرب الباردة، هي تحديد ماهية مـــركب جغـــرافي – سياسي ذي حدود إيديولوجية سيئة الترسيم تتصادم حولها اتهامات دائمة ومختصرات دينية واحتجاجات سياسية تضاف إليها، من طرف العالم العربـــــي والإسلامي، شُبهات بالتآمر الغربـــي وانطواء على شعور قوي بالتبعية والتهمـــيش الناشئ عن مرحلة ما بعد حرب الخليج، وعلى إحساس مؤلم بالإذلال المتواصل في فلسطين[3].

(1) Alain Touraine. De l'islamisme politique à l'islamisme guerrier, Libération, Paris, 14 Septembre 2001.

(2) Mohammed Arakoun, Joseph Maïla. De Manhattan à Bagdad, op. cit., p. 13.

(3) Mohammed Arakoun, Joseph Maïla. De Manhattan à Bagdad, op. cit., p. 13.

لا يكمن الخطر عند مايلا في "انخراط ابن لادن وبوش في معزوفة حقد تجمع بـــين التبـــسيط والوحشية تتشكل عند كلا الطرفين وتؤجّج المشاعر لدى ملامسة موضـــوعات حـــساسة بالنسبة للوعي العربـــي الإسلامي في هذا الزمن، بقدر ما يكمـــن في تبـــسيط التصدّعات والخلافات عبر تجذيرها، وفي تسويغ كل أشكال العنف، وفي خلط الأزمنة والمراحل التاريخية، لشحن فكرة صراع يزعمون أنه فوق الانتماء إلى مكان أو زمن محدّديْن"[1] والإحالة هنا عند الكاتب على إعلان أسامة بـــن لادن الـــصادر في فبراير 1998، وما سمي آنذاك بـــ "الجبهة الإسلامية العالمية للجهـــاد ضد اليهود والصليبيين"، في تماهي ملفت مع قراءة نقدية نوعية، صدرت عـــن الـــباحث الأفغـــاني عتيق رحيمي (اللاجئ في فرنسا)، قائلا: "عندما أشاهد الرئيس جورج بوش، يتهيأ لي كما لو كنت أشاهد أحد أفلام رعاة البقر، نحن إزاء نفس الرؤية الاختزالية للعالم التي لا ترى هذا العالم في غناه، وتختزل العالم تماما كما تختزله قوات طالبان والإيديولوجيات الماركسية اللنينية"[2].

وعلـــى صـــعيد آخـــر، مرتبط بنقد أداء الإدارة الأمريكية، يؤكد مايلا أن الـــولايات المتحدة اختارت سياسة المعقل المُحصّن، متهما صراحة العقل السياسي الغربـــي بتبني منطق "المركزية الغربية" باعتبار أنه يحتل اليوم موقع الذروة في العالم، وذلـــك مـــن خـــلال اعتـــبار الحضارة الغربية، حضارة قادرة على الاستغناء عن الحـــضارات الأخرى، وهنا بالذات تكمن الخطورة، حسب مايلا: الاكتفاء الذاتي الرمـــزي الذي يمكنه أن يدفع الغرب إلى النظر إلى الآخر لا باعتباره مكملا لهويته، بل كتهديد مُحتَمَل[3].

نقـــد الحركات الإسلامية "الجهادية" من باب تحصيل حاصل، موازاة مع نقد الإدارة الأمـــريكية أيضا، كان السمة البارزة للأقلام الغربية التي رفعت شعار النقد المزدوج، ومن بين الأسماء الرصينة، نجد ستانلي هوفمان (الأستاذ في جامعة هارفارد مـــنذ عام 1953)، ويرى بأن "المستفيدين من الحرب على الإرهاب هي الدول التي

(1) Mohammed Arakoun, Joseph Maïla. De Manhattan à Bagdad, op. cit., p. 13.

(2) انظر:

Atiq Rahimi. Pour l’Amérique, l’afghan est un taliban. Propos recueillis par Martine Laval et Catherine Portevin. Télérama, Paris, N. 2698, 26 septembre 2001.

(3) محمد أركون وجوزيف مايلا: من مانهاتن إلى بغداد، مرجع سابق، ص 50.

فقدت سيادتها، والتي ستتمكن من مضاعفة أنواع المراقبة على الأشخاص، مما يعني تـــشييد سور جديد وتقديم تبريرات جديدة من أجل التعدي على الحقوق الفردية تحـــت ذريعـــة الحفـــاظ على الأمن العام"، مؤكدا أن "ميل الدول، مثل الولايات المـــتحدة إلى الـــتدخل عالمـــيا من أجل ردعه، قد يقودنا إلى الإعلان عن نوع من الانقياد وراء "كابوس كوني"[(1)]، أو حديث الصحافية والناشرة الفرنسية ساندرين تولـــوتي عن كون تنظيم "القاعدة يحتكر المخيال الجمعي للأمة، ويمثل الوجه المظلم للعـــولمة، لأنه نتاج الجمع بين تغريب العالم وعقدة جمال الدين الأفغاني"[(2)]، وهناك أيـــضا المحاضر الكندي جان بيير دريانيك، والذي تزعم لواء نقد أطروحة "الحرب علـــى الإرهاب"، معتبرا أنها تسقطنا في فخ مُركّب من ثلاثة أضلاع: أولا، إعطاء الـــشرعية للإرهابيين على غرار الشرعية التي تلصق بالجنود في الحروب التقليدية، وثانـــيا، تأسيس لحالة انتظار لدى الرأي العام حول انتصار نهائي يصعب تحقيقه، وثالثا، السقوط في خطأ خيارات الوسائل المتبعة في تفاصيل هذه الحرب[(3)].

ضـــمن نفس اللائحة المتبنية لخيار "النقد المزدوج"، نجد المفكر الفرنسي جاك دريـــدا الـــذي حـــذّرَ المتتبعين من "استخدام "مفردات مثل "الإرهاب" وخاصة "الإرهـــاب الـــدولي"، هذا إن كانت لدينا الرغبة في عدم الانصياع الأعمى للغة المـــتداولة المهادنـــة للخطاب الإعلامي وفذلكة الأنظمة السياسية"[(4)]، أو الناشطة الهـــندية، والتي تتهم كلا من الإدارة الأمريكية وأطروحات الإسلاميين الجهاديين

---

(1) Stanley Hoffman. La triste état du monde, Le monde, Paris, 24 janvier 2002.

(2) Sandrine Tolotti. Le défi islamiste: la lente dérive des humiliés, In Télérama, Hors série sous le thème: Comprendre l'Islam, si proche, si loin, Paris, Novembre 2001.

(3) Jean-Pierre Derriennic. «Violence instrumentale et violence mimétique: l'estimation des effets politiques des actes terroristes», communication au 70e congrès de l'ACFAS, Université Laval, Québec, Canada, tiré de l'ouvrage: Enjeux philosophiques de la Guerre, de la paix et du terrorisme, ed Les presses de l'Université de Laval, 2003.

(4) يـــضيف دريـــدا "رغـــم أن بوش يتحدث عن "الحرب"، ولكنه عاجز عن تحديد العدو الذي يُفتـــرض أنـــه يحاربـــه، ولنأخذ مثالا على ذلك أفغانستان: فلا الشعب الأفغاني ولا الجيش الأفغاني يعتبرون أعداء للشعب الأمريكي. انظر:

Jacques Derrida. Qu'est-ce le terrorisme? Le monde diplomatique, N. 599, Paris, Février 2004.

باللجوء إلى "نفس المفردات"، حيث إن "كلاهما يُمثّلُ رأس الأفعى، في نظر الآخر، ولا يتـــردد أي مـــنهما – وتقـــصد الرئيس الأمريكي جوج بوش وزعيم تنظيم القاعـــدة، أسامة بن لادن – في اللجوء إلى الإله وإلى الخطب المانوية، بثنائية الخير والـــشر، مع أنهما متورطان معا في جرائم سياسية"[(1)]، أو إقرار الخبير الفرنسي في الدراسات الاستراتيجية جيرار شالياند، من أن "الإهانة التي يشعر بها المسلمون من جراء الخطاب الغربـــي المزدوج اتجاه القضية الفلسطينية"[(2)]، وأخيرا، وليس آخرا، ما صدر عن الخبير الفرنسي وأستاذ العلاقات الدولية في معهد الدراسات السياسية في بـــاريس برتراند بادي، من أن "اعتداءات نيويورك وواشنطن لم تكن اعتداءات إرهابـــية ضـــد الديمقـــراطية أو الغرب أو المسيحية، وإنما اعتداءات ضد قوة جد مـــتطورة، حـــتى مقارنة مع إمكاناتها الحقيقية، وبسبب هذه الصورة التي تروجها حول نفسها، تحتل تقريبا العالم"[(3)].

على أن أبرز الأقلام الغربية التي تزعمت "تيار النقد المزدوج"، كانت بالتأكيد محـــسوبة علـــى أهـــل الأفكار الطولى، ونخص بالذكر اسمين بارزين: الفيلسوف الفرنسي جون بودريار، المفكر البريطاني جون غراي.

حـــرّر الراحل جون بودريار مبحثا صغير الحجم، ولكنه كبير الدلالة، ويحمل عـــنوان: "روح الإرهـــاب"[(4)] ويمكـــن إيجاز أطروحة بودريار في المُسلّمة التالية:

---

(1) Arundhati Roy. Ben Laden, secret de famille de l'Amérique, Le Monde, Paris, 14-15 octobre 2001.

وهـــذا عـــين ما صدر عن المفكر الألماني يورغن هابرماس، والمفكر الفرنسي جاك دريدا، حيث اعتبرا أن "مجازات بوش وابن لادن، تتجاوز سرعة حروب الصور والخطابات سرعة الموجات، مخفية ومفرقة بسرعة أكبر الحقائق". انظر:

Jürgen Habermas. Jacques Derrida, Le Concept du 11 septembre, Galilée, Paris, p. 183.

(2) Gérard Chaliand. Un affaiblissement indiscutable, In Le courrier de l'atlas, Dossier: Le déclin d'Al Qaida, Paris, N. 19, octobre 2008.

(3) Bertrand Badie. La puissance américaine condamné à la modestie, recueillis par Jean-luc Allouche et Jean-dominique Merchet, Libération, Paris, 16 septembre 2001.

(4) Jean baudrillard. L'esprit du terrorisme, Le Monde, 3 Novembre 2001.

ولأهمية المبحث، فقد صدرت له ترجمات عدة في يومية "الوطن" السعودية و"القدس العربي" اللندنـــية وأســـبوعية "أخـــبار الأدب" القاهـــرية، وفـــصلية "الفكـــر العربـــي المعاصـــر"

"العـــنف لا يُفرز إلا عنفا مضادا"، و"العنف المتحرك ينقلب مع الزمن ضد نفسه"، معتـــبرا أنـــه "أمام حدث فريد كهذا، لا بد والحالة هذه من رد فعل فريد مباشر وعبثي يستخدم بطريقة ما الطاقة الكامنة للحدث، فكل ما سيتبعه، بما فيه الحرب، لـــيس إلا شـــكلا من أشكال التمييع والضعف المتصاعد. من هنا جاءت صعوبة العـــدول عـــن التعليق بشكل مباشر". ومن هنا نتفهم تأخر بودريار في نشر أولى قـــراءاته لـــتفجيرات نيويورك وواشنطن، والتي صدرت في مبحثه القيّم والمرجعي "روح الإرهاب".

وكمـــا عقّـــبت علـــى ذلـــك الباحثة الفرنسية المرموقة مريم ريفو دالون، والتي اســـتنكرت بشدة خلفيات الإمضاء الثقافي الغربـــي على وثيقة الانتماء "لصف الألم" الأمريكـــي، والـــذي سطره جان ماري كولومباني، مدير يومية "لوموند" الفرنسية في اليوم الموالي للتفجيرات تحت شعار: "كلنا نيويوركيون"، أو "كلنا أمريكيون" كما جاء في عنوان مقال كولومباني الشهير[1]، فبالفعل، "كلنا نيويوركيون"، تشير دالون، ولكن كلـــنا مطالـــبون بعدم الاكتراث بملايين الأموات المحسوبين على فضاء هوياتي مغاير، ذهـــبوا ضـــحايا لنظامنا الغربـــي، ومع أنها أدانت تفجيرات نيويورك وواشنطن، فإنها عبّـــرت بالمقابـــل (مـــن باب الرضوخ لخيار النقد المزدوج)، عن عدم الاستغراب من "اعـــتداءات كانـــت مـــتوقعة، من منطلق أن العنف الرجعي يبقى وليدا للقمع غير الإنساني لنسق غربـــي قائم على ادعاءات لا إنسانية اتجاه الآخر"[2].

يتخذ العنف عند بودريار صفة "الإرهاب" تارة وصفة "الرعب" تارة أخرى، واصـــفا أصـــولية المتـــنازعين[3] بـــــ "صراع قائم بين جذرية تفرض نفسها عبر

(بيروت/باريس)، إضافة إلى المؤلفات الجماعية التي ضمت دراسات حول العنف والإرهاب في العالم، منها كتاب "عنف العالم" سالف الذكر.

(1) Jean Marie-Colombani, Nous sommes tous Américains, Le monde, Paris, 13 septembre 2001.

(2) Myriam Revault d'Allones, Faut il avoir peur de l'universel, Le Monde, 24 septembre 2001.

(3) ويقـــصد أصـــولية بوش التطهيرية (أو "البيوريتانية" من "puritans") مقابل أصولية بن لادن الإســـلامية، وقد أوجز الناشط الباكستاني الشهير طارق علي بامتياز صراع الأصوليات في عمـــل نقدي جرئي يحمل عنوان "صدام الأصوليات: حملات صليبية، جهاد، حداثة" (Tariq Ali. Clash of Fundamentalisms: Crusades, jihads, Modernity).

التـــضحية"، كمـــا حصل مع الاعتداءات التي طالت مركز التجارة العالمي، وبين جذريـــة تفـــرض نفسها عبر القوة، أو عبر العنف الأمريكي المؤسساتي، وكانت إحـــدى نـــتائج هذا النـــزاع، بزوغ نوع من الاحتقان العالمي سوف يفرز بدوره إرهابـــا مـــزدوجا، مختتما مبحثه المرجعي بالتأكيد على أن طاقة العنف التي تغذي الرعب أكثر من أن تكون إيديولوجية، مذهبية أو دينية، وعليه، فإن "جميع أساليب الـــردع والتـــرهيب لـــن تقف أمام إرادة انتحاريين جعلوا من الموت سلاحا للرد المـــضاد: لا يهم القصف الأمريكي هناك في أفغانستان ما دامت رغبة الموت عند الطرف الآخر تعادل رغبة الحياة عند رعاة النظام العالمي الجديد"(1).

خلاصـــات بودريار تتقاطع مع خلاصات توصل إليها المفكر الفرنسي إدغار مـــوران، رائـــد مشروع "الفكر المُركّب"(2)، حيث الدعوة الشجاعة إلى ضرورة الأخـــذ في الحـــسبان بأن "الحضارة الغربية تحمل في داخلها سرطانات ومشاكل. وهكـــذا فإن الأنماط الشهيرة للتطور التي نقلتها أوروبا إلى البلدان الإفريقية أو إلى الشرق الأوسط قد فشلت. وإذا مات التقدم، فلا جدوى إذا من المستقبل"(3).

نـــأتي للاســـم الثاني الذي برز في المجال التداولي الغربـــي، في شقه النقدي المـــروج لخطاب النقد المزدوج، ونتحدث عن عمل قيّم للغاية، حرّره جون غراي، أســـتاذ الفكـــر الأوروبـــي في كلية لندن للاقتصاد، ومن خلال كتابه "القاعدة..

---

(1) كما كان منتظرا، صدرت العديد من الانتقادات عقب صدور مقال بودريار، كان أهمها مقال آلان ميـــنك، عـــراب "الليبـــرالية الجديدة" في المجال التداولي الفرنسي، الذي اتهم فيلسوف "النموذج الإرهابي" بإحياء نزعة "الشمولية الثقافوية".
انظر:
Alain Minc. Le Terrorisme de l'esprit, Le Monde, 7 Novembre 2001.
أما جيرار هوبير، فذهب إلى نقد "فيلسوف يتغذى على منجزات الحداثة ويتخلى عنها لصالح ألد أعدائه". انظر:
Gerard Huber. Refuser l'éloge du terrorisme, Le Monde, 10 Novembre 2001.

(2) يرى موران أنه "إذا كان التقدم العلمي التقني والطبي والاجتماعي مذهلا، فإنه لا يجب التقليل مـــن قيمة السلطة المريعة المدمرة والتي تجد تحت تصرفها العلم والتقنية. إنها المرة الأولى في التاريخ الإنساني حيث ثمة إمكانية القضاء نهائيا على الإنسانية".
انظـــر: إدغـــار موران: الفكر والمستقبل: مدخل إلى الفكر المركب، ترجمة: أحمد القصوار ومنير الحجوجي، سلسلة "المعرفة الفلسفية"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2004.

(3) موران: عنف العالم، مرجع سابق، ص 78.

وماذا يعني أن تكون حديثة"[1]، ولو أن السبق الأكاديمي لتصنيف تنظيم "القاعدة" ضـــمن الحـــركات الحديثة، يعود لوهان غوناراتنا، والذي يُحسب له الحديث عن تنظـــيم "حـــديث "جهادي" في جوهره"[2]، وهو ما لا يغفل عنه غراي، من باب "إحقـــاق حقـــوق الملكية" في توصيف تداعيات ظاهرة مجتمعية وكوكبية ساهمت بـــشكل كبير في زعزعة العديد من اليقينيات، وتساهم اليوم في فتح أوراش فكرية وفقهية كبرى في المجال التداولي الإسلامي.

ومع أن كتاب "القاعدة.. ومعنى أن تكون حديثة"، ليس "كتابا عن القاعدة ولا بالأحـــرى دلـــيلا عن المنظمات الإرهابية، ولكن مدخل هام جدا عن الفكر المعاصـــر، وعن ترجمة الإسلام المتشدد (الراديكالي) للصدمات التي أفرزتها أسطورة الإنسان المتكامل"[3].

لعـــل ميزة العمل الأبرز، تكمن في جرأة مؤلفه الذي تجاوز الخطاب النقدي السائد في المجالين التداولي الإسلامي والغربـــي على حد سواء، أي خطاب تكفير زعـــيم تنظيم "القاعدة" من قبل أو شيطنة التنظيم، وفي أقل المراتب، إصدار بيانات فقهـــية تعـــزل أتباع أسامة بن لادن عن أدبيات العقل الإسلامي المعاصر، في شقه الرسمـــي والشعبـــي، حتى أن ترحال الكاتب مع أعلام الفكر الفلسفي عبر التاريخ والتيارات الإيديولوجية المهيمنة منذ الحقبة اليونانية حتى نهاية القرن العشرين، يبقى أكثـــر مـــن ترحاله مع رموز تنظيم "القاعدة"، ومفردات "التطرف الإسلامي" أو "الإرهاب الإسلامي".

يُقـــدّم كتاب "القاعدة.. ومعنى أن تكون حديثة"، خدمات معرفية تفسيرية هامـــة للمتلقـــي الكـــوني، علـــى غرار الخدمة التفسيرية التي تقدمها أعمال نعوم تشومـــسكي، وتكاد تنطبق عليه القاعدة الأصولية/الفقهية، "ناقل الكفر"، من فرط الـــصدمة الـــتي تـــثيرها فكرته الرئيسية، التي لا تقف عند تكرار تلك الانتقادات المـــستهلكة أكاديميا وإعلاميا وأمنيا عن مسؤولية "الجهاديين" في تقويض المشروع

---

(1) ***John Gray.*** Al Qaeda And What It ***Means*** To Be ***Modern,*** Faber and Faber; London, 2007.

(2) Rohan Gunaratna. Inside Al Qaeda, Global Network of Terror, London, Hurst and company, 2002, p. 11.

(3) Martin Bright. On the trail of Osama bin Laden, The Observer, May 11Th 2003.

الكـــوني لإحـــلال الـــسلم والقـــيم الديمقراطية والحداثية، وكون هذا "الإرهاب الإســـلامي"، يعـــيد الكون الغربـــي/الإنساني إلى عصر ما قبل الحداثة، وما قبل الأنوار، عندما يعقد جون غراي قرانا نوعيا مثيرا بين "الإرهاب الإسلامي" والقيم الحداثـــية"، تحديـــدا، معتـــبرا أن الأســـلوب التحديثي الذي تشتغل عليه القواعد "الجهاديـــة" يخول لتنظيم أسامة بن لادن أن يعتبر نفسه "بديلا عن العالم الحديث، خاصـــة أن جوهـــر الأفكار التي يتأسس عليها نمط عمل التنظيم يبقى حديثا"[1]. مُصَنِّفا التنظيم ضمن إفرازات حقبة وقيم "ما بعد التنوير" (post Enlightenment) كمـــا هـــو الحـــال مع التيارات النازية والشيوعية التي تعتبر بدورها من إنتاجات الحداثة، مستشهدا بطبيعة تعامل حكومة فيشي الفرنسية إبان الحرب العالمية الثانية مع النازية، باعتبارها "طريق متسع للثورة الاجتماعية"[2].

لـــيس هـــذا وحـــسب، بل يدعو غراي إلى عدم اختزال إسقاطات القول بـــــ "تنظـــيم حديث" في طبيعة "التواصل التكنولوجي القائم بين قيادات وقواعد التنظـــيم[3] ولكـــن أيضا في طبيعة عمل المنظمة"، بشكل يجعلنا أمام "أول منظمة إرهابـــية مـــتعددة الجنـــسيات" قـــادرة علـــى التنسيق بين دول أمريكا اللاتينية والـــيابان"[4]، مختـــتما عمله النقدي الخارج عن "الموجة النقدية" التي سادت طيلة حقـــبة ما بعد اعتداءات نيويورك وواشنطن، بالتأكيد على أن "الصراع القائم بين الغـــرب وتنظيم القاعدة، يحيلنا على حرب أديان"، بحكم أن طبيعة "تنظيم القاعدة الـــيوم أشـــبه بهجـــين فريد من الثيوقراطية والنـــزعة الفوضوية التي أفرزها الفكر الغربـــي المتشدد"[5].

---

(1) ***John Gray.*** Al Qaeda And What It ***Means*** To Be ***Modern, op. cit., p. 26.***

(2) ***John Gray. Op. cit., p. 14.***

انظـــر الفصل الثاني المعنون ثلاث مشاريع حديثة، وهو زبدة العمل القيم لجون غراي حول تنظيم "القاعدة"، من ص 5 إلى ص 26.

(3) اعتبـــر جـــون بـــودريار أن تنظيم "القاعدة" هو نتاج "الحداثة المعولمة" وتستعمل تكنولوجيا التواصل الحديثة، والشبكات العالمية.

انظر:

Jean Baudrillard. L'esprit du terrorisme, op. cit.

(4) ***John Gray.*** Al Qaeda And What It ***Means*** To Be ***Modern, op. cit., 77.***

(5) ***John Gray.*** Al Qaeda And What It ***Means*** To Be ***Modern, op. cit., p. 117.***

هـــناك عمل قيّم للغاية، حرّره بوبـــي سيّد، باحث بريطاني مسلم، يجمع بين التفكـــيك الرصـــين لأطـــروحات "المركزية الأوروبية"، وبين الترحال مع أحقية تـــصنيف الحركات الإسلامية في خانة حركات التحديث وليس التقليد، ونتحدث عـــن كتاب "الخوف الأصولي.. المركزية الأوروبية وبروز الإسلام"، ويكاد يكون هذا العمل المقابل الأكاديمي (الإسلامي) لكتاب جون غراي: "القاعدة.. ومعنى أن تكون حديثة"، مع فارق زمني نوعي، يكمن في أن كتاب بوبـــي سيّد صدر سنة 1997، أي قبل منعطف اعتداءات نيويورك وواشنطن، في حين صدر كتاب جون غراي بعد هذا المنعطف.

وتتأســـس أهـــم أطروحات بوبـــي سيّد في كتابه "الخوف الأصولي"، على التـــرحال مـــع أهم ميزتين إصلاحيتين في المجال التداولي الإسلامي الراهن: تراجع التجـــربة الكمالـــية في تركيا، وصعود الحركات الإسلامية كمنافس مباشر للخيار الكمالي(1).

لم تمر الرؤى النقدية النوعية لجون غراي دون تلقي سلسلة من الانتقادات في المنابر الإعلامية البريطانية، لعل أهمها، ما جاء في مقال مرجعي لزيو الدين صاردر، منـــتقدا بـــشدة الخلاصـــات التي توصل إليها جون غراي، وموجزا طبيعة أتباع بن لادن في قواعد يُجسّدون خلطا بين التراث والرومانسية (وليس الفوضوية كما جـــاء في مبحث غراي)، وهم حيارى بين اختيار التقليد والحداثة مع تعطش كبير للقيم الاستهلاكية، كما يلاحظ ذلك أي زائر للعربية السعودية أو إيران، ويلاحظ أن صـــاردر أدمج القواعد الإسلامية "الجهادية" في خانة القواعد التي تؤسس طبائع الـــتدين في السعودية السنية وإيران الشيعية، ولو أنه استدرك الأمر في ذات المقال المطـــول بالتأكيد على أن "الخلط بين الدين والدولة أفرز أصوليات إسلامية تقود دولا أشبه بمؤسسات شمولية، تنظيم القاعدة ليس منظمة حداثية، بخلاف الشمولية الحديثة للبولشفية والنازية التي ارتكزت على قيم عصر الأنوار"(2).

---

(1) انظر:

Bobby B. Sayyid. A Fundamentalist Fear: Eurocentrism and the Emergence of Islamism (London: Zed Books, 1997, 185 pp).

(2) Ziauddin Sardar. When we lived in modern times, ***The independent, Saturday, 17 May 2003.***

نحـــن نطـــرق باب نقد العقل الغربـــي، أو نقد أسطورة المهام الحضارية الملقـــاة على عاتق "الرجل الأبيض"، ما دامت "القيم الديمقراطية الكونية، التي ولدت في الحضن الأوروبـــي، تفرض على أوروبا الترويج لعقل هندسي وتأطير مؤسسات تروج لهذه القيم على الصعيد العالمي"، بتعبير الباحثة الفرنسية صوفي بـــسيس، حـــيث كـــان الخطاب الأوروبـــي في عصر الأنوار المروج للحرية والمـــساواة وحقـــوق الإنـــسان، أول مغتصب لهذه الحقوق من خلال حملات استعمارية، اتسمت بتبني نـــزعة ظلامية، لأنها حرمت نفس الحقوق الإنسانية علـــى الـــشعوب المستعمرة، التي لا زالت تؤدي ضريبة "اختزال شديد للعرق الإنساني في هوية أوروبية تقوم على رفض كل هوية تشوه صورة نريدها لنا نحن أهل أوروبا"[1].

ونختتم أهم وأحدث القراءات الغربية المؤسسة لأطروحات النقد المزدوج، بما صـــدر عـــن المـــؤرخ الفرنسي شارل سانت برو، والذي توفق في الجمع بين نقد "أطـــروحات المحـــافظين الجدد المؤثرين في صناعة القرار السياسي الأمريكي منذ منتصف القرن العشرين، من مروجي مشروع الهيمنة الأمريكية الإمبريالية التي تروم فـــرض قـــيمها علـــى العـــالم بأسره"[2]، ونقد أطروحات "معلمين (سيد قطب) ومهندسين (مصطفى شكري ومحمد عبد السلام فرج) وأطباء (محمد عطا) ورجال أعمال (أسامة بن لادن)"، حيث نرى "دعاية حركية مبسطة شبه ما تكون بعملية ترقيع إيديولوجي"[3].

وحاصـــل الكـــلام في هـــذا الفصل، أن مقاربات المثقفين الغربيين لظاهرة الإرهـــاب، تفرعت إجمالا عن ثلاثة اتجاهات رئيسية، مقاربات تتأسس على تمرير النماذج التفسيرية الاختزالية، من قبيل شيطنة الحركات الإسلامية وشيطنة الوهابية، ثم مقاربـــات تتأســـس علـــى عقلية الوصاية والنـــزعة المركزية الغربية، أو عقلية "الرجل الأبيض"، صاحب "المهمة الحضارية" القائمة على تصدير "القيم الديمقراطية

(1) Sophie Bessis. l'Occident et les autres: histoire d'une suprématie, La découverte, Paris, 2001, op. cit.

(2) Charles Saint-Prot. Islam: l'avenir de la Tradition entre révolution et occidentalisation, Editions du Rocher, Monaco, 2008, p. 26.

(3) Charles Saint-Prot. Op. cit., p. 476.

الكونـــية، التي ولدت في الحضن الأوروبـــي، ثم المقاربات التي انتصرت وروّجت لحتمـــية المـــرور عـــبر عتبة النقد المزدوج، الموجه عموما ضد الحركات الإسلامية "الجهادية" وضد السياسات الغربية تُجاه القضايا العربية والإسلامية.

الفقهاء المسلمون ونقد أدبيات تنظيم"القاعدة"

لعـــل أبـــرز تحدٍ معرفي وجودي واجهه المسلمون (نخبا سياسية ودينية على الخصوص)، مباشرة بعدً منعطف تفجيرات نيويورك وواشنطن، هو ذلك "التفاعل الجديـــد" مع النص المقدس، أو "النص المؤسس"، بتعبير مدرسة علم الكلام الجديد في المجـــال التداولي الإسلامي، حيث لم يعد الأمر عند النقاد الغربيين وبعض النقاد العرب والمسلمين، من المحسوبين على التيارات "الحداثية" و"العلمانية"، مقتصرا على نقد ونقض أطروحات الحركات الإسلامية عموما، سواء كانت دعوية أو سياسية أو "جهاديـــة"، وإنما امتد إلى مرتبة نقض النصوص القرآنية، الأمر الذي دفع بعض الباحثين إلى التعامل مع أولى مبادرات الإدارة الأمريكية في حقبة ما بعد تفجيرات نيويورك وواشنطن، من خلال قراءة خلفيات "الضغوط الأمريكية في المس بمدارس وعلمـــاء ومـــناهج دراســـية في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي، وتدفق الأموال الأمـــريكية لـــدعم مـــن تراهم شعوبهم رموزا للتبعية، للتحلل الأخلاقي، وللعداء للدين"، على أنها "حرب على الإسلام"[(1)].

كان على المتتبعين العرب والمسلمين انتظار خمس سنوات لصدور أول دراسة أكاديمـــية محـــسوبة علـــى الإدارة الأمريكية، تطرق بشكل صريح موضوع تحفيز النـــصوص القـــرآنية الكريمة على تبني خيارات العنف لدى المسلمين المتورطين في الـــتفجيرات، كمـــا لخـــصّتها الخلاصـــة التالية: "قد يكون القرآن الكريم مُحَفّزا للإرهابـــيين المـــسلمين للقيام بعمليات انتحارية"، صدر التقييم ضمن نتائج دراسة أشـــرف علـــيها بعـــض محللـــي الاســـتخبارات التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية

(1) بـــشير موســـى نافع: لماذا تبدو هذه الحرب حربا على الإسلام؟ القدس العربي، لندن، العدد 3903، 29 سبتمبر 2001.

(البنـــتاغون)، وذلك بهدف كشف دوافع اقتناع أعداد متزايدة من المسلمين بآراء تدعـــوهم إلى تنفـــيذ عمليات ضد غير المسلمين حتى لو أدت إلى أن يقتل أحدهم نفسه.

وحسب نتائج الدراسة، فقد اتضح بأن "كِتاب المسلمين المقدس وهو القرآن، الحافـــز وراء ذلـــك"، حيث تم اقتباس بعض آيات القرآن حول الجهاد والشهادة والجنة، وتشير إلى "اعتماد الانتحاريين في تحضيرهم قبل العمليات على بعض سور القرآن" ذكروا منها سور البقرة وآل عمران والتوبة[1].

من المسلّمات أن التعامل مع الخيط الناظم لنتائج الدراسة يبقى تحصيل حاصل بالنـــسبة إليـــنا مع اختلاف التسميات وخاصة المرجعيات، لولا أن الفارق يكمن أساسا في وصف هذا الجهادي بالانتحاري عند البعض أو الاستشهادي عند البعض الآخـــر أو حـــتى "الانقتالي"[2]، لولا أن تأمل خلفيات وتبعات تمرير هذا التقرير، يتطلب استحضار لائحة من الأدبيات الإسلامية المحسوبة على التيارات "الجهادية"، علـــى اعتبار أن العديد من هذه الأدبيات تحديدا، تتقاطع في رسائلها مع الأهداف المريبة لخلاصات هذه الأعمال الأكاديمية.

بين أيدينا دراسة حرّرها الشيخ صلاح الدين أبو عرفة، وتحمل عنوان "القرآن العظيم ينبّئ بدمار الولايات المتحدة وغرق الجيش الأمريكي: دراسة قرآنية أعدت في الأيام الأولى لأحداث واشنطن ونيويورك في الحادي عشر من أيلول 2001".

تتضمن الوثيقة عشرات الأسئلة اللصيقة بالمقارنة بين القراءة القرآنية (المقدسة) للحالة الفرعونية والقراءة الإسلامية الحركية (البشرية) مع حالة "فراعنة اليوم"، أو الـــولايات المـــتحدة الأمـــريكية، حيث افتُتِحت الوثيقة باستفسار يجمع بين أهم "دروس" نـــتائج الاستطلاع إياه، وبين ما تَجمع عليه الأدبيات الفقهية التي تسطر حياة المسلم، وجاء الاستفسار كالتالي: "كيف نقرأ واقعنا من كتاب الله؟"، وجاء الرد بَدَهيا، ومفاده أن "كتاب الله فيه المحكم والمتشابه والأمثال التي يصرّفها الله في

---

(1) صـــدر الخبـــر فـــي الموقع الإلكتروني لفضائية "العربية"، بتاريخ 1 تشرين الأول (أكتوبر) 2006، نقـــلا عـــن حيثـــيات تقرير أمني صادر عن وحدة سرية لاستخبارات وزارة الدفاع الأمريكية (Counter Intelligence Field Activity).

(2) بتعبيـــر طه عبد الرحمن، كما أشرنا إلى ذلك سلفا ببعض التفصيل في الفصل الأول من هذا العمل.

الكـــتاب تـــصريفا يناســـب أحوالهم وأمورهم ومستجداهم، كما يصرّف الرياح لينـــزل الماء مصرّفا حيث يحتاج إليه الناس. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُـــلِّ مَثَلٍ...﴾ (سورة الكهف، الآية 54)، و﴿... كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ (ســـورة محمد، الآية 3). فلا شك ضرب الله لنا مثلنا ومثل ما نحن فيه من الهوان والاستضعاف، ومثل ما فيه عدونا من الاستكبار والظلم والفساد".

وما دام الأمر يتعلق تحديدا بالإسقاط الجمعي بين فرعون أمس وفرعون اليوم، فـــإن الوثيقة تورد مجموعة من المقارنات في هذا الصدد، في صيغة استفسارات، من قبيل الاستفسارات التالية:

- هل بالضرورة أن تجري الأحداث كما جرت في المرة الأولى؟
- أرسل الله موسى إلى فرعون وهامان، فمن هامان اليوم؟ (ترى الوثيقة أن هامان كمـــا يصفه الله في سورة القصص، صاحب جند كما أن فرعون صاحب جند ﴿... وَنُـــرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾، فهما قطبان للـــباطل والظلم والفساد، ولن يعجب أحد إن قلنا إن هامان اليوم هو "المملكة المتحدة البريطانية"، كما أن فرعون هو "الولايات المتحدة الأمريكية").
- فـــرعون وأمريكا يستعينان بالحرب الإعلامية لمواجهة موسى، فما هي وسائل السحر الإعلامي لفرعون الأول؟
- شـــبكة الأخـــبار الأمريكية "سي إن إن" ساحر كبير! (إذا كان البيت الأبيض الأمريكـــي هو فرعون، فإن إعلامه الموجّه هو مَثل السحرة الأولين، والشبكة الأمـــريكية "ســـي إن إن" واحـــد من أكابرهم، والأحرف الثلاثة للكلمة هي اختـــصار لـــ "كيبل نيوز نت وورك". ليصبح معناها العربـــي الحرفي الدقيق "شبكة الأخبار بالحبال"!، فها هي الحبال تعود مرة أخرى)؟
- أمريكا تحشد الحلفاء كما فعل فرعون الأول.
- القرآن يصف حال أمريكا عندما تخرج لحربها الأخيرة!
- البيت الأبيض يأخذه الله من الأرض وهو في أعلى درجات استنفاره وزخرفه!
- ماذا عن "طالبان"، ومن مثَلهم في القرآن؟
- تحالف الشمال الأفغاني قام بموالاة الكفار والمشركين، فما مثلهم في كتاب الله؟ (مـــثلهم مكـــتوب في سورة الأحزاب، فليست سورة الأحزاب لليهود بل هي

ســورة تتنــــزل على كل من تحزب على المؤمنين.. لنقرأ عليهم قول الله في ســورة الأحــزاب 26-27، ﴿... وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِــيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾. إنهــا سنّة الله في الموالين للأحزاب، أن ينـــزلهم إنـــزالا، فأهل الكتاب الأولون نــــزلوا مـــن شمال المدينة ونـــزلوا من معاقلهم وحصونهم، وتحالف الأفغان المـــوالي للمـــشركين الـــيوم نـــزل كذلك من الشمال ونـــزلوا من معاقلهم وحصونهم لتتم عليهم كلمة الله.

"وأرضــا لم تطئوها"، وهي حصة أهل الكتاب في شمال المدينة وحصة تحالف الأفغان في شمال أفغانستان، كالـــ 10% التي لم يطأها الطالبان!

ومثّل أهل الكتاب يومها من اليهود بنو قريظة، ويقال في اللغة لمن ينسب لبني قـــريظة "قرظـــي"، ويمثلهم اليوم الرئيس الأفغاني المدعو "قرظاي". فالأفغان أصلا أعاجم ليس عندهم "ضاد"، فهو قرظاي وليس قرضاي أو غيرها).

جلّي أن هذه الاستفسارات والمقارنات صدرت تأسيسا على "تأويل" مجموعة مـــن الآيـــات القـــرآنية، كما توردها الوثيقة، وخاصة منها الآيات الست الأولى الـــواردة في ســـورة القصص التي "تقص علينا ماضيا وقع وانقضى وواقعا حاضرا يتكـــرر معنا مرة أخرى: ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَــضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (سورة القصص، من الآية 1 إلى الآية 6).

نطلـــع على نفس العقلية الاختزالية والإسقاطية المُميزة لأطروحات الحركات الإسلامية "الجهادية"، في ثنايا دعوة وجهتها قيادة تنظيم "القاعدة"، في نهاية 2007، إلى الـــصحافيين وغيرهم لطرح أسئلة عبر الإنترنت على الرجل الثاني بهذا التنظيم أيمـــن الظواهري، وكانت النتيجة أن أرسلت قرابة أكثر من ألف سؤال. ومع أن العديد من الأسئلة انصب على إستراتيجية "القاعدة" والحالة الصحية لزعيمها أسامة

بـــن لادن، ومدى وجود التنظيم بمناطق التوتر، لولا أن أهميتها القصوى، تكمن في تـــزكية الحـــديث عـــن ســـذاجة الجهـــاز المفاهيمي الذي يُنتجها، ونذكر منها الاستفسارات التالية:

- ســـؤالي كامرأة، هو: ما دور المرأة في القاعدة، نحن من يجلسن بقلوب منكسرة ونبقى هنا دون عمل شيء؟
- متى سنرى رجال القاعدة – حفظهم الله – يشنون الجهاد بفلسطين؟
- هـــل نقل الحرب على الصليبيين إلى قعر دارهم أصعب وأكثر كلفة من قتلهم داخل البلاد الإسلامية؟
- ما رأيكم حول مشكلة الانحباس الحراري، وما تأثير ذلك على الحرب التي تشن حاليا ضد الإسلام؟
- هـــل يجوز للبريطاني المسلم قتل مدنيين بريطانيين سواء كانوا كفارا أو مسلمين إذا كانوا يساندون الحرب على أفغانستان والعراق وغيرهما؟
- هـــل المـــرأة في مـــنطقة المغرب العربـــي عليها واجب الجهاد وإذا كان الأمر كذلك هل يجوز لها ترك أولادها مع شخص آخر والذهاب للجهاد؟[1].

المبحث الأول: بوادر الاشتباك الفقهي

بالعـــودة إلى الاستطلاع سالف الذكر، يجدر بنا أولا تزكية ما أشار إليه عزام التميمـــي، الـــباحث الإسلامي ومدير معهد الفكر الإسلامي السياسي في لندن، واصـــفا الوثيقة بأنها "محاولة لتبرير ما تقوم به الولايات المتحدة من أعمال في العالم الإســـلامي مـــن منطلق أن الإسلام خطر عليهم"، ومشددا على أن القرآن "يدعو للقـــتال دفاعا عن المظلومين ويُحرّم القتل بلا سبب"، ولهذا السبب إذن، تم وصف معظـــم الانتحاريين المسلمين بأنهم "تلامذة القرآن، وقالت الوثيقة إنه "في الإسلام ليـــست المـــسألة أن يعيش الإنسان حتى يصل إلى الخلاص الروحي بل المسألة هي كيف يموت، وهم يعتقدون بوجود منافع كبيرة وعظيمة لمن يصبح شهيدا، والموت أثـــناء قـــتال الكفار في سبيل الله يستحق الحصول على الجنة"، لولا أن مثل هذه

(1) انظـــر التقريـــر الإخـــباري الصادر في يومية الشرق الأوسط، لندن، عدد 28 كانون الثاني (يناير) 2008.

الدراسات، والخلاصات التي توصلت إليها، تتطلب منا أولا – قبل التفكير في الرد علـــى المـــسؤولين الغربيين – فتح أبواب نقاش إسلامي/إسلامي يتعرض بالتقييم الفقهي لما نطلع عليه في أدبيات الحركات الإسلامية "الجهادية".

وإذا تـــركنا جانـــبا حـــسابات الإدارة الأمـــريكية في تمرير هذه النتائج، ومعها الأدبـــيات الإسلامية "الجهادية" التي تؤصل بعمليات تفجيرية في الدول الغربية، ونذكر مـــنها على سبيل المثال لا الحصر، كتاب "التأصيل في مشروعية ما حصل لأمريكا من تـــدمير"، ويرتحل هذا الكتاب مع قلاقل التأصيل الشرعي لأحداث 11 أيلول (سبتمبر) 2001، وقد ألفه عبد العزيز بن صالح الجربوع، (حرره في 23 شعبان 1422هـــ) وقدم لـــه الـــشيخان حمـــود العقلاء (تقديم مؤرخ في 1 رمضان 1422هـــ)، والشيخ علي الخـــضير، وهـــناك أيضا كتاب "التأصيل الشرعي لأحداث أمريكا: غزوتي نيويورك وواشـــنطن"، مـــن تأليف حسين عمر بن محفوظ (حرره في 5 رمضان 1422هـــ 20 تشرين الثاني (نوفمبر) 2001)، و"الحرب الصليبية المعاصرة" و"الإعداد للجهاد وجوب الإعـــداد للأعداء" و"خُرّبت أمريكا" و"إنكار غزوتي نيويورك وواشنطن" و"الرد على الشبهات في حكم قتال المدنيين في برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك".. وغيرها من الأدبيات، فقد أصبح مطلبا ملحا اليوم التوقف عند الأدبيات "الجهادية" التي ترتحل مع التأصيل للقيام بتفجيرات تمس عقر الدول العربية والإسلامية، وهذا ما تم بالفعل في الـــسعودية وتونس والمغرب والأردن وتركيا وإندونيسيا..، فيما يُشبه الانخراط العملي في اشتباكات فقهية تأصيلية لما يصدر عن أدبيات "الجهاديين"، وهو عين ما صدر عن العديـــد مـــن الـــدول العـــربية والإسلامية، ونذكر ضمن لائحة بعضا من أهم هذه "الاشتباكات"، ما قامت السلطات الجزائرية مثلا في مطلع كانون الثاني (يناير) 2008، عندما دشنت "حملة دينية" تهدف لتفنيد فتاوى الجماعات المسلحة، حيث بث "إذاعة القـــرآن الكريم" الجزائرية يوم 21 كانون الثاني (يناير) 2008، برنامجا بعنوان "تحذير من الـــتكفير والـــتفجير" شـــارك فـــيه خمـــسة مشايخ يحظون بتقدير في الوسط الديني الجزائـــري[1]، ردّوا على أفراد تنظيم "القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي" الذين يستندون

(1) وهـــم أحمـــد سعيد بلعيد بن أبي سعيد، ونبيل مصطفى العصماني، من الجزائر، وأبو حازم عـــدنان عرور من السعودية، وأبو الحارث علي حسن عبد الحميد الحلبي من سورية، وعبد المالك رمضاني وهو فقيه جزائري مقيم بالسعودية.

إلى فـــتاوى غـــير معلـــنة، لا تحـــرم سقوط مدنيين في أعمال مسلحة إذا كانوا غير مستهدفين بصفة مباشرة(1).

في حـــين، أصـــدرت الـــسلطات السعودية، وفي خانة مقتضيات "الاشتباك الفقهي" مع أدبيات "الجهاديين"، حتى حدود خريف العام 2009 أكثر من خمسين إصدارا، ما بين كتاب، وكتيب ومطوية وشريط(2).

بالنـــسبة لباقي الدول العربية، فيمكن التوقف عند دلالات صدور فصليات إســـلامية ناطقة أو محسوبة على المؤسسات الدينية الرسمية، ارتأت الانتصار لخيار المقاربات المعرفية في معرض الاشتباك مع أدبيات الحركات الإسلامية "الجهادية"(3).

يـــشير ري آندرســـون، وهـــو مسؤول أمريكي ترأس دراسة حول تنظيم "القاعدة" كانت مخصصة للبنتاغون، وتمت خلال الفترة من 2003 حتى 2005، أنه إذا كـــان مسؤولا عن توجيه حملة المعلومات الاستراتيجية الأمريكية، فإنه سينفق "الإمكانيات المادية المتاحة في جمع صور للمسلمين الأبرياء الذين قتلتهم "القاعدة" مـــع وضع الآيات القرآنية التي تحرم مثل هذه الممارسات تحت كل صورة ونشرها في كـــل الصحف وبثها في كل محطات التلفزيون في العالم الإسلامي"، مضيفا أن

---

(1) الجزائر تطلق حملة دينية لتفنيد فتاوى الإرهاب. خمسة علماء دين يردون على "القاعدة" عبر "التحذير من التكفير والتفجير". تقرير إخباري أنجزه بوعلام غمراسة، الشرق الأوسط، لندن، العدد 10647، 22 كانون الثاني (يناير) 2008.

(2) نذكر منها: "قاعدة مختصرة في وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ وولاة الأمور"، "ضوابط تكفير المعين"، "نبذة مفيدة عن حقوق ولاة الأمر"، تأليف عبد العزيز العسكر، وتقديم عبد العزيز بن بـــاز، "الأمـــن وأهميته في المجتمع وخطورة الإخلال به"، (الشيخ صالح الفوزان)، "حرمة الـــنفس والإفـــساد في الأرض وترويع الآمنين" (خطبة للشيخ ابن عثيمين)، "ضوابط تكفير المعـــين" (عـــبد الله الجبـــرين)، "إعلان النكير على المفتونين بالقتل والتدمير والتفجير وشق عصا الطاعة" و"جريمة سفك الدماء" (الشيخ سامي بن أحمد خياط من مكة المكرمة)، "حسن الخلـــق وفن التعامل في ضوء الإسلام" (عبد الله الهباد)، "الإرهاب مقترحات علمية وعملية لمحاربة الإرهاب" (إعداد محمد الجعيثن)، "وصايا مهمة للشباب" (إعداد حزام المري)، "الغلو منكر من المنكرات دور هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إنكاره" (إعداد عبد الله العبيري)، "جهود هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تحقيق الأمن الفكري" (إعداد عبد الله الزهراني، من المدينة المنورة)، إضافة إلى العديد من المؤلفات الأخرى.

(3) ونخـــص بالذكـــر، صدور فصلية "التسامح" عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في سلطنة عمـــان، فـــصلية "الإحياء" عن الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، وفصلية "التواصل" عن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بليبيا.

واشنطن "قد تكون خسرت الحرب على الإرهاب، لكنها لا تفعل كل ما بوسعها للانتــصار"[1]، وواضــح أن مجالنا التداولي الإسلامي العربـــي يحفل بالعديد من الأمــثلة الدالة على هذا المأزق الفقهي الذي أسقطتنا فيه الأدبيات الفقهية المحسوبة علـــى الحـــركات الإسلامية "الجهادية"، نذكر منها من باب الاستشهاد، عناوين الأدبيات التي صدرت عن مُنَظِّر واحد فقط من المُنَظِّرين الجهاديين، وهو أبو بصير الطرطوسي: "أسباب فشل بعض الحركات الجهادية في عملية التغيير" و"أنتمُ البادئُ يـــا آلَ سعود وأنتمُ الأظلَم" و"دعاة أم طغاة" و"ما هكذا يا إخوان تُكتب الرسائل للطواغـــيت" و"فصل الكلام في مسألة الخروج على الحكام" و"صفة مساجد ضرار الـــتي يجب اعتزالها" و"قاعدة من قواعد التكفير" و"هذه عقيدتُنا وهذا الذي نَدعُو إلـــيه" و"فصل الكلام في مسألة الخروج على الحكام"، أو عناوين الأدبيات التالية الـــصادرة عـــن فاعلين آخرين: "إرشاد الحيارى في إباحة دماء النصارى في جزيرة العرب" و"الإعداد للجهاد وجوب الإعداد للأعداء" و"هكذا نرى الجهاد ونريده" و"انـــتقاض الاعتـــراض على تفجيرات الرياض" و"الحق واليقين في عداوة الطغاة" و"غزوة بدر الرياض".. إلخ.

نلاحـــظ أولا أن الأمـــر لا يتعلق بمقالات صحافية أو بدروس فقهية موجهة للاســـتهلاك الإعلامي/التجاري، أو المزايدات الدينية المُمارسة من قِبَل العديد من فقهـــاء الـــساحة العـــربية والإســـلامية، وحتى من قِبَل بعض الفقهاء الإسلاميين المنخـــرطين في اللعـــبة السياسية، وإنما نحن إزاء اجتهادات فقهية أصبحت مرجعية لدى الإسلاميين "الجهاديين"، وواضح أن المواجهة الحركية/الميدانية لهؤلاء لن تعرف نهايـــتها إذا اقتصرت على الجوانب الأمنية والاستخباراتية والسياسية[2]، ومن هنا أهمية ملاحظة دقيقة أشار إليها المفكر المصري حسن حنفي، عندما اعتبر أن انفجار تشرين الأول (أكتوبر) 1981[3]، كان "انفجارا عقائديا بالأساس، ويدل على ذلك أسئلة المحققين المتلاحقة لكل المتهمين الـــ 24: هل قرأت "الفريضة الغائبة"؟ وكان

---

(1) ري آندرســـون. لماذا تخسر القاعدة؟ الشرق الأوسط، لندن، العدد 10647، 17 كانون الثاني (يناير) 2008.

(2) عبـــر إدماج الإسلاميين في اللعبة السياسية، أو الترويج وتشجيع بعض التيارات الصوفية.. إلخ.

(3) يقصد مقتل الرئيس أنور السادات.

كتيبا صغيرا لا يتجاوز الخمسين صفحة، قادرا على تغيير وجه مصر وقلب موازين القوى في المنطقة[1].

ونلاحظ ثانيا أن هذه الأدبيات التي تؤسس اجتهاداتها انطلاقا من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، تتوقف عند سؤال الشرعية لدى الأنظمة العربية والإسلامية، قبل أن تتطـــرق لتـــبعات سياسات الإدارات الغربية[2]، بما يبرر تأكيد البعض على أن مواجهة عنف الحركات الإسلامية، "لن تتم باعتباره مصدرا خارجيا أو عبر اعتماد منطق القوة فقط، ولكن بفهم آلياته وميكانـــزماته وبتفكيك خطابه"[3].

وواضـــح أخيرا، أن تقييم سياسات الإدارة الأمريكية أو الإدارة الإسرائيلية – وإن كانـــت ذات السياسات تغذي مشاعر السخط عند جميع المسلمين، وبدرجة أكـــبر عند الإسلاميين، معتدلين كانوا أم "جهاديين"، لا تُجسّد الهاجس الأكبر في هـــذه الأدبيات، وإنما تمرير ما يسمى "التأصيل الشرعي" للسياسات الصادرة عن الـــسلط الـــزمنية الحاكمة، سواء كانت ملكية أو جمهورية أو مؤسسات عسكرية تقـــود سدة الحكم في المشهد السياسي لقطر عربـــي/إسلامي مُعَيَّن، والتي أوجزها الناشـــط الباكستاني طارق علي، بمرجعيته العلمانية، بالتأكيد على أنه بـــ "النسبة للإسلاميين، لا أحد من حكام الدول الإسلامية اليوم يُعتبر مسلما "حقيقيا"، ولهذا لزم النضال لتغيير الأنظمة القائمة واستبدالها بإمارات مقدّسة"[4].

– ونلاحـــظ ثالـــثا أننا لا نطلع على قراءات فقهية نقدية رصينة ومن "العيار الثقـــيل" لأدبيات "الجهاديين"، صادرة عن فقهاء المؤسسات الدينية الرسمية، أو ما يـــصطلح علـــيه البعض بفقهاء مؤسسات "الإسلام الرسمي"، وكل ما يصدر عن هـــؤلاء لا يتجاوز سقف التنديد الرسمي ضد هذه التفجيرات، في حين أن التنديد

(1) حسن حنفي: "الحركات الإسلامية في مصر"، المؤسسة الإسلامية للنشر، بيروت، ط1، 1986، ص 101.

(2) توقفنا عند هذا المطب ببعض التفصيل في الفصل الرابع من كتاب "نحن وتنظيم القاعدة"، دار الأوائل، دمشق، 2008.

(3) بـــومدين بوزيد: سلطة الرمز وخطاب العنف، ضمن كتاب "الإسلاميون والمسألة السياسية"، مرجع سابق، ص 216. ونشرت الدراسة أيضا في مجلة المستقبل العربي، السنة 20، العدد 228، شباط (فبراير) 1998.

(4) طارق علي: صدام الأصوليات، مرجع سابق، ص 361.

يـــصدر حـــتى عـــن "العامة" و"الرأي العام"، قبل صدوره عن النخب السياسية والأمنـــية، لـــولا أن من مهام الفقهاء المسلمين اليوم، أو علماء الأمة – باعتبارهم يحملون مسؤولية "المثقف الديني"، وبالتالي الاجتهاد أكثر من "قول الحقيقة" بتعبير المفكـــر الألمعـــي وعـــالم اللسانيات الأشهر، نعوم تشومسكي – الانخراط في نقد ونقض الأدبيات الإسلامية الحركية المحسوبة على التيارات "الجهادية".

ولعـــل ما يُحسب لصدمة منعطف تفجيرات نيويورك وواشنطن، أنها أكدت على أن "الفقه التقليدي عاجز عن صياغة موقف سياسي رشيد، ليس ذلك بسبب ســـوء أو تعمد في هذا الفقيه أو ذلك، بل لأن هذا هو شأن الحركة التاريخية للفقه الـــتي أقفلـــت باب الاجتهاد وأخذت تربـــي الجماهير فقهيا على مواقف وأفكار موروثة تقيس الحاضر على الماضي، مما يجعلها في ارتباك ومواجهة دائمة"[(1)]، وسبق أن تطرقنا لهذا المأزق البنيوي لدى المؤسسات الدينية الرسمية في الفصل الخامس من كتابـــنا "نحـــن وتنظـــيم القاعـــدة"، والمعنون بـــ "تنظيم القاعدة وحتمية المجابهة الفقهية")، وما يُحسب لها أيضا، أنها قلّصت من هوة "الشرخ الذي كان قائما بين علمـــاء المؤسسة والشارع العربـــي والإسلامي، قبل أن تتطور نحو بعض التقارب بفعـــل الاعـــتداءات التي طالت الدول العربية والإسلامية (السعودية، إندونيسيا، تركيا، المغرب..)[(2)].

كمـــا أن إصرار فقهاء وعلماء المؤسسات الدينية الرسمية على تفادي الخوض في اشـــتباك فقهي مع أدبيات "الجهاديين"، يطيل في أمد الحرب القائمة بين الدول العربية والإسلامية والحركات الإسلامية "الجهادية"[(3)] وفي أحسن الأحوال، يُشوش علـــى المتتـــبع وصـــانعي القـــرار في معرض تبني هذا الخيار أو ذاك، بالصيغة التي نستشفها على سبيل المثال لا الحصر، بتذكير عالم من علماء المؤسسة الدينية الرسمية

---

(1) يحيى الأمير: أيام الإرهاب في السعودية، مرجع سابق، ص 128.

(2) Farhad Khosrokhavar. La victoire d'Oussama Ben Laden, Le monde, Paris, 23 novembre 2001.

(3) ويفـــسح المجـــال لتـــرويج أطروحات غربية اختزالية تزعم امتلاك "الحل السحري" للحسم النهائـــي فـــي هذه الحرب، نذكر منها ما يصدر عن دانيال بايبس الأمريكي (يهودي الديانة) وألكـــسندور ديل فال الفرنسي (مسيحي الديانة) ومنصور إسكوديرو الإسباني (مسلم الديانة)، ولائحة طويلة من الأقلام الغربية والشرقية.

بالمغرب، من أن "مهمة علماء المغرب تجاه الحركات (الإسلامية) التي توظف الدين في استقطاب الجماهير، واستغلال الأمية والأوضاع الاجتماعية، تقتضي وضع الاستراتيجيات الكفيلة بمواجهة التسويق للدين بأسلوب غير علمي ولا نـزيه"، شرط ألا يكون العلماء، بتوصيف نفس المسؤول، من طينة "الفقهاء العارفين فقط بأحكام الحلال والحرام، وإنما الذين تتسع مداركهم وعقولهم لما يعرفه العصر من علوم إنسانية جديدة، بعد استيعابهم العلوم الإسلامية، وبما يضفيه الفكر الإنساني المعاصر من غِنى وعمق في شتى مناحي الحياة، والذين يستخلصون من المعرفة الشاملة والعصرية في هذه المجالات التصورات المتكاملة والمفاهيم التجديدية التي يجب أن يتضمنها الخطاب الإسلامي في المرحلة الراهنة"[1].

وبَدَهي أن أغلب علماء المؤسسات الدينية الرسمية في المجال التداولي الإسلامي العربي على الأقل، أبعد بكثير عن مقتضيات هذه المرتبة العلمية المطلوبة اليوم من العالم المسلم المعاصر للقرن الواحد والعشرين، بل إن المفارقة، في النموذج المغربي، أن الندوة اليتيمة التي نظمتها مؤسسة دينية رسمية في معرض التصدي الفقهي لأدبيات "الجهاديين"، ونظمتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتعاون مع المجلس العلمي الأعلى[2]، تميزت بمداخلات علماء وفقهاء محسوبين على التيار السلفي العلمي[3] ممن ارتحلوا مع دحض الأسس الشرعية للتطرف ببيان الحكم الفقهي في عدد من القضايا والمقولات المولدة للعنف والتشدد من قبيل ظاهرة التكفير، والحاكمية، والشورى، والجهاد، والسلفية،

---

(1) حوار مع محمد الكتاني، (عضو الأكاديمية المغربية)، أجراه جواد الشقوري، مجلة الإحياء، الرباط، العدد 27، شباط (فبراير) 2008.

(2) نظم اليوم الدراسي يوم 19 أيار (مايو) 2007، تحت شعار "حكم الشرع في دعاوى الإرهاب".

(3) حيث ألقيت المحاضرات التالية: "ثقافة الإرهاب قراءة شرعية"، للدكتور مصطفى بن حمزة؛ "الجاهلية: مفهومها وسماتها وحكم من يصف المسلم بها"؛ "الخلافة الراشدة: الوهم والحكم"؛ "الشورى والديمقراطية"؛ "الحاكمية وظاهرة الغلو في الدين"؛ "الخوارج: سماتهم وجامع أفكارهم"؛ "اللامذهبية في الفقه"؛ "السلفية بين الغلو والاعتدال"؛ "مفهوم "الولاء والبراء" في الإسلام"؛ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"؛ "فتنة التكفير"؛ "الإرهاب ودعوى الجهاد"، وينتمي أغلب هؤلاء، إلى تيار "السلفية العلمية"، والذي يُعتبر المنهل اعقدي والفقهي لأبرز الحركات والأحزاب الإسلامية المغربية.

والخلافة، والخروج عن الإجماع، والولاء والبراء، وقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا حاجة للترحال المقلق مع تحديات جمّة تنتظر المؤسسات الدينية الرسمية في الوطن العربي والعالم الإسلامي، أكبر وأعقد بكثير من شجاعة الانخراط العلمي الرصين في نقد ودحض أطروحات الحركات الإسلامية "الجهادية"، ونتحدث عن مواقفهم من "السياسة الشرعية" للسلطات الزمنية الحاكمة، والتي أفرزت فيما مضى من التراث الإسلامي العربي، محنة الإمام أحمد بن حنبل أو أبي يزيد البسطامي، وهي محنة أشبه بعقدة كبرى تقوم على "الفصام الذي يفصل بين الفقهاء الذين يستندون إلى مرجعية إسلامية وبين القضاء والسلطة السياسية التي لا تلتزم المرجعية الإسلامية، وتستند إلى مرجعية تجعل الدين منفصلا عنها له مرجعيته الخاصة"، وجلّي أنه ما لم يدرك الفقهاء التحول التاريخي والجذري الذي أصاب صلب الدولة الإسلامية والمجتمعات وتغير أنماط الحياة، فليس عليهم أن "يستغربوا غربة فكرهم وتقلص أدوارهم لطالما كانوا هم أول من ينخرط في معاملات ضرورية في حياتهم، وهي لا تطابق رؤيتهم الفقهية، بل كيف لهم أن يستنكروا هذا الفصام ولم يدركوا بعد أن رؤساء الدول الذين يحكمونهم ليسوا امتدادا لوظيفة خليفة المسلمين الذي يتصورونه، وكل منهم يخاطب رئيسه أنه أمير المؤمنين"[(1)].

بالعودة إلى مقتضيات الاشتباك الفقهي مع أدبيات "الجهاديين"، مهم للغاية، تذكير صناع القرار الديني في المجال التداولي الإسلامي العربي أن هذا المجال يعُجّ منذ عقد ونيف، أي قبل منعطف تفجيرات نيويورك وواشنطن، باجتهادات تيار "المراجعات" الصادر عن الحركات الإسلامية التي تخلت عن "الخيار الجهادي"، وفي مقدمتها "الجماعة الإسلامية" المصرية[(2)]، أو ما صدر عن بعض الأقلام المصنّفة

---

(1) عبد الرحمن حللي: التجديد الديني وظاهرة التطرف في السياق الإسلامي المعاصر، ضمن أعمال كتاب "الإسلام في عالم متغير، دار فكر، دمشق، ط1، 2005، ص 103.

(2) ونوجز أهم "أدبيات المراجعة" عند الجماعة الإسلامية" في كتاب "استراتيجية وتفجيرات القاعدة: الأخطاء والأخطار" وكتاب "نهر الذكريات: المراجعات الفقهية للجماعة الإسلامية" ثم سلسلة تصحيح المفاهيم، وتضم أربعة كتب: "مبادرة إنهاء العنف: رؤية شرعية ونظرة واقعية"، "حرمة الغلو في الدين وتكفير المسلمين"، "تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء"، "النصح والتبيين في تصحيح مفاهيم المحتسبين"، وقد أشرف على إعداد جميع

ضمن خانة "التيار الجهادي"، ونخص بالذكر نوعية الانتقادات الفقهية الصادرة عن عمـــر عبد الحكيم، الملقب بأبـــي مصعب السوري[1]، والموجهّة على الخصوص ضـــد أدبيات أبو قتادة، كما جاء ذلك في كتابه "مُختصَر شهادتي على الجهاد في الجزائر"، حيث أوجز أهم خلاصات تجربة "الجهاديين" الجزائريين، في فصل كامل من عمله القيّم، ونقتطف منها نقطتين أساسيتين:

- كـــان "الإســـلاميون المعتدلون قد حددوا موقفهم من الجهاديين، وهو المنابذة، واتخذوه وسيلة لتبرئة أنفسهم من تهمة الإرهاب والتطرف أمام الحكومات وأمام الأجهزة الغربية، هذا فضلا عن الخلاف العقدي الحقيقي حول مسألة الديمقراطية الـــتي لغوا بها عمليا. وكانت سياسة الغرب كما أعلنها الرئيس الفرنسي الأسبق فرانـــسوا ميتران تقوم على "ضرب الإسلاميين المتطرفين بالإسلاميين المعتدلين"، وقـــد فهم زعماء الصحوة الإسلامية اللعبة واستغلوها لصالحهم، وباع كثير منهم دينهم بدنياهم وآثروا السلامة والمكاسب باسم مصلحة الدعوة.
- "التأكـــيد على رفض أفكار الغلو والعدوان على شعوب المسلمين وتهمتهم في ديـــنهم وعقـــيدتهم وتكفيرهم ظلما وعدوانا، كما حصل من أولئك الأوباش المنحرفين في الجزائر"[2].

هـــذه الأدبيات، وغيرها كثير، كل من كرم محمد زهدي وناجح إبراهيم عبد الله وعلي محمد علـــي الشريف وأسامة إبراهيم حافظ وحمدي عبد الرحمن عبد العظيم وفؤاد محمد الدواليبي وعاصم عبد الماجد محمد ومحمد عصام الدين دربالة.

(1) لعـــل ثقـــل هـــذا الاسم الحركي لدى قواعد الحركات الإسلامية، يُفسّر انخراط بعض الباحثين الغربيين، على قلتهم، في تفكيك أدبيات أبو مصعب السوري، ونخص بالذكر، حيثيات كتاب قيّم للغايـــة ألفه الباحث النرويجي برينيار ليا، ويحمل عنوان: "أبو مصعب السوري: مهندس الجهاد العالمي"، والباحث بروفيسور في "المؤسسة النرويجية للأبحاث الدفاعية" (FFI)، ونعتبر أن هذا العمـــل أبرز مبحث حُرّر حول دور ومشروع أبو مصعب السوري، ليس في المجال التداولي الغربـــي وحـــسب، ولكـــن حتى في المجال التداولي الإسلامي العربي، بالنظر إلى ما حررته الأقـــلام العربية والإسلامية التي ارتأت الارتحال مع نشر أعمال استطلاعية حول أبرز رموز تنظيم "القاعدة"، حيث كانت الأولوية لتسليط الأضواء على أسامة بن لادن وأيمن الظواهري.
انظر:
Brynjar Lia. Architect of Global Jihad: The life of Al-Qaida Strategist Abu Mus'ab al-Suri, London: Hurst 2007, 510 pp.

(2) انظـــر: أبو مصعب السوري (عمر عبد الحكيم): مختصر شهادتي على الجهاد في الجزائر (1988– 1996)، ضـــمن سلـــسلة قضايا الظاهرين على الحق، العدد 6، مبحث مؤرخ في 1 حزيران (يونيو) 2004.

المبحث الثاني: تطبيقات الاشتباك الفقهي

جلّي أن نقد البنية الفقهية التي يتأسس عليها خطاب تنظيم "القاعدة"، يختلف في مرجعيته الفقهية حسب انتماءات المعني بتحرير التقييم، وبالنتيجة، فإن التقييم المتوقع صدوره، مثلا، عن فاعل إسلامي حركي يختلف نظريا عن النقد المتوقع صدوره عن أحد الأئمة المسلمين المعتبرين في مجالنا التداولي الإسلامي العربي، لولا أننا بصدد الحديث عن آلاف من الأئمة في ربوع العالم الإسلامي، من جاكارتا إلى الدار البيضاء، دون الحديث عن أئمة الأقليات والجاليات الإسلامية المقيمة في الغرب والشرق على حد سواء.

وضمن هؤلاء الأئمة، هناك من يؤيد أسامة بن لادن في السر والعلن، وهناك من يختلف معه ويواجهه بالنقد والنقض، ولو أن الحديث عن "اختلاف أطروحات المؤسسات الدينية في الدول الإسلامية (باستثناء الحالة الباكستانية)، مع أطروحات أسامة بن لادن، لا يغير الشيء الكثير في المعادلة القائمة، لأن هذا يكرس الطلاق القائم بين العلماء والمجتمع الحقيقي، المهمش والعالة على الأقوياء"، بتعبير المفكر الإيراني فرحاد خوسرو خافار[1]، وهناك من يقف في مرتبة "بين – بين"، وحالة "بين – بين" هذه لصيقة على الخصوص بالعديد من الحركات الإسلامية المنخرطة في اللعبة السياسية، التي طلقت العمل الجهادي، وتجاوزت مرتبة العمل الدعوي، حيث إن إبداء مواقف صريحة مما يصدر عن ابن لادن ومن معه، يجلب معه الكثير من القلاقل في حسابات العمل السياسي، وغالبا ما يعلنون صراحة أنهم ضد القيام بأي اعتداءات ضد الدول العربية والإسلامية، ونحسب أنهم صرحاء وصادقون في هذه الجزئية، على غرار ما يصدر عن أي فقيه مؤسسة أو فقيه حركة إسلامية معتدلة.

نحن لا زلنا في سقف تدبير الاختلاف الفقهي/الشرعي حول التفجيرات التي تعصف بالدول العربية والإسلامية، ويمكن والحالة هذه، استحضار طبيعة الخلافات الفقهية بخصوص الاعتداءات التي تعصف بالدول غير الإسلامية، ولأن عالمنا الإسلامي يعج بالأئمة والفقهاء والدعاة، تزداد حيرة "العامة" و"الرأي العام" و"الرعية" اتجاه هذه الاعتداءات، لولا أن مجالنا التداولي أفرز مجموعة من العلماء

---

(1) Farhad Khosrokhavar, La victoire d’Oussama Ben Laden, Le monde, Paris, 23 novembre 2001.

الذين يُشهد لهم بالمرجعية والمصداقية، من خلال وجود حدود أدنى من "التفويض" الشعبـــي، أو "تفويض الرعية"[(1)] لهؤلاء الفقهاء.

وضـــمن هـــذا الإطـــار، نستوعب أهمية ما صدر عن فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي، ليس بالضرورة لأنه رئيس "الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين"، ولكن لأنه أحـــد أبـــرز المـــراجع الفقهية في العالم الإسلامي، إن لم يكن "فقيه الأمة" الأول، والفقـــيه الأبرز والمُجَسّد لتيار عريض يتأسس على شعار "الوسطية": قولا وممارسة وتفاعلا مع الذات والغير.

في منتـــصف أيلول (سبتمبر) 2007، وَجَّهَ القرضاوي دعوة صريحة إلى أتباع أســـامة بن لادن في منطقة المغرب العربـــي، أو ما أصبح يصطلح عليه بـــ "تنظيم القاعـــدة في بـــلاد المغـــرب الإسلامي" لأن "يعودوا إلى رشدهم ويتوبوا إلى ربهم ويراجعوا دينهم على غرار ما قام به إخوانهم في "الجماعة الإسلامية" في مصر الذين أعلـــنوا صراحة عن تخليهم عن منهج العنف والإرهاب بعد سنوات من سلوكهم لهذا الطريق الخطأ"، مخيرا إياهم بين منهجين اثنين: "إما أن تفيق هذه القلة الشاردة وتـــتوب وتنضم إلى شعبها، وإما أن تزول وتنقرض كما انقرضت جماعات قبلها دمـــغ الحق باطلها ومحاها الرشد وفقا لسنة الله في الخلق" مستشهدا بالآية الكريمة: "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض"[(2)].

---

(1) معلـــوم أن ســـؤال المواطـــنة يـــؤرق حـــسابات صناع القرار السياسي في الدول العربية والإســـلامية، حتـــى أنهم غالبا ما يخاطبون "العامة" و"الرأي العام"، في الخطابات الرسمية بالإحالة صراحة على لفظة الرعية والرعايا، قبل الحديث عن المواطن والمواطنة.

(2) جـــاء ذلك في رسالة عزاء أرسلها الشيخ القرضاوي الاثنين 17 أيلول (سبتمبر) 2007 للرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة، لمواساته في الاعتداءين اللذين هزا مدينتي باتنة (400 كم شرق العاصـــمة الجزائر) ودلس الساحلية (100 كلم شرق العاصمة)، وخلفا أكثر من 60 قتيلا و200 جريح، وتساءل القرضاوي: "كيف يزعم هؤلاء الذين يسفكون دماء أهلهم أنهم إسلاميون.. ومن أيـــن يستقي هؤلاء أفكارهم السوداء التي تستحل قتل الناس بالجملة، والرسول الكريم يحرم أن يـــشير المـــسلم إلى أخيه بالسلاح مجرد الإشارة" مضيفا أنه "لا قدوة لهؤلاء إلا الخوارج الذين اســـتحلوا دماء من عداهم من المسلمين وأموالهم". كما أعرب الشيخ/المرجع عن دعمه لبوتفليقة بـــشأن الدعوة للمصالحة والسلم، قائلا: "أشد على أيديكم مؤيدا ومساندا إصراركم على موقفكم الـــثابت مـــن الدعـــوة إلى السلم والمصالحة العامة وطي صفحة الماضي السوداء وجمع أبناء الجزائـــر تحت راية واحدة". كما أعلن القرضاوي تأييده الكامل "للموقف الرافض للتطرف بكل صوره وأنواعه سواء أكان تطرفا علمانيا أم كان تطرفا إسلاميا".

وتـــزامنا مـــع دعـــوة الشيخ القرضاوي لأتباع تنظيم "القاعدة" في المغرب العربـــي، والثقل الشرعي لرسالته الصريحة، إلى درجة قراءتها من قبل البعض على أســـاس أنها "فتوى شرعية بتحريم العنف المسلح باسم الإسلام ضد مسلمين أبرياء حـــتى لو كان ذلك في سياق مواجهة مع نظام أو حكومة"[1] وَجَّهَ داعية مرجعي هـــو الآخر، على الأقل في منطقة الخليج العربـــي، انتقادا لزعيم تنظيم "القاعدة"، معتبرا أنه "تسبب في أكبر الويلات" التي يتعرض لها العالم الإسلامي حاليا، ويتعلق الأمـــر بالداعية السعودي سلمان بن فهد العودة، ونرى أن ما صرّح به العودة في هـــذه الرسالة[2] يختزل جبهات عديدة في حقيقة مواقف أهل السياسة والفقه والفكر والـــشارع من تنظيم "القاعدة"، ما دامت تقترب أكثر، في تسمية الأمور بمسمياتها

القرضـــاوي يدعو "قاعدة المغرب" للتوبة. تقرير إخباري عن موقع "إسلام أون لاين. نت"، 18 نيسان (أبريل) 2007.

(1) اعتبـــر أحد المعلقين أن انتقادات القرضاوي تمثل "فتوى شرعية بتحريم العنف المسلح باسم الإســـلام ضد مسلمين أبرياء حتى لو كان ذلك في سياق مواجهة مع نظام أو حكومة، فنحن هنا أمام حالة تمرد ورفض عشوائي تنطوي على حالة تخبط في التفكير والسلوك".
عـــبد الحلـــيم غزالـــي: رسالة القرضاوي ودور النخب في منع الالتباسات وتسليح السخط، الراية، قطر، 23 أيلول (سبتمبر) 2007.

(2) ســـلمان العـــودة: اللهم إنا نبرأ إليك مما صنع بن لادن. تقرير إخباري عن موقع "إسلام أون لايـــن. نـــت. مقـــال مؤرخ في 17 أيلول (سبتمبر) 2007، نقلا عما جاء في برنامج "حجر الزاوية"؛ الذي يبث على قناة (إم بي سي) السعودية.
سنتان بعد رسالته الأولى، سوف يحرر سلمان بن فهد العودة، رسالة ثانية تحت عنوان: "معا ضـــد إرهاب القاعدة"، ونشرت في عدة مواقع إلكترونية، منها موقع العصر"، ومؤرخة في 14 شـــوال 1430هـــــ الموافق لـــ 3 تشرين الأول (أكتوبر) 2009، داعيا "العلماء والدعاة المخلـــصين إلـــى تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية، ونزع الاسم الربّاني المقدّس "الجهاد" عن أعمـــال التنظيمات القتالية، التي تقتل الأبرياء، وتزعزع الأمن في بلاد الإسلام، أو في بلاد أخـــرى بيننا وبينها عهد وميثاق"، مضيفا أن "القاعدة لم تعد هي القاعدة أيام أيلول (سبتمبر) 2001؛ فقد تحوّلت إلى ظاهرة إعلامية، يتشبث بها الكثيرون، ممن يريدون أن يحصلوا على الاســـم الرمزي فحسب، وأن يحشدوا الشباب تحت هذه المظلة، وبهذا تغيّرت الإستراتيجية، وانفلـــت الـــشّر مـــن عقاله، وأصبح شظايا في كل مكان ذات صفة محليّة، وصدى عالمي؛ وكأنهـــا "ماركة مسجلة" يحصل عليها من يشاء، ويتحرك باسمها، وإن لم تأخذ صفة التنظيم المحكـــم الوثيق الصلة ما بين قيادته وقاعدته"، مع التنويه الضروري في هذا السياق، إلى أن حـــديث ســـلمان بـــن فهد العودة عن "القاعدة" باعتبارها "ماركة مسجلة"، يحيلنا على مبحث مرجعـــي ســـبقت الإشـــارة إلـــيه في الفصل الأول من هذا العمل، وحرره المفكر المغربي مصطفى المرابط، وجاء تحت عنوان: "الإرهاب علامة مسجلة".

الحقيقــية، وتكــشف عن مواقف الداعية المسؤول من قضايا كنا نتفادى الخوض فيها.

أشــرنا سلفا إلى مأزق ازدواجية مواقف بعض رموز الحركات الإسلامية في معــرض إبــداء مواقــف صريحة من عمليات التنظيم، بين التنديد العلني ضد أي اعــتداءات تمــس دولا عــربية وإسلامية، وبين تبنّي خيار الصمت في حق أسامة بــن لادن وأتباعه، وهو ما يختلف في رسالة سلمان بن فهد العودة، والذي سبق له أن أدان مــع آخــرين الهجمــات التي نفذها تنظيم "القاعدة" ضد مصالح غربية وأهــداف أخرى في السعودية، إلا أنه لم يسبق أن وجه انتقادا مباشرا لابن لادن، ولهــذا السبب، نورد بالحرف نموذجا من الأسئلة الدقيقة الواردة في رسالة الداعية السعودي:

- ماذا جنينا من تدمير شعب بأكمله كما جرى في العراق وأفغانستان؟
- من المستفيد من محاولة تحويل المغرب والجزائر والسعودية وغيرها إلى بلاد خائفة لا يأمن فيها المرء على نفسه؟[1].
- هــل هناك تصميم على الوصول إلى الحكم ولو على جثث الآلاف المؤلفة من المسلمين؟
- مــن المــسؤول عــن شباب ذهبوا للقتال وتركوا خلفهم أمهات مكلومات وزوجات حزينات، وأطفالا يتامى ينتظرون بذهول عودة أبيهم؟
- مــن المــسؤول عن ملاحقة العمل الخيري والشك في كل مشروع إسلامي، ومطاردة الدعاة في كل مكان بتهمة العنف والإرهاب؟
- وأخــيرا، مــن المــسؤول عن اكتظاظ السجون بالشباب، حتى أصبحت هذه السجون مفرخة لموجة جديدة من التكفير والغلو والعنف والتطرف؟

نأتي لنموذج نقدي ثالث، لا يقل أهمية، جاء على لسان النائب الكويتي وليد الطبطبائي، أحد رموز ما يُصطلح عليه بتيار "السلفية العلمية" في الكويت، موجها انــتقادات صــريحة إلى زعــيم تنظيم "القاعدة"، ومعتبرا أن تنظيمه "أضر بالعمل الإســلامي والدعوة الإسلامية في شتى أنحاء العالم"، ومطالبته بــ "استشارة العلماء

(1) وهــذا استفسار يحيلنا على سؤال أكبر ومؤرق: "ما هو مشروع تنظيم "القاعدة" بالضبط في المنطقة العربية والعالم الإسلامي؟

الـــثقات وأهـــل الرأي والحكمة في العالم الإسلامي"[1]، فيما يزكي ما أشرنا إليه ســـلفا بخـــصوص حتمـــية تدخل العلماء الثقات وأهل الرأي والحكمة في العالم الإسلامي، من أجل الحسم مع ما يصدر عن "الجهاديين" المعاصرين.

في إطـــار اســـتحقاقات الاشتباك الإعلامي والجدلي مع انتقادات الطبطبائي المـــوجه ضـــد "الجهاديين" بشكل عام، انتقد كاتب سعودي مضمون رسالة وليد الطبطبائي، ويهمنا التوقف عند نقطتين أساسيتين في مقاله النقدي:

- تـــتعلق الأولى بمـــا يـــشبه التقزيم من صدقية وصوابية النصيحة، ملاحظا أن اختلاف الطبطبائي مع ابن لادن "ليس إلا خلافا على تقدير المصالح، وهو ليس اختلافا على المبادئ، وليس اختلافا على المستوى القيمي والأخلاقي، بل على المـــستوى الحركي والمصلحي البحت. ولو أن أعمال القاعدة لم تلحق ضررا بـــ "المشروع الإسلامي" الذي تمثله الحركات والتيارات والجمعيات المالية، لما خـــرجت مـــثل هذه الرسالة أصلا، ونظائرها من الرسائل"[2]، مع أن الشيخ يوســـف القرضـــاوي – حتى نرفع سقف النقد الفقهي، ومعه سقف المرجعية الفقهـــية أيـــضا – لم يتوقف فقط عند نموذج "الأضرار التي لحقت بالمشروع الإســـلامي"، وأقلها شن الحروب الأمنية والمالية على جمعيات الأعمال الخيرية والدعوية في الشرق والغرب على حد سواء، بل كان صريحا وواضحا في النقد من خلال الإشارة مثلا إلى أنه "لا قدوة لهؤلاء إلا الخوارج الذين استحلوا دماء مـــن عداهم من المسلمين وأموالهم" منوها بمبادرة المصالحة والسلم التي يتبناها ويدعو إليها الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة[3].

---

(1) ولـــيد مـــساعد الطبطبائـــي: رســـالة.. إلى الشيخ أسامة، "الوطن"، الكويت، عدد 27 أيلول (سبتمبر) 2007.

(2) مـــشاري الذايـــدي: عاتبون عليك يا "شيخ"، الشرق الأوسط، لندن، العدد 10542، 9 تشرين الأول (أكتوبر) 2007.

(3) وكـــان علينـــا انتظار مطلع شهر أبريل 2008، حتى نطلع على رد أيمن الظواهري، الملقب بالرجل الثاني في تنظيم "القاعدة"، بسبب من العمليات المفخخة والخسائر المدنية فوصفه بأنه "يـــصدّق أكابر المجرمين ويكذب المجاهدين" فقط لأنه "أشاد بنظام الرئيس المصري، حسني مبارك، رغم اتفاقية السلام والتطبيع مع إسرائيل وحصار الفلسطينيين في غزة".
قـــصاصة إخـــبارية عـــن شريط لأيمن الظواهري، القدس العربي، لندن، 4 نيسان (أبريل) 2008.

- تستحق النقطة الثانية التدقيق، لأنها تحيلنا على "أم المعارك" في حقيقة مواقفنا مما يصدر عن تنظيم القاعدة، ونتحدث عن مواقفنا من "فقه القاعدة" أو "أدبيات القاعدة" التي تسبق "الفعل القاعدي" و"الممارسة القاعدية" التي، بتعبير المناطقة، تأتي تحصيل حاصل على وجود ذلك الفقه وتلك الأدبيات. فقد اعتبر الكاتب أن المـــشكلة مـــع تنظيم القاعدة لا تكمن في أنها أضرت بالعمل الإسلامي أو عطلت المشاريع الدعوية، أو أربكت الجهاد في العراق أو فلسطين... الخ، بقدر ما تكمن في "بنية خطابه الفكري"، والاشتباك هو مع "خيال" القاعدة، ومدينة القاعـــدة الفاضلة، التي لا يختلف معهم في الحلم بها من ينصحهم، إنما يختلفون معهم في سبل الوصول إلى هذه المدينة الفاضلة.

المبحث الثالث: مفاتيح الاشتباك الفقهي

واضـــح أن التوصـــل إلى ســـقف/مرتبة الاشتباك الفقهي مع أدبيات تنظيم "القاعـــدة"، أو مـــا وصـــفه أحـــد المعلقـــين بـــــ "فتح باب الاجتهاد الفقهي والحربـــي"[1]، يتطلب منا أولا الاقتناع بضرورة الحسم مع هذه الأدبيات، وليس تأجيل الحسم عبر البحث عن الذرائع والمسببات، وخاصة منها المسببات الخارجية الـــتي تغذي مسارات الصراعات المفتوحة القائمة اليوم في منطقة الشرق الأوسط، كمـــا أوجـــزها بامتياز محمد أركون، حيث اعتبر أنه "من غير المُجدي أن يُحاكم ميلوســـيفيتش أو بينوشيه أو أن يُدان النازيون وأن يؤسر ابن لادن وأن يُطارد كل مـــن يدعمـــون الإرهاب أو يدعون إليه، إذا لم يُعترف بالأسباب المباشرة البعيدة لمـــنطق الحرب وللفلسفة التي يقوم عليها هذا المنطق، وإذا ظلت هذه الأسباب غير مفكَّر فيها من جديد، وفوق ذلك، أقل استبعادا داخل القوى الكبرى نفسها"[2].

ونعتقد أن من أبرز وأخطر ما جاء في هذا الشريط، رد الظواهري على سؤال حول قتل الأبرياء خـــلال العملـــيات التـــي ينفذها تنظيم "القاعدة" في العراق والجزائر والمغرب، حيث قال: "لم نقتل الأبـــرياء لا فـــي بغداد ولا في المغرب ولا الجزائر ولا في أي مكان. وإن كان من بريء قد قتل في عمليات المجاهدين، فهو إما خطأ غير مقصود أو اضطرار كما في حالات التمترس".

(1) غـــسان الإمام. سيكولوجية الانتحار: لماذا لا نستطيع الوصول إلى العقل الإرهابي! الشرق الأوسط. لندن. 9 غشت 2005.

(2) محمد أركون وجوزيف مايلا: من مانهاتن إلى بغداد، مرجع سابق، ص 146.

صـــحيح أن التــــرويج الكبير الذي حشد لموضوع "التجديد الإسلامي" كان وراءه أطـــراف سياســـية في المنطقة العربية والعالم الإسلامي ذات مصلحة، ما دام "العدو اللدود للأنظمة الديكتاتورية هم الإسلاميون، ومعظم هذه الأنظمة مستفيدة من محاربة الفكر الديني "المتشدد" كما الأمريكيون مستفيدون"[1]، ولكن الإصرار علـــى تمريـــر مـــثل هذه القراءات النقدية، قد يؤجل فتح "باب الاجتهاد الفقهي والحربـــــي"، ضد الأدبيات الإسلامية "الجهادية"، وهو ما لا يخدم بالكلية الأمن المجتمعي للدول العربية والإسلامية قبل الأمن المجتمعي للدول الغربية.

ولتبـــيان مـــدى ثقـــل وأهمية المسببات الذاتية في تنامي الأدبيات والمبادرات الإسلامية "الجهادية"، نتوقف عند نموذجين بارزين من حيث الدلالات:

– هناك أولا شهادة هامة حررها حسن بت (27 سنة)، وهو ناشط إسلامي سابق، مزداد في مدينة مانشستر البريطانية عن أب وأم باكستانيين، وكان ناشطا في مجموعة "المهاجرون" الإسلامية المتشددة. لكنه تخلى في العام 2007 عن تبني أدبيات الجماعة، ومعها أدبيات الإسلاميين عموما، معتدلين كانوا أم متشددين.

يـــرى الناشط الإسلامي السابق، أن الأسباب الموضوعية، كما نصفها، تلك الـــتي تقف نسبيا وراء تغلغل التيار الإسلامي المتشدد، والتي غالبا ما تُختَزل في أداء الـــسياسات الغـــربية عمـــوما تجاه قضايا المنطقة العربية، "لم تكن الدافع الرئيسي للأعمـــال التي قام بها "الجهاديون". فالذي دفعني، يضيف الشاهد، ودفع الكثيرين غيري من رفاقي للتخطيط لأعمال إرهابية سواء في بريطانيا أو في غيرها من الدول كان ذلك الشعور الذي ساورنا بضرورة الكفاح من أجل إنشاء دولة ثورية تتولى في آخر المطاف نشر العدالة الإسلامية في كل أنحاء العالم".

تـــزداد صـــراحة المعني في مقام آخر من شهادته الهامة، وجاء فيها بالحرف: "كنت أنا ورفاقي في تلك المجموعة نضحك بصوت جهوري معبئ بروح الانتصار كلما تبادر إلى علمنا عن طريق قنوات التلفزيون مرة بعد الأخرى الإدعاء بأن المنبع

(1) عـــبد الـــرحمن الحـــاج: بنـــية الخطاب الإسلامي الجديد: من الإصلاحية إلى ما بعد الهوية وتحولات 11 أيلول، ضمن كتاب: الإسلام في عالم متجدد، سياسات الإصلاح الإسلامي بعد 11 أيلـــول، (مجمـــوعة مؤلفين: عبد الرحمن الحاج، معتز الخطيب، أبو يعرب المرزوقي، رضـــوان زيـــادة، عبد الرحمن حللي). الملتقى الفكري للإبداع، دار الفكر، دمشق، ط1 آب (أغسطس) 2005، ص 87.

الوحـــيد الـــذي تنطلق منه الهجمات الإرهابية الإسلامية كأحداث 11 سبتمبر أو الهجمـــات الـــتي اســـتخدمت فيها القنابل في مدريد ولندن ليس سوى السياسة الخارجية التي يمارسها الغرب".. "كان هؤلاء المعلقون الصحافيون يتولون بدلا عنا مهمـــة البروباغندا (الدعاية) السياسية من خلال اعتبارهم حكوماتهم (الغربية) بأنها الجهة التي تتحمل ذنب ومسؤولية الأعمال التي نقوم بها. الأهم من ذلك أنهم كانوا من خلال ذلك يصرفون اهتمام القراء عن الجذور والبواعث الحقيقية لأعمالنا تلك وهي على وجه التحديد علوم الدين وفقا لرؤى الإسلاميين"[(1)].

– وهناك ثانيا شهادة جاءت على لسان ناصر أحمد ناصر البحري، المعروف بكنيـــته (أبو جندل) وهو الحارس الشخصي السابق لزعيم تنظيم "القاعدة"، مشيرا في لقـــاء صـــحافي إلى أن "أســـئلة المحققين الأمريكيين كانت تدور حول تكوين "القاعدة" وفكرة "القاعدة" وكيان "القاعدة". وفي معرض رده على سؤال الأمنيين الأمريكيين حول احتمال أن يكون "لدى تنظيم "القاعدة" معامل كيماوية وأسلحة نـــووية"، أجاب بأن "أسامة بن لادن يمتلك سلاحا يتفوق على الأسلحة الأمريكية بالكامل، فشد ذلك انتباه المحققين الأمريكيين وقالوا: ما هي هذه الأسلحة؟ فقلت لهم "رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضي نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلـــوا تـــبديلا"، في حـــين أن الترسانة الأمريكية تمتلئ بالأسلحة ولكن لا تمتلك الرجال"[(2)].

لا تنطلق تصريحات أحمد ناصر من أدبيات شاذة على النص الديني المقدس[(3)] عـــند المسلمين، مع فارق جوهري يكمن في السياق التأويلي الذي تقرأ من خلاله هـــذه الآيـــة أو ذلـــك الحديث النبوي – أو على الأقل الأثر النبوي الصحيح –

(1) حـــسن بت: ضعوا نهاية للإرهاب! ترجمة: عارف حجاج، نشر الترجمة العربية للمقال في موقـــع مجلـــة "قنطرة" على شبكة الإنترنت، تحت عنوان: "راديكالي إسلامي بريطاني سابق يتصدى لإيديولوجيا الجهاد: ضعوا نهاية للإرهاب!"، على الرابط التالي:
http://www.qantara.de/webcom/show_article.php/_c-639/_nr-20/_p-1/i.html
ونشرت الصيغة الأصلية في صحيفة "أوبزرفر" البريطانية.

(2) حـــوار مع ناصر أحمد ناصر البحري أجراه معه خالد الحامدي، القدس العربي، لندن، العدد 4726، 3 آب (أغسطس) 2004.

(3) أو "الـــنص المؤســـس" عـــند مروجي أطروحات "إعادة قراءة النصوص الدينية"، أو "نزع القداسة" عن هذه النصوص.

وبالرغم من ذلك لا زلنا مصرين على تفادي الخوض في هذه القلاقل الدينية. ولهذا السبب الجوهري، يجد العقل الإسلامي المعاصر نفسه اليوم معنيا بشكل مباشر بخوض معركة اشتباك عقدي/شرعي مع أدبيات الإسلاميين "الجهاديين"، قصد سحب البساط عن الأدبيات الفقهية التي يؤسسون عليها التفجيرات التي يقومون بها، إلى درجة تفطن مفكرين عرب علمانيي النزعة إلى أهمية الترحال مع المرجعيات المذهبية والفقهية لأدبيات الحركات الإسلامية "الجهادية"، بالصيغة الرصينة التي أوجزها الراحل إدوارد سعيد، عندما دقّق في كون أفراد جماعة "محمد عطا، ليسوا يائسين وليسوا سكان مخيمات لاجئين، فهم ينتمون إلى الطبقة الوسطى وهم متعلمون كفاية بحيث يستطيعون الالتحاق بمدرسة للطيران في فلوريدا ويستطيعون التحدث بالإنكليزية"، وكون "ما نتحدث عنه، يضيف سعيد، "يتجاوز السياسي ويدخل في منطقة الميتافيزيقي"[(1)].

أما طارق علي، بسخريته النقدية اللاذعة، فيذكرنا ببعض المسكوت عنه في طبيعة المناهج الدراسية التي مهّدت لصعود ظاهرة حركة ونظام "طالبان"، وفيما بعد، التقاطعات التي أفرزها تحالف الحركة مع الآلاف من أعضاء "الأفغان العرب" الذين حاربوا ضد الغزو السوفياتي لأفغانستان، ملاحظا أن المدارس الدينية – التي أنجبت الحركة – كانت لها وظيفة واحدة: دُور حضانة لتكوين وتخريج متعصبين، حيث نصّت كتب تعليم مبادئ القراءة مثلا، على أن حرف الجيم في اللغة الأردية يعني "جهاد" والتاء تعني "مدفع" والكاف تعني "كلاشنيكوف" والخاء تعني "دم"[(2)]، وعلينا أن نترك القراءات النقدية الصادرة عن بعض الناطقين باسم العقل الفقهي المعاصر، من أن "قدرة الجذب الشعبي لدى الجماعات الإسلامية العنيفة له ليست مستمدة من الدين، بل من قدرة تلك الجماعات على استغلال مشاعر الإحباط الشخصية والشعور بالظلم الاجتماعي اللذين يشعر بهما الملايين يوميا في

---

(1) إدوارد سعيد: الثقافة والمقاومة، حوارات أجراها معه دايفيد بارساميان، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، دار الآداب، بيروت، 2006، ص 106.

(2) طارق علي: صدام الأصوليات، مرجع سابق، ص 342، وبالنتيجة، فقد أنتجت العظايا التنينية المزروعة في 2500 مدرسة محصولا مقداره 225 ألف متعصبا مستعدين للقتل والموت من أجل عقيدتهم أنى أُعْطِي لهم قادتهم الدينيون الأوامر بذلك. طارق علي، نفس المرجع، ص 343.

المجـــتمع الإسلامي، حيث أصبحت الجماعات التي تتبنى العنف ماهرة في الاستفادة مـــن مـــثل هذه الإحباطات ومن ثم توجيهها بلغة دينية تثير الالتزام الكامل لدى أتباعهم"[1].

هـــناك أسباب خارجية لا طاقة للمسؤولين العرب بها، تُغذّي أدبيات الحركات الإسلامية "الجهادية"، ونعتقد أن اختزال أسباب ظهور الحركات الإسلامية "الجهادية" في مقـــدمات خارجـــية، يـــساهم، بشكل أو بآخر، في تأجيل الإعلان عن نهاية هذه الاعـــتداءات، لأنـــنا لم نحسم من الأصل أسبابها؛ هناك مُسَبِّبات داخلية خاصة بالعقل السياسي العربـــي/الإسلامي من جهة، وهذا يتطلب المرور على عقبتين متوازيتين:

1. تكمـــن الأولى في حتمية صدور مبادرات عن صناع القرار السياسي على أن تتحلـــى بجرعات كبيرة من الشجاعة التاريخية لمراجعة تخبط طبيعة المقاربات المعمـــول بها في أغلب الدول العربية والإسلامية، وفي مقدمتها المقاربة الأمنية ذات النـــــزعة الاستئصالية، والتي تواكبها، للمفارقة، قراءات "شرعية"[2]، ومـــن المفترض في إسقاطات هذه العقبة، أن تُقابَل "المراجعات الفقهية" التي صدرت عن العديد من رموز الحركات الإسلامية "الجهادية"، كـــ "الجماعة الإسلامية" وجماعة "الجهاد" في مصر، ورموز "مشايخ التكفير" في السعودية ومـــشايخ "السلفية الجهادية" في المغرب، بـــ "مراجعات أمنية" مضادة، تخدم مـــصالح الـــوطن المعـــني، إلى درجـــة حديث البعض عن مراجعات أشبه بـــــ "مدفعـــية ثقيلة"[3]، وهذا عين ما تم في العديد من المناسبات في الحالة

---

(1) الإمام فيصل عبد الرؤوف: مرجع سابق، ص 183.

(2) ضـــمن مـــنطق "التأصـــيل الشرعي" للخيار الأمني الاستئصالي، نطلع في المجال التداولي المغربـــي علـــى كـــتاب فـــريد في هذا الصدد، ألفه الداعية السلفي علي بن صالح الغربي الـــسوسي، ويُحـــسبُ لهذا العمل الانخراط فيما يشبه الاشتباك الفقهي مع أدبيات "الـجهاديين" المغاربـــة، (مـــن المحـــسوبين إعلامـــيا وأمنيا على تيار "السلفية الجهادية")، ويؤاخذ عليه الانخراط الجلّي في "تأصيل" و"شرعنة" المقاربة الأمنية.
انظـــر: علي بن صالح الغربي السوسي: طواغيت الخوارج بالمغرب: بين الفتاوى التكفيرية والعملـــيات الإجرامية الانتحارية، سلسلة "دفع الخوارج"، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 2006.

(3) Naceureddine Elafrite, Quand les idéologues du djihadisme international appellent à la non-violence, In Le courrier de l’atlas, Dossier: Le déclin d’Al Qaida, Paris, N. 19, octobre 2008.

المـــصرية مـــثلا[1]، و"مـــا يجعل من قيام الدكتور فضل بمراجعة العنف أمرا خلاقا[2]، هو فقط قيام النظام المصري بمراجعة الممارسة السياسية لإقامة حياة ديمقـــراطية كاملـــة، تتسم بالمساواة القانونية والعدل الاجتماعي، فمن دون مراجعة هذه الممارسة وتنقية الروح المصرية من الظلم الاجتماعي، ستستهلك مـــراجعات "الجهاد" نفسها، وتنبثق بؤر جديدة للعنف في حلقة مفرغة طالما ظلـــت الأزمـــات ضاغطة، والقنوات مغلقة، ولأن المجتمعات تعيش في ثنايا الواقـــع، وليس بين دفات الكتب"[3]، في تقاطع جلي مع رؤى معلق آخر، ومفادهـــا أن "الـــسلطات المـــصرية تتعاطى مع ملف "الجماعة الإسلامية" الراديكالية بصورة مختلفة كثيرا عن تلك التي اتبعتها في سنوات سابقة، وليس ســـرا أن المـــراجعات التي أقدمت عليها تنظيمات مصرية لم تكن لتتم لولا وجود دور إيجابـــي للحكومة.

حدث هذا من دون شك سواء بالنسبة لتنظيم "الجماعة الإسلامية" بعد المبادرة التاريخـــية لقادته الذين كانوا موجودين داخل سجن طرة العام 1997، ومرورا

---

(1) يلاحظ أن الإفراج عن أمير الجماعة الإسلامية كرم زهدي بعد 22 عاما في السجن والقيادي ممدوح علي يوسف ومعهما ألف عضو آخرين، تم في أيلول (سبتمبر) عام 2003، جاء بعد أقل من عام من المراجعات الفكرية التي أطلقتها الجماعة باسم "سلسلة تصحيح المفاهيم".

(2) الدكـــتور فـــضل أو الـــسيد عـــبد العال الشريف، هو محرر وثيقة "ترشيد الجهاد في مصر والعـــالم"، ويُلقّـــب من طرف المتتبعين بـــ "فقيه تنظيم القاعدة" الأول، ومُنظّر فكرة "عولمة الجهاد" بعد أن كان فيما مضى مجرد ممارسات محلية تقع دون وجود سياق عام يجمعها أو رؤيـــة ترتب أولوياتها، وهي الأطروحة التي مهدت لبزوغ نجم "القاعدة" كمظلة أممية للفكر والممارسات التي تصنف تحت بند "التيار الجهادي".

تولى سيد فضل الشريف إمارة تنظيم الجهاد حتى عام 1991، وعقب حدوث خلافات هدّدت بشروخ في صفوف التنظيم، أُجبِر الدكتور فضل على التنازل عن الإمارة للظواهري، مكتفيا بمهمـــة إصدار البحوث الشرعية والمطبوعات والمنشورات، وكان من أبرزها كتاب "العمدة فـــي إعداد العدة" الذي أثار نشره في أفغانستان وباكستان ضجة كبرى في أوساط التنظيمات الإسلامية عامة والمصرية على وجه الخصوص، ولم ينافسه في تلك الضجة كتاب "الحصاد المـــر" الذي اتهم الدكتور فضل تلميذه المنشق أيمن الظواهري بالاستيلاء عليه ووضع اسمه كمؤلف له من دون وجه حق، وأنه كان يفترض أن يصدر كإحدى مطبوعات التنظيم.

انظر: محمد الشافعي: فقيه "القاعدة" المتحول، الشرق الأوسط، 23 نوفمبر 2007.

(3) صـــلاح سالم: بين مراجعات "الجهاد" ومراجعة الممارسة السياسية في مصر، الحياة، لندن، 19 كانون الأول (ديسمبر) 2007.

بقـــرار مجلس الشورى الصادر في آذار (مارس) 1999 بوقف شامل للعمليات العسكرية داخل وخارج مصر"[1].

ولا شك أن إقرار العاهل المغربـــي الملك محمد السادس في حوار مع يومية "إل بايس" الإسبانية[2] بأن هناك تجاوزات حقوقية تمت على هامش تفجيرات الدار البيضاء الإرهابية، يندرج قطعا ضمن منطق "المراجعات الأمنية" المطلوبة اليوم، في الساحة العربية[3].

2. وتكمـــن العقـــبة الثانـــية في الشجاعة المطلوبة من "الناطقين" باسم "الإسلام الرسمـــي" للخـــوض في هـــذا الاشـــتباك، وليس التوقف عند مرتبة الإشادة بالمـــراجعات الفقهـــية، كما يُجسّدها التقييم الصادر عن محمد مختار المهدي، عـــضو مجمـــع الـــبحوث الإسلامية ورئيس الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكـــتاب والسنة التابع للأزهر، والذي اعتبر أنه "من المفترض على كل جماعة أن تـــراجع نفـــسها وتحاسبها على الماضي، خاصة وأن هناك مبدأ إسلاميا هو المـــراجعة وقـــياس الماضـــي، وتحديد الأخطاء والرجوع عنها، حتى ولو كان الإنـــسان أو الجماعة في وقت ما مقتنعة بما تريد الرجوع عنه، فالعودة للحق ممدوحـــة في الإسلام، ومرغوب فيها، وهكذا علمنا الإسلام"[4]، لأن التوقف عـــند هذا السقف لا يقدم أو يؤخر في جبهة "الاشتباك الفقهي" مع الأدبيات الإســـلامية الحـــركية "الجهادية"، دون أن نُقَزّم من أهمية بعض المبادرات التي

---

(1) محمـــد صـــلاح: مراجعات "الجهاديين" ومراجعات السلطات، الحياة، لندن، 19 كانون الأول (ديسمبر) 2007.

(2) حـــوار أدلـــى بـــه العاهل المغربي ليومية "إل بايس" الإسبانية في 16 كانون الثاني (يناير) 2005، أكد خلاله على حدوث انتهاكات حقوقية في حقبة ما بعد اعتداءات الدار البيضاء.

(3) ضـــمن مـــنطق المـــراجعات الأمنية، تزامنت تصريحات الشيخ يوسف القرضاوي والداعية سلمان بن فهد العودة والنائب وليد الطبطبائي، مع إفراج السلطات السعودية عن1500 شخص بعـــدما عـــادوا عـــن "فكرهم التكفيري المتشدد" والدعوة إلى "الجهاد وتكفير حكام المسلمين وعلمائهم وعامة الناس".

انظـــر: نـــص التقرير الإخباري المنشور على موقع "العربية. نت" بتاريخ 25 تشرين الثاني (نوفمبـــر) 2007، تحـــت عـــنوان "السعودية تطلق 1500 رجعوا عن"إخراج المشركين من جزيرة العرب".

(4) الأزهر يعلن موافقته على مبادرة الجهاد، قصاصة إخبارية عن موقع "إسلام أون لاين. نت"، 18 أيلول (سبتمبر) 2007.

تـــصب في هذه الطينة، ونخص بالذكر ما جاء في مبحث "الإرهاب والسلام"، والـــصادر عـــن مجمع الفقه الإسلامي بالهند[1]، ويصعب تجاهل أن "من أهم عناصـــر الـــشجاعة في مـــواجهة النفس أن يعترف رجال السياسة والعلماء والمـــثقفون في العـــالم الإسلامي أن ثمة مشكلة يعاني منها العالم الإسلامي، تتمـــثل في ظاهـــرة وجـــود تفسيرات للإسلام يمكن استخدامها تبريرا لقتل الأبرياء"[2].

لعل صدور كتاب أيمن الظواهري الذي يحمل عنوان "التبرئة: رسالة في تبرئة أمة القلم والسيف من منقصة تهمة الخور والضعف"، والذي خصّ مجمله للرد على وثـــيقة "ترشـــيد الجهاد في مصر والعالم" لسيد إمام شريف، إقرار من بعض رموز تنظـــيم "القاعدة" بخصوص المأزق الفقهي الذي يزلزل الأرضية الفقهية التي يقتات علـــيها التنظيم، وإقرار بأهمية مراجعات زعيم تنظيم "الجهاد" سابقا، وقد يعترض الـــبعض على أن "النظام الفكري للسلفية الجهادية، الذي كان الدكتور فضل أحد دعاتـــه، لا زال موجودا ونقده وتفككيه هو جهد المراجعة الحقيقية لمن خبره وأراد تجـــاوز الـــناس به، ومفارقة تنظيماته وقياداته، الذين يرفضهم"[3]، ولكن من باب إســـقاطات/مقتضيات "فقه المقاصد"، وإسقاط مبدأ "أقل الضررين"، يمكن اعتبار صدور مراجعات "الجماعة الإسلامية" و"الجهاد" وآخر مراجعات الدكتور فضل،

---

(1) الإرهـــاب والـــسلام: بحـــوث فقهية وعلمية حول الإرهاب والسلام العالمي من وجهة نظر الـــشريعة الإسلامية"، تحت إشراف مجمع الفقه الإسلامي الهندي. والعمل عبارة عن تجميع لمـــداخلات الندوة الفقهية الرابعة عشرة التي انعقدت بمدينة حيدر آباد بالهند، في الفترة 1–3 جمادى الأولى 1425هـــ، الموافق 20 – 22 حزيران (يونيو) 2004، وصدر عن دار الكتب العلمية. بيروت، ط1، 2007.

(2) نصر حامد أبو زيد. الإسلام والغرب: حرب الكراهية.. لماذا؟ مرجع سابق، ويضيف الباحث أنـــه "لا بـــد مـــن الاعتراف أن هذه التفسيرات ستظل معوقا من معوقات التقدم والازدهار والترقي ما لم يبدأ العلماء والمثقفون في العالم الإسلامي في توظيف منهج النقد التاريخي في دراســـة التراث وتحليله"، ومن باب إقراره بأهمية "إعطاء الأولوية للعلماء على المثقفين" في معـــرض نقـــد هـــذه النـــصوص، نرى أن نقد الشيخ يوسف القرضاوي لأدبيات الحركات الإســـلامية "الجهاديـــة"، إضـــافة إلـــى صدور العديد من القراءات الفقهية النقدية ضد هذه الأدبيات، تحول دون طرق باب "توظيف منهج النقد التاريخي في دراسة التراث وتحليله".

(3) هاني نسيره: القاعدة والسلفية الجهادية: الروافد الفكرية وحدود المراجعات، مركز المسبار، دبي، كراسات استراتيجية، العدد رقم 188، حزيران (يونيو) 2008، ص 49.

ومعهـــا مـــراجعات "الجهاديين القطريين"[1]، أهون بكثير من انتظار ما يمكن أن يـــصدر عـــن فقهاء المؤسسات الدينية الرسمية، وفقهاء أغلب الحركات الإسلامية المعتدلة، والمعنية باستحقاقات الانخراط في العمل السياسي، أو "المقتضيات الشرعية" لإغراءات اللعبة السياسية.

تبقى أمامنا إشارة ضرورية بخصوص أهمية الاستشهاد بالانتقادات الرصينة عن المراجع الثلاثة سالفة الذكر، وتحيلنا على أهمية استثمار نقد مشايخ وازنين من طينة الـــشيخ يوســـف القرضاوي في معركة "الاشتباك الفقهي" مع الأدبيات الإسلامية "الجهادية".

ورُبَّ معترض على هذا التقييم بالإحالة على تبعات الفوضى السائدة اليوم في مجـــال الإفتاء والدعوة نحو النطق باسم الإسلام، أو "الصراع على الإسلام"، بتعبير رضـــوان السيد، ولكن، في ظل هذه الفوضى، نجد لائحة ضيقة من الأسماء الفقهية الـــتي تحظـــى بمـــصداقية أكبر لدى الشارع الإسلامي، وعلى رأس هؤلاء، الشيخ يوســـف القرضاوي، ومن هنا، أهمية الانتقادات الرصينة الصادرة عن هذا المرجع تجاه ما يصدر عن تنظيم "القاعدة".

---

(1) ضـــمن هـــؤلاء، مهـــم جدا التوقف عند مراجعات محمد الفزازي أحد المعتقلين الإسلاميين المغاربة، عندما وجّه رسالة إلى المسلمين بألمانيا يدعوهم فيها إلى السلم ونبذ العنف، معترفا أنه اتخذ "منعطفا خاطئا" في دعواته إلى "المسلمين بإزالة الكفار من السلطة" عندما كان إماما لمسجد القدس في مدينة هامبورغ الألمانية، بحسب ما أوردته أسبوعية "دير شبيغل" الألمانية، مشيدا بدولة ألمانيا التي وصفها بـــ "بلد التسامح الديني".

وعبّـــر الفـــزازي في رسالته المؤرخة في 21 تموز (يوليو) 2009 عن تراجعه عن دعواته التكفيـــرية بإزالة الكفار من الحكم عندما كان إمام مسجد بألمانيا قائلا أن "ألمانيا ليست ساحة معـــركة، وكل مهاجر لديه عقد مع الدولة الألمانية التي يجب التقيد بها، ألمانيا، لديها حرية الدين التي لا وجود لها في العديد من البلدان الإسلامية".

وكـــان محمـــد الفيـــزازي أبـــرز الأسماء التي اعتقلت مباشرة بعد اعتداءات الدار البيضاء الإرهابية في 16 مايو 2003، وجاء الاعتقال على هامش تصريحات أدلى بها ليومية "الشرق الأوســـط" اللندنـــية، انـــتقد عبـــرها "التفسير المغربي الرسمي لدوافع الإرهابيين الذين نفذوا اعتداءات الدار البيضاء" في 16 مايو 2003.

انظـــر: الرســـالة المطولة التي وجّهها محمد الفزازي إلى مسلمي ألمانيا على الرابط التالي للأسبوعية الألمانية:

Mohammed El Fazazi, Germany Is No Battle Zone, Spiegel Online, 29 October 2009.

ثمـــة إجمـــاع من قِبَل المراقبين على أنه في أكثر الدول الإسلامية، نعيش على إيقاع تحكم الدولة بالأوقاف الدينية الخاصة والتي ساندت في يوم من الأيام الطبقة الـــشرعية، حـــيث اختارت الدول رجال الدين وحوّلتهم إلى عمال مأجورين لها، وبالطـــبع، يـــضيف الـــباحث خالد أبو الفضل، (من جامعة لوس أنجليس بولاية كاليفورنـــيا الأمـــريكية) أن "هذا التحول، أحدث فراغا عميقا في السلطة الدينية، ولهـــذا السبب، هناك حالة من الفوضى الفعلية في الإسلام الحديث: لم يعد واضحا مـــن يـــتكلم عن مواضيع دينية باسم السلطة"[(1)]، وما يُزكي هذه الرؤية النقدية، انخـــراط بعـــض رموز المؤسسة الدينية الرسمية في "شرعنة" المقاربات الأمنية ذات النـــــزعة الاستئصالية، كما تم مثلا مع دلالات التصريح الصادر عن علي جمعة، مفـــتي الـــديار المصرية، والذي لم يتردد في التعامل مع المتشددين الإسلاميين على شاكلة التعامل مع الأوباش، قائلا بالحرف: "هؤلاء المتشددين القتلة الإرهابيين هم مجمـــوعة أوباش ويجب تصفيتهم جسديا وضربهم بكل قوة، ولا يجب أن نتعاطف مع أناس لوثوا أيديهم بدم المسلمين"[(2)].

ومن الطبيعي أن تكون مثل هذه التصريحات، تشرعن خيار "اختطاف الإسلام"، كمـــا قيل بعد صدمة اعتداءات نيويورك وواشنطن[(3)] ليس فقط من طرف الحركات الإســـلامية "الجهادية"، المعنية الأولى بمنعطف هذه الاعتداءات، ولكن أيضا من طرف فقهـــاء وعلمـــاء المؤســـسة الدينـــية الرسمية، ممن يُصرّون على تبني خيار شيطنة هذه الحـــركات من باب "تبرئة الذات"، وهي "التبرئة" التي تساهم عمليا في إطالة الحديث عـــن "نهايـــة الإســـلام الجهادي"، ما دامت ترفض الانصياع لمعارك ومقتضيات "الاشـــتباك الفقهـــي" الرصـــين، موازاة مع معارك ومقتضيات "الاشتباك المعرفي" الرصين الذي انخرطت فيه العديد من الأقلام العربية والإسلامية والغربية.

---

(1) خالد أبو الفضل: مكانة التسامح في الإسلام، مرجع سابق، ص 18.

(2) مفتـــي مصر: المتشددون "أوباش" يجب تصفيتهم جسديا، قصاصة إخبارية، الشرق الأوسط، لندن، العدد 10024، عدد 9 أيار (مايو) 2006.

(3) اســـتعارة دالة، لا زالت تحتفظ بآنيتها، بعد صدورها لأول مرة في آخر 2002 عن الباحث الباكستاني شيما خان. انظر:
Sheema Khan. The Language of Islam has been hijacked, The Globe and Mail, 17 December, 2002.

وحاصـــل الكـــلام في هـــذا الفـــصل، أن نقد أدبيات الحركات الإسلامية "الجهاديـــة"، مهمـــة ذات أولـــوية قصوى لدى أبرز رموز المؤسسة الدينية، وفي مقدمـــتهم العلمـــاء المتمكنين، والحاصدين لحدود معقولة من المرجعية والمصداقية، وتأسيـــسا علـــى مُسَلَّمة تواضع أغلب علماء المؤسسات الدينية الرسمية، في الوطن العربـــــي خاصـــة، يتضّح أن الرأي العام وصناع القرار مطالبون بالاستزادة من القراءات النقدية الصادرة عن علماء مرجعيين من طينة الشيخ يوسف القرضاوي، واستثمار أمثل للمراجعات الفقهية عن الرموز الحركية المرجعية التي كانت كذلك لدى الحركات الإسلامية "الجهادية"، من طينة الدكتور سيد فضل الشريف ومحمد زهدي وناجح إبراهيم ومحمد عصام الدين دربالة وغيرهم كثير.

المقتضيات العشرة لمصالحة "الإسلام العربي" مع "الغرب المسيحي"

بعـــد أن استعرضـــنا لائحة من القراءات الاستطلاعية والنقدية التي صدرت حول تنظيم "القاعدة"، سواء عن أقلام إسلامية/عربية أو غربية، ومع أن مجمل هذه القراءات والأعمال، توزن قيمتها العلمية وأثرها العملي بمرجعية مُحرريها ومستوى قدراتهم المنهجية ورؤيتهم المعرفية، وغيرها من المعايير والمنطلقات، إلا أن المتتبع لهذا الكـــم الضخم من الإصدارات وغيرها من الدراسات التي يصعب حصرها في هذا العمل، يخلص بالضرورة إلى جملة استنتاجات وخلاصات تهم أي متتبع للموضوع، سواء تعلق الأمر بصناع القرار السياسي والأمني والثقافي والديني، في المجالين المعنيين في هذا الصدد: المجال التداولي الإسلامي العربـــي والمجال التداولي الغربـــي.

صـــحيح أن أغلـــب هـــذه القراءات، تعج بالأعطاب المفاهيمية والمنهجية، لاعتـــبارات بدهـــية ترتبط بقاعدة "كل يُؤخذ من كلامه ويُرد" الصادرة يوما عن الإمـــام مالك، بما في ذلك القراءات الصادرة عن أهل الأفكار الطولى، ما دمنا إزاء نـــصوص بـــشرية، معرضة للنقد والنقض والتقييم والتقويم، ولاعتبار موضوعي، تطرقنا إليه سلفا، من قبيل المرجعية المعرفية، الهاجس الإيديولوجي، دروس الوصاية، عقلـــية الاستعلاء، الإصرار على احتكار النطق باسم "الحقيقية الدينية"، في ماهية الأدبـــيات الإسلامية "الجهادية"[(1)]، وغيرها من الأعطاب، لولا أن هذه المؤاخذات الـــنقدية، لا تحول دون الاستفادة من بعض الدروس المستخلصة والهامة الواردة في

(1) وهـــو أخطر عطب بنيوي في القراءات الصادرة في موضوع الظاهرة الإسلامية الحركية، بحكم أنه يجمع بين احتكار مفهومي "الدين" و"الحقيقة".

هـــذه الانتقادات، وإلا سوف نسقط في فخ تبخيس قيمة اجتهادات نقدية إسلامية وعربية وغربية على حد سواء.

تأسيـــسا علـــى هذه الخلاصة الأهم، سوف نخصص الفصل الأخير من هذا العمل للنقاط التالية:

- هـــناك أولا جـــرد بـــأهم الخلاصات المطلوب استحضارها في معرض السفر الاستطلاعي والنقدي مع هذه الأعمال.
- هناك ثانيا جرد بأهم التحديات التي يفرضها وجود تنظيم "القاعدة" والحركات الإسلامية "الجهادية" بشكل عام على صناع القرار في المجالين التداوليين سالفي الذكر.
- وهـــناك أخـــيرا، جرد بأهم المُسلّمات المطلوب الإقرار بها من لدن من يهمهم الأمـــر، من صناع قرار وباحثين ومتتبعين ورأي عام، من المعنيين بالاشتباك مع تحدي الظاهرة الإسلامية "الجهادية".

المبحث الأول: الخلاصات النقدية العشر

يـــصعب حـــصر مجمـــل الخلاصات الصادمة والمؤرقة التي خلفتها اعتداءات نيويورك وواشنطن، ولكن إجمالا، يمكننا التوقف عند عشر نقاط جوهرية:

1. نلاحـــظ بدايـــة، أنه من خلال تأمل الكوارث الإنسانية التي عصفت بساكنة المعمـــور خلال القرن الأخير، نخلص إلى أنه تم التضخيم من أحداث 11 أيلول (سبتمبر)، سواء تعلق الأمر بالحروب الكونية التي رفعت شعار "الحرب العالمية الأولى" و"الثانـــية"، أو الـــتواطؤ الفرنسي في الحرب الإثنية الرواندية (من سنة 1990 إلى سنة 1994)، ويمكننا الاسترسال في أمثلة أبلغ، من قبيل إبادة الهنود الحمر، توظيف سكان إفريقيا في تجريب أحدث الأدوية التي أنتجتها المختبرات الغـــربية مـــن أجل إثبات فعاليتها، وفي أسوأ الأحوال، بيع الأدوية المغشوشة، ضـــحايا ومآســـي حـــروب الفيتنام، لولا أن تحريف القيم الإنسانية، وسيادة "قـــوانين الغـــاب" في صيغة عولمة ومُنقّحة، تُكرّس هذا الإخلال العالمي بميزان القيم والأخلاق بين "الغرب المتحضر"، صاحب "الرسالة الحضارية"، و"الشرق (الإســـلامي) المتخلف"، والمطالب منه اليوم، وخاصة في حقبة ما بعد منعطف

اعـــتداءات نيويورك وواشنطن، أن يتفاعل إيجابا مع رياح التحضر والإصلاح والـــتهذيب الأخلاقـــي للمجـــتمع، كما هي مُسطّرة من قبل صناع القرار الاستراتيجي والسياسي والأمني في المجال التداولي الغربـــي (الأمريكي بالدرجة الأولى).

2. هـــناك قصور غربـــي جلّي في قراءة الظاهرة الإسلامية الحركية، وقصور أكبر في قـــراءة النص الإسلامي المقدس (أو المؤسس)، حتى أن بعض القراءات التي تدعـــي التأســـيس لـــرؤية علمـــية أكاديمية، ساوت بين الإسلام والحركات الإســـلامية، علـــى غرار ما صدر عن برنارد لويس، أو مريده الأبرز، دانيال بايبس، ونضيف فوق هذين الاسمين، بعض الأسماء المحسوبة على المجال التداولي الإسلامي، من قبيل الأديب الفرنسي من أصل تونسي عبد الوهاب المؤدب، أو الباحـــثة الكندية من أصل باكستاني، إرشاد منجي، وينطبق على هؤلاء قول أحد المنتصرين السابقين لخطاب "القطيعة الكبرى مع التراث"، والمراجع لذات الخطاب بإقراره على أن مجالنا التداولي يضم "قسما من النخبة الجديدة مستعد اليوم ليضحي بثقافته الخاصة، لارتباطها العضوي، في نظره، بنظام عام يرفضه كليا، وليتخلى بالتالي عن اللغة والحرف الملازمين لتلك الثقافة. هذا ما حصل في تركيا، وكاد أن يحصل في بلدان أخرى لو كانت مالكة لزمام أمرها"(1).

3. هناك قصور غربـــي وعربـــي في اختزال الحركات الإسلامية في سلة واحدة، بالرغم من وجود تقاطعات أو قواسم مشتركة في العقيدة والمذهب والسلوك، وهـــو القصور الذي "يُبرّر" اتخاذ مختلف التفرعات الإسلامية الحركية، مشجبا أمام صناع القرار الغربـــي (بمعية التنظير الأكاديمي) لتبرير التدخل في الشؤون الداخلـــية للـــدول الإســـلامية والعربية، بما في ذلك استغلال التنظير التبريري الصادر عن بعض الأقلام الإسلامية والعربية.

4. بـــدا واضـــحا أن القراءات النقدية التي صدرت مباشرة إثر منعطف اعتداءات نـــيويورك وواشنطن، غلبت عليها المقاربات السياسية والأمنية والاستراتيجية، مقابـــل التقـــزيم من المقاربات المعرفية الرصينة، أو قراءات "الأفكار الطولى"،

---

(1) عبد الله العروي: من ديوان السياسة، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط1، 2009، ص 52.

لأهـــل النظر والتأمل والتفكيك الذي ينفع الناس والبشرية، وليس أبناء المجال التداولي الإسلامي أو أبناء المجال التداولي الغربـــي وحسب؛ ويمكننا مثلا، أن ندرج في الخانة الأولى (المقاربات الاختزالية)، كتاب "القاعدة وأخواتها: قصة الجهاديين العرب" لكميل الطويل، ومقابله الغربـــي الذي يحمل عنوان: "أفول الـــزعامة الجهاديـــة: الـــشبكات الإرهابية في القرن الواحد والعشرين" لمارك ســـاغمان؛ كما أنه يمكننا أيضا أن ندرج في الخانة الثانية (المقاربات النوعية)، كتاب "الخوف الأصولي.. المركزية الأوروبية وبروز الإسلام"، لبوبـــي سيّد، ومقابله الغربـــي: "القاعدة.. ومعنى أن تكون حديثة"، لجون غراي.

وبالنتيجة، طغت القراءات التي تشتغل على نقاش الأشخاص والوقائع (من هو ابن لادن؟، ما هو تنظيم "القاعدة"؟، والسؤال الأكبر: ما هو الجهاد؟..)، على حساب نقاش الأفكار (ما المقصود بالعنف والإرهاب؟، ما هي جذور الصراع بـــين الغـــرب الإسلامي والشرق المسيحي؟ ما هي علاقة "الإسلام السياسي" بالتحديث والحداثة وما بعد الحداثة؟..).

5. "انتصرت" الأعمال النقدية للهاجس الإيديولوجي أكثر مما انتصرت للهاجس المعـــرفي، بما أثر سلبا على طبيعة الخلاصات والرؤى النقدية التي خلُصت إليها هـــذه القراءات، وازدادت الأمور تعقيدا، مع ارتفاع وتيرة الجرأة على النص الـــديني المقدس/المؤسس، حيث انتقلنا من الحديث عن "إعادة تأويل النصوص القرآنية"، نحو الزعم بأن "الوحي لم يعد منتجا للحقيقة اليوم".

6. جـــسّدت القراءات التي تبنّت خيار "النقد المزدوج" قاسما مشتركا في طبيعة ما نـــشر حـــول تـــبعات صدمة منعطف اعتداءات نيويورك وواشنطن، لولا أن حـــضور الأعمال المحسوبة على هذا القاسم المشترك كان متواضعا من حيث الكـــم مقارنـــة مع القراءات التي تنتصر لتبرئة الذات مقابل شيطنة الآخر، أو القـــراءات التي تنتصر لمنطق الوصاية وإعطاء الدروس في التحضر والأخلاق، بالـــصيغة الـــتي توقفـــنا عندها مثلا في الفصل الخاص بقراءة المثقفين الغربيين للحدث.

ولعل مرد تواضع أقلام النقد الذاتي في المجال التداولي الإسلامي العربـــي (أبو يعـــرب المرزوقي وطه عبد الرحمن..) والمجال التداولي الغربـــي (جان بودريار

وجون غراي..)، مرده إلى إصرار المفكرين والباحثين والكتاب على الانتصار لخـــيار "امتلاك الحقيقة" وبالتالي، الزعم النطق باسم هذه الحقيقة، ومعلوم أنه كلما احتكرنا الحقيقة، كلما تطرفنا في الإيديولوجية، عوض الانتصار للقواسم المشتركة، بين الحضارات والثقافات السائدة اليوم.

7. برزت معالم صراعات إسلامية/إسلامية، أو "صراعا على الإسلام"، تجلّت أبرز معالمـــه، في الخلافـــات الجلـــيّة بين التيار الصوفي والسلفي، وقامت بتزكيته أطـــروحات غربية، صادرة عن مراكز بحثية، ولو أن الترويج لنموذج إسلامي مُحدّد، لا يسحب البساط عن التوقف عند أسئلة ملحة على العقل الإسلامي الجمعـــي، تـــتطلب اجتهادات جماعية، وتطليق احتكار النطق باسم "الحقيقة الدينـــية"، من قبل فقهاء المؤسسة الدينية من جهة، وفقهاء ومشايخ الحركات الإسلامية من جهة ثانية.

8. نجـــد ضـــمن خانة الخلاصات المريبة بخصوص تعامل فقهاء المؤسسات الدينية الـــرسمية في المجـــال الـــتداولي الإسلامي، ومعها رموز الجمعيات والمنظمات الإســـلامية الموالـــية للأنظمـــة العـــربية والإسلامية، الارتهان لخطاب التكفير والـــشيطنة ومـــا يُشبه شرعنة الخيار الأمني الاستئصالي، من قبيل تكفير زعيم تنظـــيم "القاعـــدة"، ووصـــف أتباعه بأنهم "مجموعة أوباش، يجب تصفيتهم جـــسديا"، أو إحـــياء التهم الموجهة ضد الخوارج القدامى في معرض شيطنة "الخـــوارج الجـــدد"، وغيرهـــا مـــن الاتهامات التي تزيح المسؤولية الأخلاقية والشرعية الملقاة على عاتق فقهاء المؤسسة في معرض الانخراط الجدي والرصين في معارك "الاشتباك الفقهي" ضد أدبيات "الجهاديين".

9. ســـاهمت صـــدمة اعـــتداءات نيويورك وواشنطن، في فتح النقاش عن "طبيعة الإســـلام الذي نريد"، وكشفت الأضواء عن تواضع العدة المعرفية للحركات الإسلامية عموما، مقابل تواضع العدة الفقهية والمعرفية لدى فقهاء المؤسسة في معـــرض احتـــرام مقتضيات الاشتباك الفقهي مع أدبيات الحركات الإسلامية "الجهاديـــة"، لأن "أم الأزمـــات" في التعامل مع الفعل الإسلامي "الجهادي" تكمـــن في تقـــويض الأسس الشرعية التي تشرعن هذا الفعل، ما دام كل فعل يـــسبقه فكر أو تنظير أو تأصيل، على غرار ما نجده عند الحركات الإسلامية

المعتدلة التي تبنّت خيار الانخراط في العمل السياسي، والتي آمنت قبل ذلك، بفكر/تأصيل المشاركة، وكذلك الحال مع الحركات السلفية التي تبنت خيار الدعوة إما داخل المؤسسات الرسمية أو المنظمات والجمعيات الأهلية.

10. وأخيرا، وليس آخرا، شهدنا توظيفا للقراءات النقدية الموجهة ضد الحركات الإسلامية[1]، مطية لنقد إسلام السلطة الزمنية الحاكمة[2] والإسلام الشعبي، وبالتالي نقد النص المقدس/المؤسس: القرآن، بالصيغة التي صدرت عن العديد من الأقلام الغربية، كما كان متوقعا، أو حتى من قبل بعض الأقلام العربية والإسلامية، من باب تمرير دروس الولاء أو المصادقة على خطاب الاستعلاء الغربي، أو احترام مقتضيات "العمالة الحضارية" لمهام "التحضر الغربي".

المبحث الثاني: التحديات الحضارية العشرة

بعد استعراض ما اعتبرناه أهم الخلاصات التي نستشفها من هذا الترحال المطول في لائحة من المؤلفات العربية والإسلامية والغربية المخصصة لموضوع نقد الحركات الإسلامية بشكل عام، ونقد العقل الإسلامي "الجهادي" بشكل أدق، حري بنا التوقف عند أهم التحديات التي فرضتها المستجدات المعرفية والسياسية التي برزت بعد صدمة اعتداءات نيويورك وواشنطن من جهة، و"الطبعات الإسلامية والأوروبية" الصادمة لهذه الاعتداءات، كما تمت في السعودية والمغرب وإندونيسيا ومدريد وتركيا ولندن.. إلخ، ونوجزها بدورها في عشرة تحديات:

1. أكدت الاعتداءات الدموية التي ميّزت أنحاء المعمور خلال العقد الأخير، ونتحدث تحديدا عن الاعتداءات التي شهدت تورط عناصر إسلامية، أن هناك لائحة عريضة من التحديات العقدية والمذهبية والإيديولوجية التي تنتظر مكاشفة صريحة من الناطقين باسم العقل الإسلامي/العربي المعاصر، بداية بإعادة فتح أوراش أسئلة النهضة والإصلاح، كما تم افتتاحها منذ قرن من الزمن، عبر رموز التيار الإصلاحي النهضوي، على عهد محمد عبده ورشيد

(1) سواء تعلق الأمر بالحركات الدعوية، أو السياسية أو "الجهادية".
(2) والذي يُؤاخذ عليه من قبل رموز التيار الليبرالي العربي، "عدم القدرة على التصدي لفقه وأدبيات الحركات الإسلامية.

رضا وجمال الدين الأفغاني، ونهاية بتحديات سياسية راهنة، تهم طبائع السلطات الــزمنية الحاكمــة في الــدول العربية والإسلامية وأسئلة الديمقراطية وحقوق الإنسان، وإحقاق دولة القانون والمؤسسات، وليس دولة الأشخاص والقبائل.

2. بــرهنت ذات الاعتداءات سالفة الذكر، أننا إزاء "فتنة فقهية عمياء"، تتطلب خطــوات شــجاعة من فقهاء المجال التداولي الإسلامي العربــي، سواء تعلق الأمــر بفقهــاء المؤسسة الدينية الرسمية، ممن تعودنا عليهم العيش خارج إطار الــتفاعل الرصين مع هذه التحديات، أو فقهاء الحركات الإسلامية (الدعوية والسياسية و"الجهادية")، ممن ينافسون السلطة الزمنية الحاكمة على النطق باسم الإسلام القطري، وأخيرا، الفقهاء المستقلين، من غير المحسوبين بالضرورة على المؤســسات الدينية الرسمية أو الحركات الإسلامية، وقد نصطلح عليهم بفقهاء "الإسلام النظري"، ممن يُعوّل عليهم كثيرا في حمل لواء "الشجاعة الفقهية" في معرض الاشتباك مع مقتضيات تلك "الفتنة الفقهية العمياء".

3. يمكــن اعتبار القلاقل الفقهية والمعرفية التي أفرزتها الممارسة الإسلامية الحركية، وفي مقدمــتها ما يصدر عن تنظيم القاعدة، فرصة تاريخية لفتح أوراش جريئة حول طبيعة أنماط التديّن المطلوب اليوم، لأن إبقاء الأمر كما هو عليه من قبل العلمــاء والمفكــرين وصناع القرار الديني وأصحاب الأفكار الطولى، يُكرّس خــيار "اختطاف الإسلام"، أو "اختطاف النطق باسم الإسلام" من قبل ممثلي الحركات الإسلامية.

4. مــن أبــرز الــتحديات اللصيقة بالتفاعل المفاهيمي والمعرفي مع الأطروحات الغــربية، حتمــية الحسم مع إسقاطات أطروحة "الإسلام المعتدل" المُرَوّج لها أمــريكيا في تقارير "راند" أو في العديد من مقالات دانيال بايبس، على اعتبار أنهــا تبقى عصية على التدقيق، وحتى إذا سلّمنا في الحسم في ماهية "الاعتدال الإســلامي"[1]، تصطدم هذه الأطروحة بعوائق موضوعية أهمها عدم مراجعة الــسياسيين الأمــريكيين لطبائع السياسة الأمريكية المتبعة في التعامل مع أهم القــضايا العــربية والإســلامية المــصيرية، وبدهي أن أضعف الإيمان التعامل

(1) لم يتم التسليم أو الاتفاق على تعريف مُحدّد لمفهوم "الإرهاب"، فالأحرى أن يتم تأجيل الحسم في ماهية "الإسلام المعتدل".

الأمريكي مع مراجعات "الجهاديين"، ومراجعات الأنظمة العربية والإسلامية، يتطلب مراجعات في ذات السياق، وليس التمادي في شيطنة مختلف الفصائل الإسلامية الحركية، أو تبني الخيار الاستئصالي في التعامل مع هذه الحركات[1]، وفي أسوأ الأحوال، توظيف القراءات الدستورية من أجل قطع الطريق على انخراط الحركات الإسلامية المعتدلة في العمل السياسي.

5. كانت نكسة 1967 مناسبة موضوعية لكي يعيد الوعي العربي المعاصر طرح أسئلة الوجود والهوية والمرجعية، ومراجعة العديد من المفاهيم والمُسلّمات، بما يفسر، ضمن أسباب أخرى، صعود نجم الحركات الإسلامية، في مختلف تفرعاتها الحركية، دعوية أو سياسية أو "جهادية"، ويمكن اعتبار منعطف 11 أيلول (سبتمبر) 2001، نكسة جديدة لإعادة طرح ذات الأسئلة على العقل الإسلامي العربي المعاصر، في ظرف زمني قصير بين الصدمة الإسلامية/العربية الأولى (1967) والصدمة الإسلامية/العربية الثانية (2001)، بما يفيد أن الأجوبة التي حرّرها العقل الإسلامي العربي على دروس وتبعات الصدمة الأولى، لا زالت في طور البداية، بمزالق جمّة، أفرزت تقاطعا مع ظروف وعوامل خارجية (طبائع الاستبداد الغربي العولمي)، الصدمة الإسلامية الثانية.

6. فرضت الاعتداءات التي طالت الولايات المتحدة والدول الأوروبية جملة من التحديات على المسلمين بشكل عام، وتحديات مضاعفة على المسلمين في الغرب، بما يشفع لباحثة بريطانية رصينة لاعتبار أن "الباب مفتوح أمام المسلمين في الغرب ليبرهنوا على أن باستطاعتهم التأسيس لخطابات ومبادرات قوية تعود بالنفع على العالم بأسره"[2]، وقبل طرق باب هذا الباب، هناك تحد شرعي وأخلاقي كبير على الفقهاء المسلمين المعتبرين والوازنين من أجل تفادي

---

(1) بما يُفسّر اضطرار حركات إسلامية معتدلة، ومنخرطة في العمل السياسي، للدفاع عن مشروعها وتبرئة مواقفها من "المواقف الإرهابية"، كما تم مثلا في الحالة المغربية مع فورة القراءات الإسلامية الصادرة عن حركة "التوحيد والإصلاح" وحزب "العدالة والتنمية" بعد صدمة اعتداءات الدار البيضاء في 16 أيار (مايو) 2003، والتي توقفت عند تمرير خطاب "التبرئة" مما يصدر عن الحركات الإسلامية "الجهادية".

(2) Sara Silvestri. Radical Islam: Threats and Opportunities, op. cit., p. 126.

تمرير فتاوى واجتهادات تشوش على أوضاع الجاليات والأقليات الإسلامية في الوضع الراهن.

7. من التحديات اللصيقة بمُنظّري العمل الإسلامي الحركي، تحدي معرفي لا نطلع عليه إلا في أعمال النقد الذاتي، كما صدرت عن بعض المفكرين الإسلاميين، ونتحدث عن تحدي الانتقال من "فقه الصحوة الإسلامية"، نحو "فقه الثقافة النقدية"، يُلائم التحديات الإسلامية والكونية على حد سواء، لاعتبارات عدة؛ أهمها أن المسلمين اليوم لا يعيشون منعزلين من جهة، إضافة إلى أن جزء كبيرا من مسلمي اليوم، يعيشون خارج الرقعة الجغرافية الإسلامية، ونتحدث عن الأقليات الإسلامية في القارتين الأوروبية والأمريكية.

8. هناك تحد حضاري مؤرق، ملقى على عاتق أهل الأفكار الطولى في مجالنا التداولي الإسلامي العربي، يرتبط بسُبُل إسهام مسلمي اليوم في مشروع التصدي العالمي لأعطاب الحداثة المادية والروحية، ولو أن المسلمين يعتبرون من أبرز ضحايا هذه الأعطاب، كما تجلى في الحقبة الاستعمارية، أو في صفقات وإكراهات حقبة ما بعد استقلال الدول الإسلامية القطرية، دون الحديث عن تحدي التصدي المشترك لأخطار البيئة والتلوث والتسليح، وتحديات معرفية مؤرقة للغاية، كتحدي تصاعد النزعات الفردية والاستهلاكية والإلحادية في ربوع العالم، وبالجملة، فإن "أم المسائل هي كيف تستعيد الأمة الإسلامية ما أمرها الله أن تقوم به فرض عين على كل أفرادها فلا تتركه للاغتصابين التشريعي للعلماء والتنفيذي للأمراء فتحقق الشروط التي تؤهلها لأن تكون خير أمة"[1].

9. هناك تحد سياسي يهم صناع القرار في الدول العربية والإسلامية، ويرتبط بالحضور الوازن لمختلف أطياف العمل الإسلامي الحركي، حيث أصبحت الأنظمة الإسلامية والعربية الحاكمة، مطوقة بين الضغط الغربي والإكراه الإسلامي الحركي، بما يفسر مدى تباين السياسات الإسلامية والعربية في التعامل مع الحركات الإسلامية، والتي تتفرع على خيارات عدة، من تبني

(1) أبو يعرب المرزوقي: مفارقات الخطاب الإسلامي المعاصر، القدس العربي، لندن، العدد 5284، 25 أيار (مايو) 2006.

المقاربة الاستئصالية إلى تبني خيار الإدماج، مرورا عبر الترويض والضغط بما يخدم مصالح السلطات الزمنية الحاكمة بالدرجة الأولى.

أصبح جليا اليوم، أن مجمل هذه المقاربات، في حاجة إلى مراجعات جذرية بما يفيد راهن ومستقبل العالم الإسلامي والوطن العربي، وليس اختزال حسابات المصالح والمفاسد في ما يهم صناع القرار الأمني والسياسي، بالصيغة القائمة اليوم في أغلب الدول الإسلامية والعربية.

10. وأخيرا وليس آخرا، هناك تحد مؤرق فرضته إكراهات اللعبة السياسية ومقتضيات "المراجعات الفقهية" وضغوط الأنظمة العربية والإسلامية، ونتحدث عن تحدي انتقال الصراع إلى داخل الرقعة الإسلامية الحركية، بين التيارات الإسلامية المعتدلة و"الجهادية" من جهة، أو حتى بين "الجهاديين" أنفسهم، كما اطلعنا على ذلك مثلا في مراجعات أبي مصعب السوري في معرض تقييم تجربة الإسلاميين "الجهاديين" بالجزائر، ومن المثير أن نجد أن أبرز من يتصدى للأطروحات "الجهادية" ليس فقهاء المؤسسات الدينية الرسمية، من مدمني تحرير أدبيات "فقه المراوحة المكانية"، وإنما فقهاء ومشايخ الحركات الإسلامية التي كانت محسوبة على التيارات "الجهادية" قبل أن تُعدّل أدبياتها وتنخرط في أهم وأبرز حركات النقد الفقهي المؤسس ضد أدبيات أتباع أسامة بن لادن، كما تبيّن في الحالة المصرية على سبيل المثال، مع الأعمال النقدية القيّمة المحسوبة على مراجعات "الجماعة الإسلامية".

المبحث الثالث: المُسلّمات المفاهيمية العشر

نأتي لأهم المُسلّمات المفاهيمية المطلوب من صناع القرار في المجالين التداوليين المعنيين (الإسلامي/العربي والغربي) أخذها بعين الاعتبار، وقد ارتأينا الحديث عن "مُسلّمات" لاعتبارين اثنين على الأقل:

أ – أولهما أن المُسلّمة عند أهل الرياضيات والمنطق، أشبه بالأمر البدهي، غير القابل للنقاش والجدل، وبالتالي، تُصبح أمرا "مُتفقا عليه"، عند المعنيين بالمصادقة على ما جاء في حيثيات هذه المُسلّمة؛ وتصبح بالتالي المرجع المفاهيمي والتأسيسي في حالة الاحتكام بعد وقوع خلاف أو جدال.

ب – نعتبر أن صناع القرار في المجالين المعنيين، مطالبون بالمصادقة الضمنية على هذه المُسلّمات، إذا سَلّمنا جدلا أنهم جدّيون فعلا في التصدي للتحديات الجمّة التي أفرزتها تداعيات اعتداءات نيويورك وواشنطن، ومعها الاعتداءات التي طالت العديد من الدول الإسلامية والعربية والغربية.

تأسيسا على هذا التدقيق، سوف نتوقف عند عشر مُسلّمات:

1. تكمن أولى المسلمات في ضرورة الاعتراف بأننا نعيش "زمن الأسئلة" وليس "زمن الأجوبة"، وهذا يهم أبناء المجالين التداوليين معا: الإسلامي/العربي والغربي على حد سواء، فلا أسامة بن لادن يمثل بالضرورة الحضارة الإسلامية العربية، ولا الرئيس الأمريكي الحالي أو السابق، يمثل بالضرورة الحضارة المسيحية/اليهودية/الغربية.

نحن نزعم أن الزمن الحضاري الإسلامي، أو "الزمن الأخلاقي الإسلامي"، هو زمن الأسئلة بامتياز، ولو كنا نمتلك ما يكفي عمليا وليس نظريا من الأجوبة، كما تزعم الإيديولوجيات الناطقة باسم الحقيقية الدينية (الحركات الإسلامية) أو الحقيقة المادية (التيارات العلمانية)، لما تحدثنا أصلا عن "زمن الأسئلة"، أو تحديات جمّة يفرضها وجود الحركات الإسلامية "الجهادية"، أو تحديات أكبر، تهم العقل الإسلامي المعاصر، ومعه العقل الغربي المعاصر.

2. تتأسس المُسلّمة الثانية على الإقرار بأن الإرهاب ظاهرة مُركّبة، ولأنه كذلك، فإنه يتطلب، في معرض تفسيره وتفككيه، تحرير أطروحات أو نماذج تفسيرية بالضرورة مُركّبة، ولو أن دخول المعطى الديني، ساهم في تعقيد الصورة والمقاربات، بما يخدم في الواقع أطروحة تمرير نماذج تفسيرية مركبة، وليست اختزالية، كما اطلعنا على ذلك في العديد من الأدبيات العربية والإسلامية والغربية على حد سواء.

وتأسيسا على هذه المُسلّمة، وما دامت أسبابه تتميّز بتداخل عوامل محلية وكونية من جهة، ومقدمات دينية واجتماعية واقتصادية ونفسية من جهة ثانية، فإننا نخلص إلى خلاصتين متفرعتين: أولها أنه يُصبح من باب تحصيل حاصل، بتعبير المناطقة، أن نزيح جانبا القراءات التفسيرية الاختزالية، والرهان أكثر على ما استجدت به القراءات التفسيرية المُركّبة؛ وثانيها، أنه

يصعب توقع صدور أجوبة شافية وصارمة عن الظاهرة الإرهابية بحكم حداثتها في السياق الزمني العالمي/الكوني.

3. نبدأ بأهم مُسلّمة خاصة بأبناء المجال التداولي الإسلامي العربي، ومفادها أن أزمة الحركات الإسلامية "الجهادية"، تندرج ضمن أزمة أكبر تهم العقل الإسلامي المعاصر، وليست الحركات الإسلامية، أو تيارات "الصحوة الإسلامية"، دعوية كانت أم سياسية أم "جهادية"، سوى إقرارا حركيا على بعض المآزق الكبيرة التي يعيش على إيقاعها العقل الإسلامي المعاصر، ومن هنا، "نتفهم" توظيف العديد من الأقلام الإسلامية/العربية (محمد أركون، المنصف بن عبد الجليل، عبد الوهاب المؤدب، إرشاد منجي..) والغربية (دانيال بايبس، برنارد لويس، ألكسندر ديل فال..)، لأزمات العقل الإسلامي الحركي، في معرض "تصفية الحسابات" مع العقل الإسلامي، ورفع شعارات "نزع القداسة عن القرآن" الذي "يعجّ بالنواقص"، و"إحياء الشكوك التي تطرق إليها سلمان رشدي في آيات شيطانية"، من قبيل أن "الإسلام أضيق أفقا من بقية الأديان".. إلخ.

4. ينبغي التسليم أيضا بأرضية منطقية دالة، مفادها أنه "إذا عولج السبب، فسوف نتوقع نهاية العطب"، وطالما لم يتم الحسم النهائي في الأسباب المتشابكة التي أفضت إلى ظهور نزعات التطرف والعنف والإرهاب، فإنه لا يستقيم الحديث عن نهاية الظاهرة الإسلامية "الجهادية"، ونحن نأخذ بعين الاعتبار الأسباب الذاتية والموضوعية في بروز الظاهرة "الجهادية"، وتتداخل فيها مسؤوليات العقل الإسلامي من جهة، ومسؤولية العقل الغربي من جهة ثانية، وتأسيسا على هذه المُسلّمة، يصحُّ تصنيف خطاب "نهاية تنظيم القاعدة"، ضمن خانة القراءات التحليلية الاختزالية، لأنه يصرف النظر عن جملة من المُسبّبات الذاتية والموضوعية التي أفرزت صعود الظاهرة الإسلامية "الجهادية"، من خلال نموذج تنظيم "القاعدة".

5. إذا سلّمنا بأن اعتداءات الحركات الإسلامية "الجهادية"، داخل وخارج الرقعة الجغرافية الإسلامية، تُجسّد إدانة صريحة لواقع المؤسسة الدينية الرسمية في المجال التداولي الإسلامي، قبل أن تكون إدانة لطبائع السياسات العمومية المتبعة من

قبل السلطات الزمنية الحاكمة، فإنه علينا التسليم في المقابل بأن بعض الأطروحات الأكاديمية والإعلامية المُروّج لها في المجال التداولي الغربي (كما هو جلّي في نموذجي أطروحة "صدام الحضارات" لصامويل هنتنغتون و"نهاية التاريخ" لفرانسيس فوكوياما) تؤسس لخطاب غربي استعلائي، يسعى إلى "تأديب العالم غير الغربي"، في معرض عدم الانصياع لمسارات التحديث والتنمية والحداثة كما هي مُسطّرة في مرجعيات غربية دون سواها، بما يخدم مواقف صناع القرار الغربي، الذين يعتبرون خطابهم الموجه لصناع القرار في الدول الإسلامية والعربية، نمطا وحيدا وموحدا على جميع ساكنة المعمور، وبما يُبرر صدور انتقادات وازنة عن تيار "العولمة البديلة"، تأسيسا على مرجعيات هوياتية مغايرة بشكل أو بآخر للمرجعية الهوياتية للعرب والمسلمين، وأن تختلف هذه المرجعيات مع مُنظري زمن ما بعد سقوط جدار برلين وما بعد منعطف اعتداءات نيويورك وواشنطن أمر محمود، ولكن، أن نختلف نحن، من منطلق مرجعية أخلاقية إسلامية، أولى، من باب أن الزمن الأخلاقي الإسلامي، هو آخر الأزمنة الأخلاقية التي تعرفها الإنسانية، على الأقل، حتى العصر الراهن[1].

6. إذا سلّمنا بأن هناك عدة جبهات لنقد أطروحات الحركات الإسلامية "الجهادية"، ومنها الجبهة المعرفية والجبهة الفقهية[2]، فإنه يجب التسليم لدى صناع القرار في الغرب، بأن أحد أبرز الجبهات المطلوب اختراقها في معرض الاشتباك السياسي مع أدبيات "الجهاديين"، تهم طبيعة السياسات الغربية (الأمريكية والأوروبية بالدرجة الأولى) تجاه العديد من القضايا العربية والمصيرية، لأن تكريس سياسات الكيل بمكيالين بالنسبة إلى قضايا الوطن العربي والعالم الإسلامي، وتكريس الاختلالات الاقتصادية البنيوية بين

(1) نحن نُسلّم بأن الدين الإسلامي هو الدين الخاتم، ولكن، بحكم أن هذه المُسلّمة غير معتد بها لدى أبناء المجال التداولي غير الإسلامي، فقد توقفنا عند مرحلة الزمن الديني الراهن، أي الزمن الإسلامي، بحكم أنه يأتي بعد الزمن المسيحي الذي جاء بدوره بعد الزمن اليهودي.

(2) ومن هنا أهمية المراجعات بفعل تواضع أداء فقهاء المؤسسة الدينية الرسمية في أغلب الدول العربية والإسلامية.

الـــشمال والجنوب (الإسلامي العربـــي)، تخدم أطروحات التيارات الإيديولوجية المتشددة، سواء كانت يسارية، أو إسلامية حركية، كما هو الحال تحديدا مع "الجهاديين"، وفي مقدمتهم، تنظيم "القاعدة".

7. إذا ســـلّمنا بـــأن العقل الإسلامي المعاصر، أصبح معنيا بشكل مباشر بضرورة المـــرور عبر خيار "الإصلاح الديني"، فإنه يجب أخذ الحيطة من إكراهين اثنين على الأقل:

أ – كـــون سيرورة الإصلاح الديني طويلة وشاقة، وتتطلب رجال الإصلاح، وهؤلاء قليلون أو مغيبون، ولا يمكن أن نعول في هذا المشروع على أقلام "العمالـــة الحـــضارية"، أو الأقلام التي تملك قابلية لأن "تضحي بثقافتها الخاصـــة، لارتباطها العضوي، في نظرها، بنظام عام ترفضه كليا"، ولا على علماء يصرون على الانتصار لـــ "فقه المراوحة المكانية"، ونقصد به الأدبيات الفقهية المعاصرة التي تُشرعِن أنظمة التسلط والقمع والاستبداد وتدافـــع عـــن واقع التقليد ضدا على آفاق التجديد، بما ينفع أهل المجال التداولي الإسلامي العربـــي والغربـــي في آن واحد.

ب – أما الإكراه الثاني، فيكمن في المرور العاجل عبر بوابة الإصلاح السياسي، مـــن باب تسهيل مشروع "الإصلاح الديني"، ولن يتم فتح هذه البوابة المـــوازية، مـــن دون مساهمة صناع القرار الغربـــي في هذا الصدد، عبر الـــتوقف عن التدخل الاستراتيجي في الشؤون الداخلية للدول الإسلامية والعـــربية من جهة، وعبر تفعيل الشعارات الكبيرة التي يُروجها الخطاب الغربـــــي أمام المسؤولين العرب والمسلمين، وقد يكون خطاب الرئيس الأمريكـــي الحـــالي، باراك أوباما، الذي ألقاه في القاهرة يوم 4 حزيران (يونيو) 2009، أحد أهم الأمثلة النموذجية في هذا الصدد؛ لأنه طالما لم يـــتم تفعـــيل مقتـــضيات الآمال الكبيرة التي تحدث عنها أوباما في هذا الخطـــاب، فإنه يسهل توقع فشل مبادرات الإصلاح السياسي في المنطقة العـــربية علـــى الأقل، مادمنا نعيش تداخلا عصيا على الانفكاك، ذلك القـــائم بـــين الأســـباب الذاتية والأسباب الموضوعية التي تخدم مواقف الحركات الإسلامية "الجهادية".

8. نحن نُسلّم بأن الاعتداءات الصادرة عن الحركات الإسلامية "الجهادية"، تترجم خللا مزدوجا: هناك خلل بنيوي في بنية المجتمعات الإسلامية من جهة، وفي هيكلة الوضع الدولي من جهة ثانية.

الإحالة على ضرورة طرق بوابة "الإصلاح الديني" إقرار بأن هناك خللا في البنية المجتمعية لمسلمي اليوم، أما الحديث عن وجود اختلالات بنيوية في هيكلة الوضع الدولي، فنترك هذا الإقرار لقلم من أبناء هذا المجال، ويرى أن "المجتمع الدولي، الذي تسيطر عليه في الواقع القوى العظمى الأمريكية، ومنذ بداية الألفية الثالثة، يدّعي أنه يقوم بإصلاحات ثقافية وتعليمية في العالم العربي، لولا أنه لدينا كل الحق في أن نتساءل عما إذا لم تكن تخدم في تجريم مظاهر مقاومة نتائجها السيئة أكثر مما تخدم في إيجاد حل واقعي وعادل لهذه الأخيرة"[1].

9. مطلوب التسليم بأنه لا يكفي صدور مراجعات فقهية عن الجماعة الإسلامية، حتى نعلن عن نهاية الحركات الإسلامية "الجهادية"، لأنه لا بد من صدور مراجعات أمنية، وسياسية[2]، والانفراج السياسي، إضافة إلى مراجعة السياسات الغربية، وبدهي أنه إذا انخرط العلماء المعتبرون والوازنون في مساعدة الأمة الإسلامية، فإن أبناء هذه الأمة، سيرفضون الفهم المتشدد للدين، وسوف يدينون العنف، ونحتاج إلى دعم هذا الفهم وتعزيزه من خلال "إكساب أهل الاعتدال والوسط صوتا ومن خلال تشجيع القيام بعمليات الإنصاف والمصالحة على الصعيد العالمي لإنصاف الشعوب الإسلامية"، وبكلمة، فإن "معالجة هذه القضايا ليست مسألة علاج نفسي جماعي للمسلمين، بقدر ما هي نزع لألغام يمكن أن تنفجر في وجوه العالمين في لحظة من اللحظات، وقد بدأنا نرى تجليات ذلك"[3].

10. وأخيرا، وليس آخرا، إذا سلّمنا بأن التفاعل مع فكر وقيم وثقافة الغير، أصبح شرطا مُلحا لبناء نموذج حضاري يخدم المستقبل المشترك للإنسانية، فإنه يجب

(1) فرانسوا بورغا: الإسلام السياسي في زمن القاعدة، مرجع سابق، ص 15.
(2) من قبيل الاعتراف بحق الحركات الإسلامية المعتدلة بالانخراط في العمل السياسي الرسمي.
(3) حوار مع أحمد عبادي، أمين عام "الرابطة المحمدية للعلماء" بالمغرب، أجراه جواد الشقوري، فصلية الإحياء، الرباط، العدد 25، تموز (يوليو) 2007، ص 33.

التسليم أيضا بأن الرهان على تلاقح القواسم القيمية والأخلاقية المشتركة تقع بالدرجة الأولى على أهل الأفكار الطولى، بمن فيهم، في التمثيلية الخاصة بالمسلمين، الفقهاء المعتبرين والوازنين، والتسليم أخيرا، بضرورة الإقرار بأعطاب الذات والغير، سواء كانت أعطابا في الفكر أو في القول أو في الممارسة.

وبالنتيجة، إذا كان بعض عقلاء المجال التداولي الإسلامي يقرون بوجود مذاهب إسلامية تعيق هذا التحالف وهذا الاشتباك القيمي المؤسس لمستقبل عالمي أفضل، فيجب في المقابل على عقلاء المجال التداولي الغربي الإقرار بأن هناك تيارات إيديولوجية لا تقل خطورة عن إعاقة خيار التحالف والتفاعل بما يخدم مصالح ومستقبل الإنسانية جمعاء؛ وقد يكون القاسم المشترك الأهم بين مُمثُلي المجالين التداوليين، يكمن على الخصوص، في الخطاب الأخلاقي، أو الخيار الأخلاقي، الذي أصبح ملاذا للعديد من المفكرين الغربيين قبل الشرقيين، أليست ماهية الإنسان، تُحدّد أصلا بالأخلاق قبل العقل!

تعريف بالكاتب

منتصر حمادة، باحث مغربـــي من مواليد سنة 1971 بالقنيطرة، المغرب.

كاتب وصحفي ينشر بانتظام في عدد من الجرائد والمجلات والدوريات العربية مـــنها "القدس العربـــي" اللندنية، "أخبار العرب" الإماراتية إلى جانب "العصر"، "الأخبار"، "الشروق" المغربية.

رئيس تحرير موقع "الرابطة" وعضو هيئة تحرير فصلية "وجهة نظر" المغربية.

لـــه عـــدد مـــن الإســـهامات البحثية حول الحركة الإسلامية فكرا وخطابا وتنظيما، وقد صدر له:

"في نقد خطاب 11 سبتمبر" (2002).

"الإسلاميون المغاربة واللعبة السياسية" (2003).

"قراءة في نقد الحركات الإسلامية" (2007).

"المسلمون وسؤال تنظيم القاعدة" (2007).

"نحن وتنظيم القاعدة" (2008).

"نحن والتصوف" (2009).